بنت الشاطئ

الحياة الإنسانية عند أبى العلاء

لِمَ خُلِقْنَا ؟ وَكَيْفَ نَحْيَا ـ وإلى أين المصير ؟

بحث نوقش فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى ١٨ من يونية ١٩٤١
ونال درجة الماچستير فى الآداب ، مع مرتبة الشرف الأولى



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر


مكتبة لسان العرب
https://hmmt55.com/lisaan03

الإهـــداء

إلى الذين يؤمنون بأن أبا العلاء

لا يزال فى حاجة إلى الدرس !

المراجـــع

أشرتُ في أذيال الصفحات إلى المراجع ، وعرَّفتُ بها ، فلم أرَ حاجة لما اعتاده المؤلفون من التزيد بوضع ثبَت مفرد لتلك المراجع .

دليل

مقدمة النشر :

١

يظهر هذا البحث فى موسم أبى العلاء ، والعالم الأدبى يستعد للاحتفال بذكرى مرور ألف عام على مولده ، وأدباء الشرق العربى يتهيئون للرحلة إلى معرة النعمان ، موطن شاعرنا الصديق .

٢

كُتب هذا البحث فى عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ — وقُدم إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير فى الآداب ، وقد مضت على ذلك ثلاثة أعوام . وإنها لجديرة بأن تزيد معارفنا عن أبى العلاء ، وتمحص آراءنا فيه ، وبخاصة إذا اتصل الدرس وتتابع البحث .

وأبو العلاء الذى حُبّب إلىّ ، بما وجد من نفسه ، وأحسن الترجمة عنها فى فنه ، قد أغرانى بأن أتخذ منه موضوعات دراساتى الجامعية العليا ، فكان من حسن التوفيق أننى أمضيت هذه الأعوام الثلاثة فى تحقيق نص (رسالة الغفران) ، واتخذت من درسها موضوعا لدرجة الدكتوراه فى الآداب ، فكان لى من ذلك فرصة مواتية ، لمداومة دراسة أبى العلاء ، وزيادة المعرفة به .

وبهذه المناسبة ، أنصح لزملائى الجامعيين ، أن يختاروا لدراساتهم العليا موضوعاً تتصل فيه مرحلتاها ، اتصالا يحقق التخصص والعمق ، اللذين هما أجلى سمات الدرس الجامعى .

٣

وإذا كان العكوف على درس أبي العلاء طوال هذه المدة ، قد أجدى على مراجعة هذا البحث ، فإن من خير ما أجدى عليه كذلك ، الرجوع إلى التقرير القيم الذى كتبه عنه شيخي الجليل « الأستاذ أمين الخولى » ، والنظر فى مناقشاته لى أثناء الامتحان . وأشهد أن هذا التقرير ، قد غير من رأيي فى غير مسألة تغييراً جوهرياً ، فما أتردد فى الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجي الذى تدين به حياتى الفكرية لشيخى الجليل .

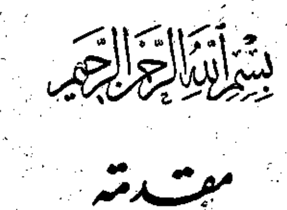
وبهذه المناسبة أيضاً ، أرجو أن يكون من التقاليد الجامعية المقررة ، أن يقدم حضرات الأساتذة الممتحنين ، تقارير مكتوبة عن الرسائل التى يناقشونها ، تُحفظ معها ، ويتيسر لتلاميذهم الانتفاع بها فى تكملة أبحاثهم ، ولا سيما حين يفكرون فى نشرها .

٤

وبعد فإنى من مصر الخالدة ، وفى ريفها الباسم الذى عاشر الحضارات المختلفة على مر الزمان ، أبعث تحية التقدير إلى أبى العلاء ، الذى ارتفع بفنه إلى آفاق لم تشارفها جمهرة النقاد والأدباء قبله ، فغدا أديب العربية الجدير بأن تحتفل به فى أقاليمها المختلفة

شوشاى
يولية ١٩٤٤

بنت الشاطىء



مقدمة

موضوع البحث :

حين فرغت لدراسة أبي العلاء ، سألني أحد أساتذتي الفضلاء ، عن موضوع البحث الذي أعده لرسالتي ، فأجبت في شيء من التحمس والاعتزاز « أبو العلاء المعري » .

قال : ولكن أبا العلاء قد خدم ، وظفر بشيء غير قليل من العناية ، وحسبه ما كتبه عنه أستاذك الدكتور طه حسين بك .

قلت : لعل الأمر كما تقول ولكنه جدير بهذا .

فقال ملحاً : ولكن في تاريخنا الأدبي أشخاصاً غير أبي العلاء لم يخدموا كما خدم ، وهم أيضاً جديرون بالعناية والبحث .

مضيت أفكر : أمن الحق أن أبا العلاء قد خدم ؟ وهل يقضي الواجب العلمي أن نكتفي بما كتب عنه ، لنكتب شيئاً عن سواه ممن لا يزالون مغيّبين في ثنايا العصور وأطواء التاريخ ؟ .

* * *

أبو العلاء قد خدم حقاً ، ولكنها الخدمة العامة الجامعة التي تأخذ حياته جملة واحدة ، فتلم بها وتحدثك عنها .

وكانت هذه الدراسة الجامعة أمراً طبيعياً مفهوماً فى فجرحياتنا الجامعية ، حين بدأت كلية الآداب تعلن الحرب على طريقة دراسة الأدب العربى جملة واحدة يقوم بها فرد واحد ، على نظام العصور التى تساير العصور السياسية وتتمشى معها . ولقد نجحت الكلية فى توجيه الدراسة الأدبية توجيهاً يجعل للأدب شخصية ذات اتصال بالسياسة ، ولكنها أيضاً ذات اتصال بالمجتمع والبيئة . ثم هى فوق هذا — وقبل هذا — ذات حظ من الاستقلال ، يميز شخصيتها ولا يلغيها بإدماجها فى العصور السياسية[1] .

ونجحت كلية الآداب فى توجيه الطلاب نحو التخصص فى الدراسة الأدبية . فرأينا دراسات مستقلة تتوفر على موضوع بعينه أو شخص بذاته ، وكان هذا التخصص يشبه أن يكون طفرة فى العهد الذى كان تاريخ الأدب العربى يدرس فيه جملة أو عصراً فعصرا .

على أن هذه الدراسات — التى كانت بالأمس نوعاً من التخصص — أصبحت اليوم ذات صفة عامة تخرج بها عن التخصص — فالكلية تتجه اليوم إلى نوع من التخصص أدق وأضيق — إذا صح هذا التعبير — من الدراسة العامة لشاعر أو أديب . هى اليوم تحاول أن تضيق دائرته ، فتوجه العناية إلى ناحية واحدة من نواحى الشاعر — أو مسألة واحدة من موضوع واسع .

ذلك لأننا اليوم كما يقول حضرة الأستاذ أمين الخولى . « فى عصر شعاره التخصص ، بل التخصص الدقيق العميق ، لا فى الأصول فحسب بل فى الفروع والمسائل . والبيئة الجامعية هى بيئة البحث المتخصص المتمادى ، الذى يعكف السنين الطوال على الموضوع الواحد ، بل المسألة الواحدة ، وبهذا الجهد النافذ إلى أعماق المسائل . . . يقوم بناء

(١) أعددتُ هـذا البحث ونوقش فى الجامعـة ، قبل أن أعتنق الفكرة الجديدة عن «الإقليمية فى الأدب» وهى التى دعا إليها أستاذنا أمين الخولى ، وبسطها كتابه «فى الأدب المصرى» وبهذه الفكرة ، يتم تصحيح المنهج الجامعى فى درس الأدب وتاريخه .

الهيكل العلمى الوطيد المؤيد — الذى بمثله تقدر النهضات وتؤرخ العلوم وتتبين خُطا انتقالها . . . . »

« فإذا ما أردنا أن نقوم بحق البحث ، أو نخلص لمنهج الدرس ، أو نؤدى الرسالة الجامعية — فيما يقولون — فلنصن حرمة هذا التخصص مهما تعق دونه عوائق أو تذدنا عنه موانع[1] » .

وإذن فلا نزال فى حاجة إلى دراسات جديدة ، ولا بأس علينا من البحث فى حياة أبى العلاء — أعنى فى ناحية واحدة من نواحى هذه الحياة الفذة .

***

وفى الحق — إن هناك فى تراثنا الأدبى رجالاً لم يخدموا ، ومواضيع لم تدرس ، ولكن من الخير لنا أن نمضى فى استكمال بحث موضوع واحد ، ونبذل جهدين لمسألة واحدة ، بدلا من أن نوزع جهودنا ونترك بحثاً غير مستكمل لنخدم بحثاً جديداً .

***

على أن هذا التشبث بأبى العلاء لم يكن مصدره الحرص على التخصص واستيفاء الدراسة فحسب ، وإنما كان مصدره أيضاً — شيئاً كثيراً من الميل لأبى العلاء والتعلق به ، مذ كنت طالبة فى السنة الثالثة بكلية الآداب .

اتصلت بأبى العلاء بعد أن ترامت بيننا الأبعاد ، وفصلتنا عشرة قرون جدت فيها أحداث على العربية ، وتغير الذوق الفنى لأهلها — أتى أبو العلاء على قمة عصر التكلف ، وأتيت فى عصر الحرية والانطلاق — أتى أبو العلاء على أثر المدرسة التى بدأها مسلم — أو أبو تمام — وانتمى إليها المتنبى ، واستوى على قمتها أبو العلاء ، وأتيت أنا فى المدرسة الحديثة التى تنبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع ، وتبغض

---

(١) من مقدمة بحث حضرة الأستاذ أمين الخولى فى « البلاغة وعلم النفس » وقد نشر فى مجلة كلية الآداب — المجلد الرابع الجزء الثانى .

أشد البغض أحكام الضرورة فى الشعر — بله النثر — وتضيق كل الضيق بالكلمات التى تكره على البقاء فى أماكنها لتسوية صنعة الشعر أو النثر .

كان هذا كله خليقاً بأن يصرفنى عن أبى العلاء ويشيع فى نفسى الجفوة والملل . ولقد أحسست شيئاً من هذا قبل حضور الدرس الأول عن أبى العلاء . كان أستاذنا الدكتور طه حسين بك قد طلب إلينا أن نعد للدرس مقدمة « رسالة الغفران » ، وأذكر أننى أمضيت ساعات طوالا أعالج فهم المقدمة ، ونفسى تثور بكل ألوان السخط والمقت لأبى العلاء .

ثم حضرت درس الأستاذ وإنى لأهم بأن أنفض لديه ما وجدت من ألغاز أبى العلاء ، وما أحسست من سخط على إغرابه وتكلفه . ولكن الأستاذ تحدث فنسيت — فى تتبع حديثه — ما كان يطوف بنفسى . ومضيت أتبعه وهو يقدم إلينا « رسالة الغفران » ويلم إلمامة يسيرة بحياة أبى العلاء .

وانتهى الدرس — فإذا بى أمضى إلى « رسالة الغفران » أقرؤها من جديد ، وأحاول أن أهتدى إلى الآفاق الجديدة لأبى العلاء — بعد الحديث الأول لأستاذنا الدكتور طه حسين بك .

ومضت الأيام — وتتابعت الدروس . أمضيت عامين أقرأ فيهما على الأستاذ رسالة الغفران واللزوميات والفصول والغايات — فلا والله ما شعرت بجفوة ولا ملل ، ولا ضقت بهذا الإغراب الذى يكلف به أبو العلاء ، وذلك التكلف الذى قد يسرف فيه .

لقد كان أستاذنا معجباً بأبى العلاء أشد الإعجاب وقد وفق فى أن يقدمه إلينا — حتى إذا مضينا فى الدرس ، عاد أبو العلاء يفرض نفسه علينا ويقترب من قلوبنا ، فما مضت السنتان إلا وهو عزيز عندى أثير لدىّ .

***

ونظرت فيما بين أيدينا من دراسات عن أبي العلاء ، فإذا هي تتناول حياته جملة من غير اهتمام بناحية خاصة تؤثرها بالدرس . .

ثم نظرت فيما لدينا من آثاره فإذا فيها آراء شتى مبعثرة ، تحتاج إلى أن تجمع وتخدم لتكشف لنا عن شخصية أبي العلاء .

لقد عرفنا أبا العلاء : متى عاش وكيف امتحن ، وعرفنا شيئاً من أقوال المؤرخين عنه : من أصدر منهم عن هوى ومن كتب عن أمانة وإخلاص . ولكننا لم نعرف بعد ، كيف كان يفكر ، وكيف كان يواجه مشكلات الحياة ، وكيف كان اضطرابه في مسائل الكون .

هنا صح مني العزم على إيثار أبي العلاء بدراستي ، واتجهت إلى آثاره أجمع شتات أقواله في المسألة الواحدة ، وأرقب اضطرابه وحيرته في تيه الحياة .

***

بدأت هذه الدراسة منذ سنوات . فكنت حريصة على أن أقوى اتصالي بأبي العلاء وأقرأ ما وصل إلينا عنه . فلما نلت درجة الليسانس فرغت لأبي العلاء فأمضيت وقتاً غير قصير في صحبته ، قرأت سقط الزند ، وملقى السبيل ، ومجموعة رسائله ، والرسائل التي دارت بينه وبين داعي الدعاة ، وأعدت قراءة الفصول والغايات واللزوميات ورسالة الغفران . فرأيت أبا العلاء مهموما معنّى بحياة الإنسان بوجه خاص ، يتجه إليها بنفسه وعقله ، ويبذل لها الحظ الأوفر من عواطفه وتأملاته .

لم خلق الإنسان ؟

وكيف يواجه الحياة . . . . ؟ وماذا يلقى فيها ؟

وإلى أين المصير . . . . ؟

تلك مسائل عقلية — تعتبر إلى مجال الفلسفة أقرب ، ولكن أبا العلاء يعرضها علينا عرضاً إنسانياً مؤثراً ،

وإنك تستطيع أن تجد هذه الأبحاث فى كتب الفلسفة : منظمة ، دسمة ، عميقة ، ترضى عقلك ومنطقك ، ولـكنك تجدها فى تأملات أبى العلاء ، صدى لإنسانيتك وغذاء لنفسك وقلبك .

لقد تصدى الفلاسفة والمتكلمون لبحث هذه المشكلات، ولـكنهم كانوا يعالجونها بعقولهم . أما أبو العلاء فيعالجها بكل قوى إنسانيته . فليس عقله وحده الذى يفكر ويتحدث ، وإنما يحدثك منه العقل والنفس والقلب جميعاً ، يحدثك منه الإنسان الذى يفكر ويحس ، ويشتهى ويتألم ، ويغضب ويرضى ، ويثور ويستسلم .

الإنسان بكل ما فيه من قوة وجبروت .

وكل ما فيه من ضعف وقصور .

***

هذا هو البحث الذى اخترته وتوفرت على دراسته ، منتفعة بالدراسات التى خدم بها أبو العلاء ، تحت إشراف أستاذنا الـكبير الدكتور طه حسين بك ، الذى أعترف له بالفضل الأول فى توجيه هذا البحث ، وتوسيع آفاقه .

ولست أنسى فضـل أستاذىّ الجليلين : الشيخ مصـطفى عبد الرازق باشا ، والأستاذ أمين الخولى ، فقد لقيت من توجيههما وإرشادهما ما أعاننى وسدد خطاى .

فإليهم جميعاً ، أوجه أجمل الشكر وأصدق التقدير ؟

الكتاب الأول

المقالة الأولى : منهج أبى العلاء فى التفكير

« الثانية : مكانه بين الشعر والفلسفة

« الثالثة : أبو العلاء أمام هذه الحيـاة

المقالة الأولى

منهج أبي العلاء فى التفكير

(١) إيمانه بالعقل واعتباره أصلا للمعرفة.
(٢) قياس الحس والخبر بالعقل .
(٣) كفره بالعقل واتهامه إياه .
(٤) تعليل اضطرابه وتناقضه .
(٥) اعترافه بإعجاز القدرة .

نحن اليوم نعرض تأملات أبى العلاء فى حياة الإنسان . لم خلق ؟ وكيف يعيش ؟ وإلى أين المصير ؟ وهو بحث شائك متعب ، لا بد له من مدخل كما يقول المناطقة ، فهو يقتضي منا أن نجلو الشخصية العقلية لأبى العلاء قدر استطاعتنا ، فنبحث فى نظريته فى المعرفة والأصول المعتمدة لديه ، وطريقته فى تناول الأشياء وعرضها .

أصول المعرفة :

ليس من العسير أن تحصى الأصول المعتمدة للمعرفة لدى أبى العلاء ، فهى قليلة جداً يهون إحصاؤها ، ولكن من العسير أن تجد أصلاً منها قد سلم له فاطمأن إليه ، وبرئ فيه من التناقض والاضطراب .

قال أبو العلاء فى الفصول والغايات :

« يدرك العلم بثلاثة أشياء . بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر المتواتر–٤٦٨ »

فلننظر الآن فى هذه الأصول ، ولنحاول معرفة رأى أبى العلاء فيها ، ومدى اطمئنانه إليها .

إيمانه بالعقل :

(أما العقل فقد قال أبو العلاء إنه اعتمده أصلا أول للمعرفة وصرح بإيمانه به ، وألح في الدعوة إلى الائتمام به والاهتداء بهديه .

واللزوميات بوجه خاص هى المجال الذى أعلنت فيه هذه الدعوة فى إلحاح وتكرار ، فالعقل هو المرشد الهادي ، وهو المخلص من الحيرة والضلال ، وهو سبيل الحق وطريق المعرفة .

فكروا فى الأمور يكشف لكم بعض الذى تجهلون بالتفكير ل ٤١٨/١

فكرى أنت ربما هدى الإنسان للمشكلات بالتفكير ٤١٨/١

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح ، هان ما صعبا ١٠٤/١

ولم يتناول ذروة الحق غائص من الناس إلا بالروية والفكر ٢٧٣/١

ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله عنه ، ولم تر فى الهيجاء معتركا ١٥١/٢

تحير مسترشد فوفق لما استدل ٢٥١/٢

تفكر فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكر ٤٢٧/١

وحذر من ترك العقل ، وحمل على من لم يهتد بهديه ، ورأى ألا فضل للإنسان على النمال إذا جرد من العقل :

من اهتدى بسوى المعقول أورده من بات يهديه ، مساء طالما تبلا ل ١٩٣/٢

فاحذر ولا تضع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصر ٢٩٨/١

تركت مصباح عقل ما اهتديت به والله أعطاك من نور الحجا قبسا ٢٢/٢

إذا الحيوان فض العقل منه فما فضل الأنيس على النمال ؟ ٢٢٧/٢

وأسرف أبو العلاء فى تمجيد العقل ، و بلغ من اطمئنانه إليه وتمجيده إياه ، أن جعله أفضل نصير وخير مشير ، وأعلن إمامته ، وجعله نوراً هادياً ، ونبياً يأتى بالغيب .

اللب قطب ، والأمورُ له رحى   فيه تُدَبَّرُ كلها وتدار لز ٣٣١/١

الفكر حبل متى يمسك على طرف   منه ، يُنط بالثريا ذلك الطرف ٩٨/٢

والعقل كالبحر ما غيضت غوار به   شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف ٩٨/٢

خذوا سبيل العقل تهدوا بهديه   ولا يرجوَن غيرَ المهيمن راج

ولا تطفئوا نور المليك فإنه   ممتع كلٍ من حجى بسراج ٢١٤/١

و إنك إن تستعمل العقل لم يزل   مبيتك فى ليل بعقلك مشمس ٢٨/٢

إذا قُرِن الظن المصيب من الفتى   بتجربة ، جاءا بعلم غيوب ١٢٨/١

لاأشرب الراح أشرى طيب نشوتها   بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى ٢٧٢/٢

عليك بالعقل واترك غيره هدراً   فالعقل خير مشير ضمه النادى ٢٨٨/١

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً   وأرحل عنها ما إمامى سوى عقلى ٢١٠/٢

كذب الناس لا إمام سوى العقـــل مشيراً فى صبحه والمساء

فإذا ما أطعتَه جلب الرحمـــة عند المسير والإرساء ٦٥/١

أيها الغر قد خصصت بعقل   فاسألنه فكل عقل نبى ٤٢٨/٢

وقال فى رسالة الغفران :

« و إذا المعقول جعل هاديا نقع بريه صاديا ، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل؟ . . . هيهات ! — ١٥٥ »

وقال فى الفصول والغايات :

« العقل نبىء ، والخاطر خبىء ، والنظر ربىء ، ونور الله لهذه الثلاثة معين — ٢٨٠ » .

وكان من مظاهر اطمئنانه إلى العقل ، أن خاصم السفسطة فى إنكار الحقائق فقال :

وقال أناس : ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى ؟ ٢٨١/٢

هذا الفتى أوقح من صخرة يبهت من ناظره حيث كان
ويدّعى الإخلاص فى دينه وهو عن الإلحاد فى القول كان
يزعم ، أن العَشر ما نصفها خمس ، وأن الجسم لا فى مكان ! ٣٩٤/٢

رأيه فى الحس والخبر — قياسهما بالعقل :

نترك العقل الآن ونسأل عن الحس والخبر ، هل اعتمدهما أبو العلاء أصلين للمعرفة ؟ أقواله فيهما تختلف (يطمئن إليهما حيناً و يرفضهما حيناً آخر) وتعليل هذا الاختلاف واضح (ذلك لأن أبا العلاء حينما اعتمد العقل أصلا) وأسرف فى تمجيده والإيمان به ، (جعل ما سواه مقيساً عليه) إن أقره العقل قبله ، و إن أنكره رفضه .

الحس يكذب أحياناً ، فاعرض الأمر على العقل :

وما تريك مرأى العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر لز/١ ٣٨٣

والخبر الصادق جدير بالاحترام والتقدير ، ولكن أين من يضمن صدق الخبر ، و براءته من زيف المغرضين ، وعبث الناقلين ؟ هيهات . . . . إذن فليقس الخبر بالعقل وليوزنْ به .

وخبره صادق بالحديث فإن شك فى ذلك فليختبر ٤٣٠/١

والحديث المسموع يوزن بالعقل فيصوى إليه عرف ونكر ٣٤٦/١

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأناً ، ولكن فيها ضعف إسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادى ١/٢٨٨
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل ١/١٧١
وينفر عقلى مغضباً إن تركته سدى ، واتبعت الشافعى ومالكا ١/١٥٠

حملة على الأخبار إذا لم يؤيدها العقل :

(وأبو العلاء يحمل حملة منكرة على أقوال الرواة ، ويحمل على ما فيها من زيف وتقليد ، ويرفض الخبر فى إصرار إذا لم يؤيده العقل)

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يغمسك جهل فى صراها لز٢/٤١٦
هل صح قول من الحاكى فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار ؟
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق أثمار ١/٣٢٠
يتلون أسفارهم والحق يخبرنى بأن آخرها مين وأولها
صدقت يا عقل فليبعد أخو سفه صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها ١/١٩٦
قالوا ، فمانوا ، فلما أن حدوتهم إلى القياس ، أبانوا العجز واعترفوا ٢/١٠٠
أسهب الناس فى المقال وما يظفر إلا بزلة مسهبوه
وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه
لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه ٢/٤٠٩
لقد أتوا بحديث لا يثبته عقل ، فقلنا عن اى الناس تحكونه ؟
فأخبروا بأسانيد لهم كذب لم تخلُ من ذكر شيخ لا يزكونه ؟ ٢/٣٤٦

فخذ الذى قال اللبيب وعش به ودع الغواة كذوبها وجهولها ٢٠٢/٢

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا ، فقلتم نعم

أفيقوا فإن أحاديثهم ضعاف القواعد والمدغم

زخارف ما ثبتت فى العقو ل عمّى عليكم بهن المعم ٣٢٨/٢

أخبرتنى بأحاديث مناقضة فرابنى منك قول غير متفق ١٣٧/٢

ومجمل الرأى فيما عرضنا من أقوال أبي العلاء ، أنه اعتمد العقل أصلاً للمعرفة ، فأما ما سواه فمقيس عليه به ، إن أقره قبله ، وإن أنكره رفضه .

اضطراب أبى العلاء — اعترافه بقصور العقل ، واتهامه إياه

والأمر إلى هنا هين يسير ، ولكنه يتجاوز هذا الحد فيتعقد ويصبح عسيراً . ذلك أن أبا العلاء لا يمضى فى اطمئنانه إلى العقل ، اطمئناناً بريئاً من الشك والتناقض ، وإنما يدركه شيء من الشك يفسد عليه اطمئنانه العقلى ، فتراه يتهم العقل ، ويظن به الصدأ ويعترف بقصوره ، ويسوى بين الجاهل والعالم :

أذهنى طال عهدك بالصقال وماج الناس فى قيل وقال لز ٢٢٥/٢

— هى الأفهام قد صدئت وكلّت ولم يظفر لها أحد بصقل ٢٢٩/٢

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها ٢٤٥/٢

فهمُ الناس كالجهول وما يظـ ـفر إلا بالحسرة العلماء ٦١/١

— وما العلماء والجهال إلا قريب ، حين تنظر من قريب ١٤٩/١

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس نتصادم ٣٢٧/٢

وقد غابت نجوم الهدى عنا فماج الناس فى ظلم دمسنه ٣٥٣/٢

خبط القوم فى الضلال فهل تكشف الظلم ؟
فى بلاد مضلة ليس فى أرضها علم ٣٢٧/٢

وأبعد أبو العلاء فى ارتداده واتهامه العقل ، فأبطل القياس واندس ، إليه الشك وعز عليه اليقين :

قد نفضتُ السهام أبغى المقاييس فلم يثبت الرمية نفضى ٦٣/٢
لعمرى قد أعيي المقاييسَ أمرنا فحندسنا عند الظهيرة مظلم ٢٢٥/٢
رموا فأشووا ولم يثبت قياسهم شيئاً سوى أن رمى الموت تسديد ٢٥٦/١
تروم قياساً للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها حصر ٣٠٨/١
سألتمونى فأعيتنى إجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا ١٠٣/١
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا ٢٣/٢
إنما نحن فى ضلال وتعليل فإن كنت ذا يقين فهاته ١٩٦/١
وكيف يبين للأفهام معنى له من ربه قدر معمى ؟ ٣١٠/٢
وقد عدم التيقن فى زمان حصلنا من حجاه على التظنى
فقلنا للهزبر أأنت ليث ؟ فشك ، وقال : علّى أو كأنى ٣٧٥/٢

وقال فى الفصول والغايات :

« أنت العالم ، (يا رب) وإنما المرء حالم — ٣٣٩ »

لم يستطع أبو العلاء أن يجنح إلى اليقين إلا فى شىء واحد ، هو أننا نموت وتبلى أجسادنا.
قال فى سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يراد بنا والعلم لله ذى المن ١٩٥/١

وقال فى اللزوميات :

وجهلت أمرى غير أنى سالك … طرقا وخبتها عادها وثمودها ٢٦٢/١

أصبحت فى يومى أسائل عن غدى … متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وإنما … أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا ٢٣/٢

أما الحقيقة فهى أنى ذاهب … والله يعلم بالذى أنا لاقى ١٣٩/٢

دفناهم فى الأرض دفن تيقن … ولا علم بالأرواح غير ظنون
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه … يعد جنوناً أو شبيه جنون ٣٦٦/٢

تعليل اضطرابه فى مسألة المعرفة :

هذا رجل آمن حيناً بالعقل وأسرف فى الإيمان به ، فما باله يرتد حيناً آخر فينكر العقل ويكفر به ويتهمه ، ويبطل القياس ويرفضه ؟

هذه مشكلة أثيرت فى الأمس القريب حين وقف أستاذنا الجليل «أمين الخولى»[(١)] يعرض أقوال أبى العلاء فى المعرفة ، وينبه إلى هذا التناقض فيها — وفى كل شىء — ويوجه الأنظار إلى تردد الرجل وحيرته واضطرابه .

ونحن الآن نحاول أن نلتمس أسباب هذا التردد ، ومصدر ذلك التناقض ، لعلنا نجلو الشخصية العقلية لأبى العلاء قدر ما نستطيع .

— لم آمن الرجل بالعقل حيناً وكفر به حيناً آخر ؟

مصدر هذا فيما يبدو لنا ، شعور أبى العلاء بقصور العقل ، العقل الذى مجده حيناً وجعله نوراً وإماماً ونبياً . تأمل فرأى العقل يضل فى تيه الحياة ، ويعجز عن فهم ما يحفل به

(١) محاضرة الأستاذ الخولى (رأى فى أبى العلاء) ألقيت فى الجمعية الجغرافية الملكية فى أبريل سنة ١٩٤٠ .

الكون من أسرار. ماذا عرف العقل من أمور الخير والشر، والجبر والاختيار، وتوزيع الحظوظ والأرزاق؟ لقد عجز عن إدراك اليقين فى مشكلات الحياة، وإنه لأعجز حين يتجاوز الأمر هذه المظاهر التى نراها بأعينا، إلى أمور الغيبيات، وما يتصل منها بمصير الإنسان.

أمور يلتبسن على البرايا كأن العقل منها فى عقال لز٢/٢٢٦

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له فى ابتغاء الرزق تأثير ١/٣٢٢

غنى زيد يكون لفقر عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه ٢/٣٥١

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالأرواح أنى تسلك! ٢/١٤٨

تباركت يا رب العلا أنت صغتها فليتك فى أرزائها لم تبارك ٢/١٥٨

— والله يقدر أن يفنى بريته من غير سقم، ولكن جنده العلل ٢/١٧٤

قضى الله فينا بالذى هو كائن فتم، وضاعت حكمة الحكماء ١/٦٣

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها ٢/٤٥

وعقول ليست ترد فتيلا لقضاء فى عالم الله بالغ ٢/٩٦

شاب علينا أمرنا شائب وقد وددنا أنه لم يُشب ١/١٥٢

هذا الشعور بعجز العقل وقصوره، كان يُلم بأبى العلاء من حين إلى حين، فيرتد، وينكر العقل، ويبطل القياس.

ولعله فى تلك اللحظات الكافرة اليائسة، كان يلوذ بإيمانه بإعجاز القدرة فهو يعترف لله بقدرة «لا يعجزها ممتنع فى العقول. الفصول — ٤٧».

ولم يكن هذا الاعتراف تقليداً ، فأبو العلاء عدو التقليد ، كذلك لم يكن ارتجالا ، وإنما أنتجه تأمله فى الكون ، وحسه الدقيق لمظاهر القدرة المعجزة فيه . وهو يعرض صوراً شتى من هذه المظاهر ويستعمل فى ذلك غالباً إحدى صيغتين :

لا يمتنع على الله القدير — لو شاء القادر

قال فى اللزوميات :

يجـوز بحكمه موتُ الـثريا وأن تبقى السماء بلا نجوم ! ٣١٣/٢

يجوز أن تطفأ النار التى وقدت من عهد عاد وأذكى نارَها الملك ١٤٥/٢

لست أنفى عن قدرة الله أشبا ح ضياء بغير لحم ودم
وبصـيرُ الأقوام مثـلى أعمى فهلمـوا فى حنـدس نتصادم ٣٢٧/٢

وقال فى الفصول والغايات :

« لو شاء الله لرد اليفن إلى الشباب — ٤١ » .

« لو شاء ربنا ، سخر لنا وحوش البر ، فنقلتنا نقل النعم الذلل وركبنا النعائم بأزمّة وأقتاب — ٤٦ » .

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل فى الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة ، ثم يثوب إلى فراشه ، والليـلة ما همت الإسحار . ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من تهامة ، فيوقد بها اره فى يبرين وقاصية الرمال ، ويجاز (يغص) بأكيلته فى قصور فرغان ، فيعتصر اء المضنونة (زمزم) أو جُراب »[1] .

---

(١) انظر الفصول والغايات صفحات ١٧٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٧ ، ٢٦٢ ، ٣٢٨ ، ٣٩٤

والحديث عن القدرة الإلهية أمر غير مستغرب من أبي العلاء ، فهو واعظ يمجد الله ، ولكنك تحس شيئاً من الغرابة ، حين تراه يمعن فى عرض الصور الغريبة ، فيقول مثلا فى الفصول والغايات :

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمعه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ، وذلك من القدرة يسير — ٣١٠ »

« لقد علمتُ — والله عليم — أن الله لا يمتنع عليه أن يجعل العتيل (الأجير) ، يبصق على قصار النخل فيبسق ، وأن يكون الريق راحا ، والشفاه بإذنه عقيقاً ، والثغر حبباً أو جماناً — ١٦٠ » .

« من يخبرنى عن فور طلين بالكافور ، ومجدل رفع فى مخالب الأجدل ، وقصر منيف حمل فى خنيف (منديل) ؟ والله على ذلك قدير — ١٥٤ » .

« أزعمتَ أن السعف لاينبت إلا فى الشعف (رءوس النخل) ؟ إن الله إذا حكم نبت فى الجذوع — ٢٩١ » .

« أوَعلٌ منتعل ؟ أمسد فى عنق الأسد ؟ أنجم وقع فى هجم ؟ نعم إذا أمر مالك الملوك — ٣٧٧ » .

وأبو العلاء ، لم ينس — وهو يعرض هذه الصورة الغريبة للقدرة المعجزة — أننا نستجيد أن ينظر الإنسان بقدمه ، وأن ينبت السعف فى الجذوع . أملى فى رسالته إلى أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى[1] : « فإن بلغ سيدى الشيخ أن سارى الليل قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبتت وشياً أو حريراً ، والسحاب أمطر مداماً وعبيراً ، فهو أعلم برده على المبطلين . حسب الأرض أن تعنو بخلة وحمض — وعادة السحاب المرتفع فى السماء أن يأتى برى الظماء . »

(١) رسائل أبى العلاء (مرجيلوث) الرسالة الرابعة والعشرون ص ٦١ .

وقال فى الفصول والغايات :

« الشيء كما فطر حتى يأذن خالقه بالتغيير ، فإن قيل إن الديمة مطرت مداماً ، وإن الأرض أنبتت أهداماً ، وإن حضناً غار وتهامة أتت حجراً ، فقد كذب القائلون . إنما ينزل من السماء غريض الماء ، وتعنو الأرض بالنبات الغض ، ولا تنتقل تهامة أبداً ، ولا يوجد حضن إلا منجدا — ٣٣٩ » .

يعلم أبو العلاء ذلك حق العلم ، ولكنه يقول بإعجاز القدرة ، ويعلق الأمر بمشيئة الله :

« فرضوى لا يخاف أبداً من ضوى حتى يأذن رب الجبال — والقرو لا يمتلىء من عصارة المرو إلا أن يجعله الله ذا ماء » .

« لا أصدق أن الدلىّ أخرجت من الجفر الحلى . ولا أن زارع البر اختصد أكمة تشتمل على الدر ، ولكن الله إذا شاء فعل ذاك » .

وقد يحس وهو يعرض هـذه الصور الغريبة ويقول بإمكانها ، أن قوانين العقل قد تأباها ، ولكن ما هذه القوانين ؟ أليست من صنع عقولنا ؟ كيف نُلزم بها سوانا ؟ إنما تلزم العقل وحده ، ولا يجوز طردها فى القدرة الإلهية .

« والله القادر على كل بعيد . . . . »	الفصول ٦٨
« لا يعجزه ممتنع فى العقول . . . . »	« ٤٧
« وهو مكون المعجزات . . . . »	« ٤٥
« لا يرد عليه عجب . . . . »	« ١٦٩
« ولا عجب من أمر الله . . . . »	« ٣٧٥

واسمع أبا العلاء يسخر بالقوانين التى نضعها بأنفسنا ، ثم ننزلها منزل التقديس ونأبى أن تمس أو تتخلف .

« كذبت النحاة أنها تعلم لم رفع الفاعل ونصب المفعول ، إنما القوم مرجمون والعلم لعالم الغيوب ، خالق الأدب والأدباء . فصول ٧٨ »

« أنت وارث العلوم ، وإليك ضويت الأمور ، لو عاش الدؤلى حتى يسمع كلام الفارسى فى الحجة ، ما فهم فيما أحسب ، إلا فهم الأمة هدير السنداب . فصول ٧٩ »

ثم اسمعه يفرق بين إمكان العقل وإعجاز القدرة ، فيقول فى الفصول والغايات :

« إن سمعت أن الرقيع أمطر جندلا ، وأنبت البقيع مندلا ، فقل أما فى المعقول فلا ، وأما فى القدرة فبلى . العادات بإذن الله متغيرات — ١٠٩ »

(فأبو العلاء ، يكفر بالعقل حين يشعر بقصوره وعجزه ، وفى هذه الحالة ، تراه يسلم بما يرفض العقل ويعترف بما يأباه . ولكن من الناس من رأوا أن العقل لا يكسب حق الرفض ، إلا إذا أحاط بكل شىء ، وكشف لنا عن الحقائق كلها . وهذا ما لم يصل إليه العقل بعد)

قال الإمام الغزالى فى كتابه المنقذ[1] : « إن هنالك أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلا ، يكاد العقل يكذبها ويقضى باستحالتها .

« وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والإلهيات مبنى على هذا الجنس ، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته » .

وأكد الإمام الغزالى هذا المعنى فى المضنون فقال : « ليس كل ما لا يدركه العقل ، محالا فى نفسه . . » .

وقال أستاذنا الدكتور طـه حسين بك يقدم (ألفريد كابو) كاتب المصادفة

(١) المنقذ من الضلال للغزالى (طبعة مصر) سنة ١٣٠٩ ص ٣١

إلى قراء العربية[1] : « المصادفة عدو القانون العلمى ، وخصم النظرية الفلسفية فالإيمان بها جحود للعلم . . . وهذا كله حق لو أن العلم قد أحاط بكل شىء وكشف عن الحقائق كلها ، لكن العلم بعيد جداً ، أو ما زال إلى الآن بعيداً جداً ، عن أن يحيط بكل شىء ، أو يكشف لنا عن كل شىء . . . . فليست هناك مصادفة فيما نعلم من أمور الكون ، ولكنا نجهل أكثر مما نعلم ، و إذن فالمصادفة ليست فى حقيقة الأمر إلا رمزاً لجهلنا وقصور عقلنا عن فهم الأشياء » .

***

على أن من الناس من لا يرون قصور العقل مدعاة إلى اليأس من غده ، وهم يرون أن من حق أبى العلاء ، ومن حق سواه ، أن يعلنوا عجز العقل فى ماضيه عن حل مشكلات الكون والحياة ، وقصوره عن اقتحام مجال الغيبيات « وليس لأحد أن ينكر عليهم هذا الحق ، أو يعارضهم فيه إلا حين يتحدثون عن الغد ، ويحملون آثار هذا العجز فى نظرتهم إلى المستقبل . فعجز العقل فى ماضيه لا يقتضى أن يعير بذلك ، وتثبط همته ، ويحرم الأمل فى غده . . . .

« لقد جاهد العقل الإنسانى فى محاولة انتزاع الحقائق من بين الظلمات . ومن الحق أنه لم يصل إلى كثير ، ولكن جهوده الرائعة فى ماضيه الطويل ، تجعل هناك أملا فى أن يبلغ غايته من كشف الحياة الإنسانية وتمزيق أستارها . وليس ما يدعو إلى اليأس ، ما دام العقل لم يعلن هزيمته ، ولم يكف عن الغزو لحظة »[2] .

(لو اطمأن أبو العلاء إلى هذا لسلم له إيمانه بالعقل ، ولكنه لم يفعل ، فاضطرب وحار ، ورأيناه يشعر بالمرارة لقصور العقل و يتحدث عن الغد حديث اليائس):

(١) قصص تمثيلية فرنسية ، للدكتور طه حسين بك طبعة الهلال — ألفريد كابو
(٢) من محاضرة للأستاذ أمين الخولى . على طلاب الماجستير بكلية الآداب سنة ١٩٤١ .

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه   يعد جنوناً أو شبيه جنون ٢/٣٦٦

وكيف يبين للأفهام معنى   له من ربه قدر معمى ٢/٣١٠

ورأيناه يضيق بالعقل و يتألم ألماً مراً لاذعا ، فيهتف فى تعب وحيرة :

فَهِمُ الناس كالجهول وما يظفر إلا بالحسرة الفهماء ١/٦١

وزادك بعداً من بنيك وزادهم   عليك حقوداً ، أنهم نجباء
يرون أباً ألقاهم فى مؤرب   من العقد ضلت حلّه الأرباء ١/٤٥٨

صاح ، إن جال فى الحوادث فكرى   صاحَ يا للأسى ينفر غمضى ٢/٦٣

طالت على ساهر دجنته   والصبح ناء ، فمن لنا بفلس ! ٢/٤٦

طوفتَ فى الآفاق عصراً فما   أسفرت من حندسك المظلم
سألتَ أقواما فلم تلفَ من   يهديك من رشد إلى معلم ٢/٣٨٦

أنا أعمى فكيف أهدى إلى المنهج   والناس كلهم عميان ٢/٣٣٢

و بصير الأقوام مثلى أعمى   فهلموا فى حندس نتصادم ٢ ٣٢٧

وقد غابت نجوم الهدى عنا   فماج الناس فى ظُلم دمسنه ٢/٣٥٣

آليت ما أدرى ولا عالمى   من كوكبى فى الحندس الداجى ١/٢٢١

وأصبحت فى تيه الحياة مناديا   بأرفع صَوتى ، أين أطلب صُوّتى ؟ ١/١٨٠

وقال فى الفصول والغايات :

« وداء المسرة العقل ، ودواء الحزن الجهل — ٣٢٢ »

والخلاصة — أن أبا العلاء كان يؤمن بالعقل و يعتمده أصلا للمعرفة ، و يسرف فى تمجيده والإيمان به ، حتى يجعله إماماً ونبياً ، فإذا طلب إلى هذا النبى الهادى أن يفسر له ما يعرض له من مشكلات الحياة وأحاجى الكون ، وأسرار الغيبيات ، قصر العقل عن إدراك ذلك و إبداء الرأى فيه . هنالك يرتد أبو العلاء و يكفر بالعقل ، و يلوذ باعترافه بقدرة إلهية قاهرة لا يعجزها ما يمتنع فى العقول .

على أن الرجل لم يخلص من سلطان عقله ، كما لم يسلم له إيمانه به إيماناً خالصاً يريحه ، و بقى حائراً متردداً : يؤمن فى لحظة ، ويكفر فى لحظة أخرى ، من غير أن يسكن إلى إحدى الراحتين .

هذا — فيما نرى — مصدر تناقض أقوال أبى العلاء فى المعرفة . وهو قد يفسر لنا اضطراب أقواله وحيرته ، حين واجه مشكلات الحياة .

المقالة الثانية

مكان أبي العلاء بين الشعر والفلسفة

(١) إنكار فلسفته : لاضطرابه فى مسألة المعرفة ، وطريقته فى عرض تأملاته .
(٢) إنكار شاعريته : لخروجه عن المألوف ، وازدحام شعره بالمعانى .
(٣) مكانه بين الشعر والفلسفة .

الخلاف فى أبى العلاء :

لعل العربية لم تعرف فى تاريخها الأدبى رجلاً اختلف فيه الناس كما اختلفوا فى أبى العلاء . فمكانه بين الفلسفة والشعر حائر مبهم . (اطمأن الناس حيناً من الدهر إلى أنه فيلسوف ، ثم ظهر رأى[1] حديث يرفض التسليم بهذا الذى اطمأن إليه الناس)

وعرفه الناس شاعراً مكثراً ، قيل إنه نظم من الشعر مائة ألف بيت قبل أن يموت بعشر سنوات « ولا ريب أنه قد نظم بعد ذلك الشىء الكثير[2] »

(ولكن من شيوخ صناعة الشعر ونقاده مَن رفضوا التسليم بشاعريته ، وإنما هو ناظم لا شاعر)

ونرى أن جلاء هذا الموقف المبهم الغامض أمر لا بد منه ، قبل التصدى لبحث تأملاته . فقد طال عمر هذا الخلاف وآن لنا أن نعرف مكان الرجل بين الشعر والفلسفة .

---

(١) هو رأى أستاذنا الكبير « أمين الخولى » — انظر الصفحة التالية .
(٢) ذكرى أبى العلاء (تجديد) ص ١٩١ .

هل هو فيلسوف ؟

أجاب البعض بالنفى[1] — ورفضوا التسليم بما اطمأن إليه الناس من اعتباره فيلسوفاً .

أقوال من أنكروا فلسفته :

(١) — وأظهر حجة لديهم ، أن الرجل كما رأيت فى مسألة المعرفة ، لم يخضع فى فهمه للحياة لأصل ثابت من أصول المعرفة ، فهو لا يثبت على إيمانه بالعقل ، ولا يطمئن إلى عجز العقل وقصوره . وإنما يقف متردداً بحيث لا تستطيع أن تضمه إلى أى فريق من المفكرين . فليس هو عقلياً لأنه لم يثبت على إيمانه بالعقل . وليس هو سوفسطائياً لأنه لم يطمئن إلى عجز العقل — وليس هو شكاكا لا أدريا ، لأنه تيقن حيناً ما واثتم بالعقل .

(٢) — وهو مع هذا متناقض ، لا يثبت على رأى فى المسألة الواحدة ، بل تراه ينفى ثم يثبت ثم ينفى ثم يثبت ، ويقول بالشى حيناً ثم يقول بضده حيناً آخر .

(٣) — وهناك أمر ثالث قد يؤيد من ينكرون فلسفته . وهو لا يتصل بمنهجه فى التفكير وإنما يتصل بطريقته فى التعبير . فأبو العلاء قد طرق آفاقاً رحبة واسعة وتناول طائفة من المسائل ، هى إلى مجال الفلسفة أقرب ، ولكنه لم يعرض تأملاته على طريقة الفلاسفة والمتكلمين . فلم يكن يعنيه كثيراً أن يسوق أدلته وبراهينه — أو يرتب آراءه ترتيباً منطقياً فيه مقدمات وقضايا ونتائج ، ولم تكن الفكرة وحدها هى الغاية ، عنده ، كذلك لم تكن اللغة مجرد وسيلة توصل إلى الغاية ، وإنما كان شديد العناية بألفاظه ، وهو يسرف فى ذلك ويبذل فيه جهداً يبدو مضنياً ، لولا ما نعرف من مرانة أبى العلاء عليه

---

(١) هذا الرأى أعلنه حضرة الأستاذ أمين الخولى فى محاضرته « رأى فى أبى العلاء » التى ألقاها فى الجمعية الجغرافية الملكية فى ابريل سنة ١٩٤٠

« والتأنق فى اللفظ على حساب المعنى — ليس من شأن الفلاسفة » نرى الفيلسوف يدقق فى اختيار الألفاظ — لينتقى أقدرها على أداء المعنى الذى يريد — وأقربها إلى الدلالة على ما يعنى . أما أبو العلاء فشأنه غير ذاك ، هو يتأنق فى الألفاظ ليختار أجملها إيقاعاً ، أو أقربها اتساقاً مع فنونه اللفظية التى لا تكاد تعد . وهو يضحى بالمعنى أحياناً ليخلص له فنُّه اللفظى الذى يريد . أو لتتم له الملاءمة بين اللفظ المختار وبين بقية الألفاظ فى البيت أو المقطع . على حين ترى الفيلسوف يضحى بأجمل الألفاظ ليسلم له المعنى ويتم له أداء الفكرة صحيحة البناء .

« والفيلسوف فى تأملاته : يخطو فى بطء » ، وهو يقص عليك خطوات انتقاله فى دقة وتفصيل ، ويريك مراحل الطريق التى سار فيها ، ويعطيك الوسائل التى اهتدى بها إلى ما انتهى إليه من رأى . وليس هذا شأن أبى العلاء فى عرض تأملاته : فهو فنان « يقفز القفزة الفنية التى تنتهى بك إلى الآفاق العليا » وإن كنت لا تعرف خطوات الانتقال ومراحل الطريق . وهو قد يلتقى مع الفيلسوف فى النهاية ولكنه يأخذك إليها واثباً مسرعاً ، ولا حجة له أمامك إلا هذا الذى يجده فى نفسه .

***

فهل هو شاعر ؟

لا أيضاً . . . . . !

بهذا أجاب شيوخ صناعة الشعر فى الأدب العربى — قالوا فيما نقل عنهم ابن خلدون[1] : « إن نظم المعرى ليس من الشعر فى شىء » . واعتبروا شعره[2] « كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٣ (٢) المصدر نفسه ص ٥٧٥

أقوال من أنكروا شاعريته :

(١) — السبب الأول أنه خرج عن المألوف ، فتصدى بالشعر لمعالجة أمور عقلية ومسائل فلسفية لم يألفوها فى الشعراء من قبل ، وكانوا لا يسيغون تصدى الشعر لمعالجة هذه المسائل التى هى إلى مجال النثر أقرب . وأسرفوا فى ذلك حتى استهجن بعضهم أن يتعرض الشعر للأمور الجدية . وقد حمل ابن خلدون على المنثور المقفى وأبى أن نخاطب به ذوى السلطان لما أدخل فيه من أساليب الشعر . قال :[١] « وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية . » إلى أن قال : « والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل ، وهو إطلاق الكلام ، وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم . »

هذا يريك أن من الأقدمين من ضاقوا بتصدى الشعر للأمور الجدية والمسائل العقلية ، وطال عمر هذا الإنكار ، يتناقله النقاد ، طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل .

بل لا يأخذك العجب إذا قلت إن من كبار النقاد من لم يقف عند القول بأن التصدى للمسائل العقلية والأمور الجدية ليس من شأن الشعر ، بل رأى[٢] — فوق ذلك — أن اشتغال الإنسان بالعلوم والمسائل العقلية والفقهية يعطل ملكة الشعر فيه .

وقد قست حملة النقاد على أبى العلاء وأسقطوا اسمه من ديوان الشعراء ، لأنه أسرف فى هذا الأسلوب الجديد وظهرت فيه شخصية لعل العربية لم تعرفها من قبل ، أو لم تظهر فيها واضحة كاملة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٧ (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٩

كان أول عهدها بذلك حين ظهر بعض الشعراء قبيل الإسلام ، يعالجون بالشعر بعض مذاهب خاصة — كطرفة الذى عالج مذهب اللذة يغرق فيها من لا يؤمن بشىء بعد الموت. ولكن الشخصية الجديدة ظهرت فى طرفة وأمثاله — خافتة ضئيلة. فلم يطل العرب الوقوف عندها — ومرت بهم لم يكادوا يحسونها أو يكترثون بها .

وجاء المتنبي بعد بضعة قرون يعالج بعض أفكار فلسفية فى شعره. فضاق به النقاد ولكنهم على أى حال لم ينكروه ، أولاً : لأنه كان مقلا فى هذه الناحية إذ شغل بالمدح والهجاء عن نفسه وعن الكون والحياة ، إلا فى فترات قليلة كان يخلو فيها إلى التأمل ، حين يصدمه موت صديق عزيز ، أو حين ينفض يديه من أمير يمدحه أو عدو يهجوه . وثانياً لأن المتنبي كان لا يزال يجري على الأساليب التى ألفوها ، وينظم شعره فى المدح والهجاء والرثاء والوصف والغناء . فلم يبتدع جديداً فى أغراض الشعر، وكل ما فى الأمر أنه كان يخرج أحياناً قليلة عما ألفوا ، فينظم بعض الأبيات فى المعانى الفلسفية والمسائل العليا .

جاء أبو العلاء على أثر المتنبي ، فظهرت فيه الشخصية الجديدة واضحة ناضجة . فألفى النقاد أنفسهم أمام بدعة جديدة فى الشعر . هذا رجل يتحدث بلسان الشعراء ، ولكنه لا يجاريهم فيما يتوخونه من أغراض . هذا رجل يتزيا بزى الشعراء ولكنه يخرج بالشعر عما ألفوه . ولما حاولوا أن يطردوا فى شعره الضوابط التى حددها لهم شيوخهم ، عجزوا . وكانت نتيجة هذا العجز أن أنكروا ذلك البدع الجديد .

كان من هذه الضوابط أن يكون الشعر جارياً على أساليب العرب المخصوصة به « لأن[1] الشعر له أساليب تخصه ، لا تكون للمنثور فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً » .

وقد كان . . . .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٣

أنكر شعر أبى العلاء لأنه خرج على هذه الضوابط المقدسة ، وعالج بشعره المسائل العقلية والأمور الجدية التى هى من أساليب المنثور .

ذلك الإنكار غير مستغرب من هؤلاء لأنها « شنشنة نعرفها من أخزم » . فقد كان دأب فريق من النقاد العرب ، أن ينكروا كل جديد ، ويرفضوا كل ما يخرج على الأوضاع التى تلقنوها عن شيوخهم ، وخلعوا عليها قداسة فأصبحت مصونة لا يجوز أن تمس .

ورواد الأدب العربى وتاريخه ، يعرفون هذا ، ويشعر أكثرهم بحزن له ، إذ هو معطل للابتكار ملغ لسنة التطور ، عاجز عن مسايرة الحياة ، وإن كان أحد زعماء المدرسة الحديثة فى النقد ، يرى أن أحكامنا على هؤلاء المحافظين ، يعوزها شىء من الإنصاف ، لأن الاحتفاظ بالقديم سنة كونية ، تحفظ توازن العالم ، وتسدد خُطا انتقاله[1] .

***

ثار النقاد[2] على أبى نواس أن عاش فى عصره وبيئته ، ولم يعش مع الجاهليين فى البادية ، ولكنه أصر على أن يفى لشاعريته فيجد نفسه ويعبر عنها ، ويعيش فى بيئته ويتحدث بها . وبدا له شاذاً منكراً أن يقف فى شعره، على النؤى والأحجار بالفلاة ، وهو إلى جوار الأمين فى أفخم قصور بغداد . هنالك مال إلى أظهر الأشياء فى حياته

(١) هو رأى أستاذنا أمين الخولى ، ذكره أثناء مناقشته لهذا البحث .

(٢) انظر الخصومة بين القدماء والمحدثين ص ٩١ من كتاب « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » للأستاذ طه ابراهيم .

الجديدة ، فاستمد منه ديباجة شعره ، وسخر برياء النقاد وكذبهم فصاح بأعلى صوته :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد لا درّ درك ! قل لى : من بنو أسد ؟
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد !

ولكن هذه الديباجة الجديدة الحضرية التى بدت لأبى نواس طبيعية معقولة ، بدت لكثير من النقاد شاذة منكرة ، فتنكروا لها وأعلنوا الحرب عليها لأنها تخرج عما ألفوه ، وهم حريصون على تقديس هذا المألوف ، مصرون على أن يتكئ عليه الشعراء جيلاً بعد جيل ، غير ملتفتين إلى ما يحسون فى أنفسهم وفى بيئاتهم .

كان أبو تمام فى منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره ، وعنده إسحاق الموصلى فقال له إسحاق : « يا فتى ، ما أشد ما تتكىء على نفسك ! » .

فهل كان غريباً أن ينكروا أبا العلاء ، وهو يورطهم ويتكىء على نفسه و بيئته العلمية ، فيخرج على الأساليب المألوفة التى حددوها لما يعالج بالشعر من مسائل وأغراض ، وينظم القصائد التى لا تتصل بمدح ولا ذم ولا وصف ولا غناء ؟

***

٢ — والسبب الثانى فى إنكار أبى العلاء أنه — لكثرة ما كان يعالج من مسائل عقلية — قد ازدحم شعره بالمعانى . ويظهر أن الذوق العربى لا يهضم كثرة المعانى فى الشعر ، وقد ضاق النقاد بابن خفاجة لكثرة معانيه ، وعابوا شعر أبى تمام لهذا السبب أيضاً . قال ابن خلدون : « كان[١] شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى تمام لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد » .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٥

فهل كان عجباً أن يثوروا على أبى العلاء وقد بذ تلاميذ مدرسة المعانى فى هذا الميدان ؟ .

هكذا أضاع الأقدمون أبا العلاء الشاعر وكان رأيهم فيه أنه ناظم لا شاعر .

رأى المحدثين :

ولكن ما رأينا نحن المحدثين ؟ أهو شاعر عندنا أم لا ؟

يجب أن نتفق أولاً على حد الشعر لكى نجيب عن السؤال :

أصل الشعر فى اللغة : العلم والفطنة والإدراك . استعملت المادة أولاً لما لابس الإنسان والتصق به من شعر وشعار . ثم أطلقت على الشعور بمعنى الحس والمشاعر أى الحواس التى بها يدرك الإنسان ويحس .

فهذا المعنى الملحوظ فى المادة ، من الالتصاق بالإنسان وملابسته والحس والشعور ، هذا المعنى قد أغفل[1] تماماً فى التحديد العربى القديم للشعر . جعله اللغويون والعروضيون الكلام الموزون المقفى ، وهو تعريف واسع يغفل الشعور ، ويدخل المتون وما إليها من المنظومات التى اصطنعها المعلمون ، ليهونوا على تلاميذهم حفظ القواعد ، واللغة والمنطق الخ . . . أو يدسوا إليهم ما يريدون من حكم ومواعظ .

وجاء « قدامة بن جعفر » فى صدر القرن الرابع ، فأحس أن ذلك التعريف غير مانع ، إلا أنه لما حاول تحديد الشعر قال : « إنه قول موزون مقفى ، يدل على معنى »

---

(١) يرى شيخى الجليل ، الأستاذ أمين الخولى « أن تعريفات الأقدمين للشعر — وإن خانها الحظ فى هذا الموضع الفنى — فانهم قد لاحظوا معنى الشعور والحس — أو قريباً منه — أثناء درسهم للشعر ، فقالوا فى كتب المناطقة « هو ما تألف من المخيلات التى تخيل للنفس ما تتأثر به قبضاً أو بسطاً فتنفر منه أو ترغب الخ » والأدباء والنقاد الأقدمون ، كانوا ولا شك يقدرون تأثر النفس بالشعر وتأثيره فيها ، وإن خانهم الحظ فى التعريفات » .

وهذا التعريف لا يختلف عن سابقه، لأن الدلالة على معنى أمر مفروغ منه، ولم يقصد أحد ممن سبق قدامة أن يكون الشعر لغواً لا معنى له .

وجاء بعده « ابن رشيق » فى القرن الخامس فأضاف إلى حد الشعر شيئاً رابعاً قال : « بنية الشعر من أربعة أشياء : اللفظ والوزن والمعنى والقافية » وهو لا يختلف عن قول قدامة .

وجاء ابن خلدون فى القرن الثامن ، فلاحظ أن الكلام الموزون المقفى ليس بحد للشعر ، وأورد تعريفاً للشعر جمع فيه ضوابط شيوخه فقال : « هو الكلام[1] البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل منها فى غرضه ومقصده ، الجارى على أساليب العرب » .

وهذا التعريف يهمل الشعور وهو المعنى الأصيل فى الشعر كما رأينا فى المادة ، وهو بعد هذا تعريف ضيق كثير القيود ، يخرج شعر أبى العلاء وأمثاله ، ويخرج القصائد الطوال التى لا يستقل كل بيت فيها عما قبله وما بعده .

ولا يكتفى ابن خلدون بهذه القيود، بل ينقل إليك عن شيوخه فى هذه الصناعات الأدبية، أنهم كانوا يضيقون بازدحام المعانى فى الشعر ويكرهون تصدى الشعر للمسائل العقلية والأمور الجدية .

(هذه هى القيود والحدود التى وضعها الشيوخ القدماء للشعر العربى ، ومن ثم أنكروا أبا العلاء وجحدوا شاعريته)

ولكن قيودهم لا يجوز أن تلزمنا ، فلسنا مقيدين بهذا المألوف عندهم لأنه معطل للابتكار ملغ لسنة التطور . والوقوف عنده وقوف بالشعر حيث تركه الأقدمون من غير انتفاع بسير الزمان .

---

(١) مقدمة ابن خلدون — ٥٧٣

أبو العلاء شاعر، لا يجوز لنا أن نتهم شاعريته إلا حين تشلنا القيود وتضيق آفاق تفكيرنا، فلا نفهم من الشعر إلا ما يوافق الحدود والضوابط التى وضعوها منذ أكثر من عشرة قرون.

الشعر عندنا :

فأما إذا اتسعت آفاقنا فلم نقصر الشعر على اللفظ والمعنى، ولم نقف به عند الأساليب التى عرفها القدماء، وفهمنا الشعر كما يجب أن يفهم، تعبيراً موسيقياً مؤثراً عما تجد النفس، وترجمة منغَّمة عما تنفعل به وتهتاج، إذا فهمنا الشعر هكذا فأبو العلاء عندنا شاعر لا تتهم شاعريته.

اقرأ داليته فى رثاء أبى حمزة الفقيه فهو بها عندنا — وعند الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك[1] — أشعر راث فى العربية.

واقرأ قصائده الأخرى فى الرثاء، وفى الحنين إلى المعرة وإلى بغداد، ثم قل أى شىء يكون الشعر إذا لم يكن هذه النفثات اللاذعة الوقع الفاتنة الإيقاع ؟ أى شىء يكون الشعر إذا لم يكن هذه النغمات التى تترجم عن عواطف مشبوبة، وتلمس مواطن التأثير من النفس الحية ؟

وليس «سقط الزند» وحده هو الديوان الذى تتجلى فيه شاعرية أبى العلاء، بل إن فى اللزوميات — وهى موضع الاتهام — مقاطع من الشعر العالى قل أن تجد مثلها فى الأدب العربى، أصدق دلالة على ما تجد النفس، وأقوى تأثيراً فى العاطفة. ولسنا نسرد عليك بضعة أبيات من هذا الشعر لنأخذ منها الحكم، فالأحكام النقدية فى عصرنا لم تعد تتكىء على مثل تلك النظرة الجزئية التى كان العرب الأولون يحكمون بها فيقولون : — فلان أشعر العرب لأنه قال هذا البيت أو ذاك.

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢١٣.

لسنا نسرد عليك بعض أبيات من هذا الشعر العالى ، بل يكفى أن نحيلك على الفصل الذى كتبناه عن « أبى العلاء ومصير الإنسان » فسترى فيه أشعاراً من أروع ما وعت العربية من الشعر المترجم عن دقة الحس وحدة العاطفة وصدق الشعور.

(إن الشعر ليس لفظاً ومعنى فحسب إنما هناك الشعور الذى تجده النفس ، والنَفَس الذى يسرى فى الأعاريض)

مآخذ النقاد المحدثين على شعر أبى العلاء :

والكثيرون من النقاد المحدثين لا يسيغون عرض المعرى ، ويكرهون « اهتمامه بمشاكلة اللفظ أكثر من المعنى » ويضيقون بإسرافه فى القيود اللفظية ، وكان المرجو منه — وقد تحرر عقله وثار على الأساليب المألوفة ، أن يتحرر من القيود الشكلية ، لا أن يسرف فيها . كذلك عابوا عليه « إسرافه فى[1] التكلف والغموض ، والإكثار من المعانى والآراء إكثاراً يشبه أن يكون مجرد عرض منظوم لها » .

أبو العلاء يمتاز من حيث الشعور :

هذا بعض ما يأخذه النقاد المحدثون على أبى العلاء — وعذرهم واضح حين يضيقون بعرض المعرى ، ولكن مآخذهم كما ترى لا يتجاوز الناحية الشكلية للشعر . ويبقى بعد ذلك جانب الشعور والعاطفة وهو كما رأينا المعنى الأول الأصيل فى المادة .

(وأبو العلاء يأتى فى المكان الأول من حيث وضوح الشعور وصفاؤه وقوته ، وهو يمتاز من هذه الناحية ويأتى فى الذروة بين الشعراء .

قال أستاذنا الدكتور طه حسين بك[2] : « شعره يمثل شخصه تمثيلاً صحيحاً

---

(١) هذا رأى فى أبى العلاء سمعته من حضرة الأستاذ أمين الخولى فى بعض حديث له . وممن عاب تكلف أبى العلاء : ابن الأثير فى المثل السائر والإسكندرى فى تاريخ الآداب العباسية .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٠١

ومصدر ذلك أن غير أبي العلاء من الشعراء قلما يفكرون فى أنفسهم أو يعترفون بها — فهم يفنونها فيما يحاولون أن ينظموا الشعر فيه . فإذا مدحوا فنيت قوتهم فى الممدوح ، أما أبو العلاء فقد كان شديد الاعتراف بنفسه ، كثير التفكير فيها لا ينزل عنها ليتقن مدحاً أو يحسن وصفاً » .

أبو العلاء شاعر يجد فيعبر ، شاعر قد دق حسه وأرهفت عواطفه وقويت بصيرته فاستطاع أن يزيح الحجب عن نفسه ، وينفذ إليها فيراها كما هى ، ويحس ما تجيش به من عواطف ، وما يلم بها من أهواء ، وما يطيف بها من رؤى وأحلام .

ولعلنا لا نعرف فى العربية شاعرا استطاع أن يجد نفسه ويعرضها بأهوائها وعواطفها وشكوكها وآلامها ، كما فعل أبو العلاء . وهذه الميزة لا تبدو فى نظمه فقط ، بل تبدو فى نثره أيضاً . أنصت إليه وهو يطيل التأمل فى مصير الإنسان فيردد فى مرارة وحزن . . . « وصيح بالأرض اقبلى رهنك وبالنزيل فاغدرى ! وحيز المال ونسى العهد وانتوى عن الإنسان أنيسه ذو الود القديم » .

(الفصول والغايات ص ٣٤٢)

ويهتف بأهل القبور : « سلم الله عليكم أهل ديار لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترجل النهار ! أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجسام ملتئمة ، ولا المنازل برحاب . » (الفصول والغايات ص ٥٢)

واسمعه يصيح بالدنيا : « أحب الدنيا وآلتها ليست فىّ ! وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلى م التشوف والضلال ؟ » (الفصول والغايات — ٣١٦)

ثم ينطوى على جراحه مردداً فى ألم واستسلام : . « وإن الله خلقنى لأمر حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج » . (الفصول والغايات ٢٣١)

أنصت إلى هذه العبارات وتلمس أثرها فى قلبك وعواطفك ، فسترى ، أن لنثره

نفحة شعرية تخطئها فى كثير من القصائد المنظومة الموزونة المقفاة .

لقد أشرف فى عالمه على أهواء رديئة يحرص الناس على كتمانها ، ولكنه كان شاعراً شديد الوفاء لشاعريته ، فانثنى يحدث نفسه ويتحدث عنها ، وكان حديثه إلى نفسه صادقاً بريئاً من الغش والخداع . وكان حديثه عنها صادقاً بريئاً من النفاق والرياء .

ثبات المستوى ليس شرطاً فى الشاعرية :

هذا هو الشاعر الذى أثيرت الشبه حول شاعريته ، وقد بقيت شبهة أخرى تأخرنا فى دفعها لأنها تبدو لنا هينة يسيرة . ذلك أن من الناس من يأخذون على أبى العلاء قصائد فى اللزوميات كثرت فيها المعانى والآراء ، كثرة تشبه أن تكون عرضاً منظوماً لهذه المعانى والآراء ، وهم يسوقون إليك هذه الأبيات ليدللوا على أن أبا العلاء ناظم لا شاعر .

ولسنا نجادل فى أن من شعر أبى العلاء طائفة من الأبيات يصدق عليها هذا المأخذ ، ولسنا نجادل أيضاً فى أن اهتمامه بالصنعة اللفظية وكلفه بإظهار تمكنه من اللغة وقدرته عليها ، وإسرافه فى التكلف والإغراب . لسنا نجادل فى أن هذا كله يفسد عليه جملة من شعره ، يبدو بعضها مسرفاً فى التغالى الغامض الملغز ، ويبدو بعضها الآخر مجرد نظم لطائفة من الآراء والمعانى . كل هذا حق لا نجادل فيه ، ولكنا نقرر أنه ليس من شرط الشاعرية ثبات المستوى للشاعر ،(١) فالأعشى صناجة العرب هو القائل :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى ... شاوٍ مِشلٌ شَلولٌ شَلشلٌ شَـولُ

« وبشار » الشاعر الفحل ، هو نفسه صاحب « ربابة ربة البيت التى تصب الخل

(١) يرد أستاذى الكبير أمين الخولى على هذا ، بأن ما التمس من تغير المستوى عند الأعشى وبشار ، وأبى العتاهية ، ليس إلا النادر أو البيت المفرد ، على حين أن ماعند أبى العلاء من الشعر الخالى من العناية الأولى بالصنعة اللفظية ، هو النادر والقليل .

فى الزيت » والتى « لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت » . وأبو العتاهية شاعر الرشيد المقرب هو نفسه القائل :

هو الله هو الله ولـكن يغفر الله

فثبات المستوى يجب أن يستبعد فى فهم الشاعر . وإذا استبعدناه فلا ضير علينا أن يقال : إن لأبى العلاء أبياتاً رديئة ، بل نجيب : أجل ولكن يبقى له بعد ذلك كثير من الشعر العالى المترجم عن شعور نقى صاف ، وهو فى هذا شاعر ممتاز يجيد فيعبر ويؤثر .

٢

الفرق بين أبى العلاء والشعراء

قيمة تأملاته :

والمسألة لاتنتهى عند هذا الحد ، فنحن مضطرون إلى أن نواجه اعتراض من يقولون : إذا كان أبو العلاء شاعراً ، ففيم الوقوف عند آرائه ومعانيه؟ إن الشعر مجال الدراسات الفنية وليس مجال الأبحاث العقلية .

هل هى خطرات شاعر يهيم فى كل واد ؟

هؤلاء المعترضون يؤمنون بشاعرية أبى العلاء ، ولكنهم يرون أنه لم يتناول المسائل العليا مفكراً متأملا ، ولم يصدر فى هذه التأملات عن تفكير ودرس وبحث ، وإنما هى خطرات طائرة مرتجلة ، والشعراء فى كل واد يهيمون .

شاعت هذه الفكرة من قديم ، ومن الذين قالوا بها الصفدى والسلفى ، واعتنقها نفر من المحدثين نذكر منهم المرحوم أحمد تيمور باشا والميمنى . وكانت متكئا للدفاع عن عقيدة أبى العلاء .

قال الميمنى[١] — : « إن حب الظرف والاستظراف هو الذى حدا به على أن أنشأ كل صنف من الشعر وولج فى كل باب منه . » وقال فى الدفاع عن معتقد أبى العلاء[٢] « ولكن له والحق يقال كثيراً من الأشعار تجنح إلى التشكيك فقال بعضهم — ومنهم السلفى والصفدى — : وكان لا يستقر به قرار ولا يبقى على قانون بل يجرى مع القافية إذا حصلت كما تجئ لا كما يجب . ا . ه . وهذا الرأى صحيح فى بعض شعره . » وقال المرحوم أحمد تيمور باشا[٣] : « ولقائل أن يقول إن الرجل لم يقصد بياناً لمذهبه أو شرحاً لمعتقده بل جرى فيه مجرى الشعراء فى أفانينهم وهم — كما تعلم — يجوزون الكذب و يقولون ما لا يفعلون — » .

فهؤلاء يرون أن أبا العلاء كسائر الشعراء :

١ — يجوز الكذب و يقول ما لا يعنى .

٢ — يهيم فى كل واد ، و يلج فى كل باب ، و يجرى مع القافية كما تجىء .

لو صح هذان الزعمان لكان موضوع رسالتنا هذه عبثاً لا طائل فيه ولا معنى له . فهى رسالة تجمع أقوال أبى العلاء وتأملاته فى طائفة من المشكلات الإنسانية والمسائل العليا التى شغلت الفلاسفة والمتكلمين . فلو أن أبا العلاء يقول ما لا يفعل و يهيم فى كل واد ، فلا معنى للوقوف عند تأملاته وآرائه فى هذه المسائل العقلية والأبحاث الفلسفية .

أبو العلاء لا يكذب فى شعره ولا يقول مالا يعنى :

(ولكن الزعمين كليهما خاطئان ، فأبو العلاء شاعر ، ولكنه يختلف عن الشعراء فى كونه لا يكذب ولا يقول مالا يعنى)

(١) أبو العلاء وما إليه ص ٢٩٢

(٢) أبو العلاء وما إليه ص ٢٩٨

(٣) أبو العلاء المعرى ص ١٥٧

والذين يتهمون أبا العلاء بالكذب والارتجال ، يجرون مع الفكرة الشائعة عن الشعراء ، من غير أن يعنوا بتحقيق التهمة من أقوال الرجل نفسه . فهو مأخوذ بتهمة زملائه ولكنه منها برئ .

أبو العلاء نفسه يبرأ من كذب الشعراء . كان يضيق بشعر حداثته لما فيه من مبالغة وإسراف . ولما نظم « اللزوميات » قدمها إلينا معلنا أنه[١] « توخى صدق الكلمة ونزهها عن الكذب » وأنه كان قد قال فى كلام له قديم أنه هجر الشعر ، وإنما يقصد بذلك[٢] « ما استجيز فيه الكذب واستعين على نظمه بالشبهات » واعتذر أبو العلاء مما عسى أن يقع فى ديوانه مما لا يوافق أساليب الشعراء[٣] « فقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب » .

وكتب إلى أبى القاسم المغربى فى رسالة الإغريض[٤] « والشعر الأول وإن كان سبب الأثرة ، وصحيفة المأثرة ، فإنه كذوب القالة ، نموم الإطالة وإن « قفا نبك » على حسنها وقدم سنها لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضى » .

شعره ترجمة صادقة عما يجد :

أبو العلاء يبرأ من الكذب ويضيق به كما رأينا ، والذين اتصلوا به وأطالوا صحبته ، يعرفونه صادقاً فيما يقول . فشعره ترجمة صادقة عما يجد ، وأقواله صدى صحيح لتأملاته . وقد قال الرجل كل ما أراد أن يقول ، غير متق ولا متهيب ، وإن غيره من الشعراء ليخفون نقائصهم ، ويكتمون أهواءهم ، ويحرصون على التقية فى إعلان آرائهم إذا كانت تخالف شعور العامة أو تهاجم مصالح الخاصة .

---

(١) اللزوميات ج ١ ص ٩ (٢) اللزوميات ج ١ ص ٤١
(٣) اللزوميات ج ١ ص ٤٢
(٤) رسائل أبى العلاء ، الرسالة الثانية ص ١٨

وتأملاته ليست خطرات شاعر يهيم فى كل واد :

هذه تهمة الكذب نفيناها عن أبى العلاء وسمعناه يبرأ منها ، و بقيت التهمة الثانية وهى أن تأملاته لا تعدو أن تكون خطرات شاعر يهيم فى كل واد ، فهو لا يتناول المسائل العليا مفكراً متأملا ، و إنما هى خطرات تشبه ما نعرفه من أبيات الحكم التى يزدحم بها شعر أمثال زهير وعدى بن زيد وأبى العتاهية . وقد ردت[1] دائرة المعارف الإسلامية على هذا التشبيه فجعلت قياس أبى العلاء إلى مثل أبى العتاهية ظلما وحيفا، إذ كان أبو العتاهية يستقى من الدين و يتقيد به ، وكان أبو العلاء يستقى من الفلسفة ولا يتقيد بالدين . وأضاف الدكتور طه بك إلى ذلك : « إن[2] أبا العتاهية على كثرة ما استعان بالدين فى زهده الذى ملأ به ديوانه ، كان فاسقاً مستهتراً بالمجون . بخلاف أبى العلاء الذى استكمل الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة ، والإلحاد ، فإنه لم يمل إلى لهو ولم يذهب مذهب مجون . »

وليست مجرد نظم لحكم معروفة :

ونحب هنا أن نقرر أن شأن أبى العلاء غير شأن شعراء الحكم ، فهؤلاء لم يزيدوا على أن نظموا طائفة من الحكم الشائعة المعروفة بين الناس . من غير أن يتقيدوا بما يقولون ، فهم فى الحث على الزهد مثلا ، لا يصدرون عن مذهب يعتنقونه و يدعون إليه ، و إنما ينظمون حكما شائعة فى الناس ، على حين كان أبو العلاء يحث على الزهد وهو زاهد منصرف عن ملذات الحياة ، ويدعو إلى الرفق بالحيوان وهو ممتنع عن أكل اللحوم ، (فهو يعنى ما يقول ، ويتقيد به ، و يصدر فيه عن إخلاص ، وذلك مظهر لا نراه فى عامة الشعراء .

نحن لا نقول فقط إن أبا العلاء إنسان ، لا يجوز أن يهدر حظه الإنسانى من التفكير

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة « أبو العلاء »
(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٢٧ .

والمنطق ، وإنما نقول إنه إنسان ممتاز ، قد تأمل فى الكون والحياة ومصير الإنسان . وسمع أكثر ما قيل من رواد هذه الآفاق ، وأدارها فى ذهنه ، ثم أملى قوله فيما عرض له ، غير مصدر عن تقليد وارتجال ، وأعلنه صريحاً صادقاً مهما خالف العرف ، فليس من الحق والإنصاف أن نأخذ تأملاته على أنها خطرات سريعة مرتجلة .

٣

أبو العلاء ليس جديداً على الإنسانية
وإن بدا جديداً على العربية

ولكنك رأيت أبا العلاء ضائعاً بين الشعر والفلسفة ، وهو الشاعر الممتاز الجدير بألا يضيع .

وإنما أضيع لأن الذوق العربى كان حريصاً — ولعله لا يزال — على أن يخلص الشعر للعواطف . فتصدى أبى العلاء للمسائل العقلية بأسلوب شعرى كان يبدو جديداً على العربية ، وإن لم يكن جديداً على الإنسانية ، فقد أصغت الإنسانية قديماً إلى قصيدة من أروع الشعر وأجمله ، يهتف بها لوكريس الشاعر الرومانى الفيلسوف فى القرن الأول ق . م تلك هى قصيدته « طبيعية الأشياء De Rerum Natura » التى عالج بها المسائل الكبرى للإنسانية ، وأذاب فيها قلبه وأعصابه ، لفرط تأثره بأحزان الإنسانية ومتاعبها . قالوا[١] : « والصفة المميزة لقصيدة لوكريس التى جعلتها فريدة في الآداب ، هى أنه عالج المسائل الفلسفية شعراً . »

وفى الأمس القريب فى القرن التاسع عشر ، شهدت الإنسانية فيلسوفاً فرنسياً هو « ألفريد دى ڤينى Alfred de Vigny » يطيل التأمل فى الكون والحياة

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « Lucretius »

ومصير الإنسان . وقد أحزنه أن يرى الإنسان مخلوقاً تافهاً فانياً لا تتأثر به الطبيعة ولا تكترث له ، وأحزنه ضعف الإرادة وعجز الإنسان وقصور العقل ، والموت المسلط علينا . فلما بدا له أن يتحدث عن هذه المسائل العقلية الجافة الغامضة ، لم يشأ أن يعالجها بالأسلوب العقلى الجاف المعقد ، وإنما نقل حسه بها من العقل إلى القلب ثم تحدث من قلبه ، حديث شاعر يصدر عن شعوره وعواطفه ، لا حديث مفكر يصدر عن عقله وتفكيره . قال فى كلمة له قدمت بها مجموعة قصائده (طبعة سنة ١٨٣٧) :

« الميزة[١] الوحيدة التى لا يستطيع أحد أن يسلبنى إياها ، هى أنى كنت أول فرنسى عالج المسائل العقلية ، بهذا الأسلوب الذى ترى فيه الفكرة الفلسفية معروضة فى قالب شعرى . »

وتسمع[٢] اليوم شاعراً فذاً من شعراء فرنسا المعاصرين ، يقرر أن الفكرة الفلسفية لا تعالج بالشعر فحسب ، بل تعالج بأى فن آخر من الفنون الجميلة العليا .

وفى العالم الشرقى ، سمعنا الخيام — وهو التلميذ الأول لأبى العلاء — يعالج فى شعره أدق المسائل ، ويتناول مهزلة الوجود ومصير الإنسانية تناولاً شعرياً مؤثراً ، ومع ذلك فإن تصديه لمعالجة هذه المسائل العقلية ، لم يحرمه مكانه الممتاز بين فحول الشعراء .

وقد شهدنا فى عصرنا هذا « طاغور » شاعر الهند الأكبر يعالج المسائل الفلسفية بالشعر والقصص . ورأينا « إقبال » يختار طريقة الشعراء فى شرح فلسفته . وفى كتابيه « أسرار خودى ، وأسرار بى خودى » قطع من أروع الشعر الفارسى ، تشرح فلسفة الذاتية وأسرارها ، فى أسلوب من الشعر الرمزى العالى .

ولعلنا نلمح هذا النوع فى صورة واضحة ، عند الشعراء المتصوفة الذين عالجوا

---

(١) B. Braunshvig - Notre Littérature Book II P. 472 Squ.

(٢) P. Valéry - Variétés II. Léonard et Les Philosophes.

بالشعر بعض المسائل الغامضة والآراء الفلسفية ، كالحلول والحب الإلهى ، والرمزية ، وفلسفة الإشراق .

أنت ترى إذن أن تصدى الشعر للمسائل العقلية والأمور الفلسفية الجافة ، ليس غريباً ولا منكراً ، وإن[1] ضاق به الذوق العربى وأنكره طويلا .

وترى أن أبا العلاء ليس بدعاً فى التاريخ الإنسانى ، ولكنه « مبتدع[2] هذا المذهب فى الأدب العربى » . وهو من هذه الناحية جدير بأن يكون موضع فخر العربية واعتزازها ، كما كان تلميذه الخيام موضع فخر الأدب الفارسى ، وكما كان لوكريس موضع فخر الأدب اللاتينى .

إن من الشذوذ المنكر أن نظل قيد ضوابط الأقدمين ، وأن نتهيب ما خلعوه عليها من قداسة ، فقد كانت هذه الضوابط مفهومة فى الماضى ، ولكن تقيدنا به يشل حركتنا ، وينبئ عن عجزنا عن الانتفاع بتجارب بضعة قرون أضيفت إلى عمر الإنسانية .

فإذا كان أبو العلاء قد أضيع من قبل ، فإنا نرجو ألا يضيع بيننا اليوم ، وألا ننكر عليه مكاناً كريماً بين شعرائنا المفكرين الممتازين ، أصحاب الوجدانات القوية والشخصية اليقظة .

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٢٥

(٢) يقول أستاذنا أمين الخولى « إن الذوق العربى أن ينكر تصدى الشعر لمعالجة المسائل العقلية بما هى عقلية ، لكن النقاد لم ينكروا أن الفن والفلسفة ، لونان من التأمل الذى يواجه به الإنسان مشكلة الكون وألغاز الوجود ، ولكن فرق ما بين اللونين فى التناول هو ما يتحدث فيه المتأدبون ، فليست الموضوعات محرمة على أحدهما محللة للآخر ، ولكن المنهجين مختلفان فى الموضوعات نفسها » انظر ما نقله ابن خلدون عن النقاد فى كراهة تصدى الشعر للأمور الجدية . وقد نقلناه فى ص ٢٤ — ٢٩ .

أبو العلاء أمام الحيـاة الإنسانية

١ — تشاؤم أبي العلاء ورده إلى دواعيه
٢ — متاعبه في حياته الخاصة
٣ — نضاله مع الدنيا وهزيمته في هـذا النضـال
٤ — سوء الحياة العامة في زمانه ومكانه

١

خرج أبو العلاء يرتاد آفاق الحياة الإنسانية باحثاً متأملا ، وتصدى لمواجهة مشكلات هذه الحياة على ما فيها من دقة وتعقيد وغموض .

لم خلق الإنسان ؟

وماذا يلقى من متاعب الحياة ؟

وماذا يقترف من الأخطاء ؟

وإلى أين المصير ؟

ومن الطبيعي أن تكون نظرته إلى الحياة الإنسانية العامة متأثرة بحياته الخاصة ، ومن ثم نرى أن نلم بهذه الحياة الخاصة ، ونرصد ما فيها من متاعب ، قبل أن نصحبه وهو يجتاز مراحل الحياة الإنسانية ، ونرصد متاعبها وأخطاءها .

محنة مبكرة :

حياة أبي العلاء شاحبة عابسة ، استقبلته الدنيا والشمس تنحدر إلى مغربها ، والكون يتشح بغلالة شاحبة من أضواء غاربة ما لبثت أن ذابت فى ظلام ليلة حالكة من ليالى المحاق ! قالوا [١] : « كانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ . »

وعجل القدر بمأساته ، فاعتل [٢] علة الجدرى التى ذهب فيها بصره سنة ٣٦٧ هـ ، وهكذا شاع الظلام فى دنياه وهو بعد طفل يستقبل الحياة ، وأسدل بينه وبين الدنيا ستار حالك السواد ، قبل أن يمضى من عمره أربع سنوات .

استقبلته الأيام عابسة وكشفت له عن أظلم جانب فيها ، وأخذته بالقسوة والعنف ، ولداته يعبثون ويلهون ، فارغى البال من هموم العيش ونكد الأيام .

وفاة أبيه :

ومضت أعوام عشرة ، أخذ الصبي نفسه خلالها بالجلد والاستسلام ، وتكلف الشجاعة والصبر ، لكنه لم يكد يثبت للمنحة ويعتادها ، حتى دهمته فاجعة أليمة أذهلته وهاجت أحزان ماضيه ، فنكأت الجرح وما كاد يندمل . رحل عنه أبوه إلى غير رجعة ، فولى معه الرفيق الكريم والنصير البار .

هنالك وقف الفتى فى تيه الحياة يفتقد العصا التى كان يتوكأ عليها ويهتدى بها فى الظلمات ، فألفى يده منها صفراً ، وإذا به يخبط فى التيه ضالا جريحاً متعباً .

ولكن يداً كريمة رفيقة امتدت إليه ، فردت إليه بعض الجلد وبعض العزاء ،

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤١ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ٤ ص ٢٤٢ بغية الوعاة للسيوطى ص ١٢٦ — شذرات الذهب لابن العماد جـ ٣ ص ٢٨٠
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ٢ ص ١٦٢ — وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١

وانثنت إلى كلومه تأسوها فى حنان الأنوثة الرفيقة ، وحب الأمومة البارة . فصمد لفتى لمآساته ، وتجلد مرة ثانية . وانبثقت فيه قوى جديدة تغريه بالنضال . وأشرقت فى دنياه المظلمة بارقة أمل ، فواجه الحياة متجلداً شجاعاً — واندس فى دنيا الناس يفرض نفسه عليها ، ويغتصب مكانه على مائدة الحياة وقد نحى عنه . روى المؤرخون أنه « كان فى أثناء شبيبته يجالس الظرفاء ، ويتصرف فى فنون الهزل والجد ، ويلعب النرد والشطرنج ، ويقول إنه يحمد الله على العمى ، كما يحمده غيره على البصر . » وقد غادر قريته بعد أن لزمها خمس عشرة سنة ، لعله أمضاها فى النضال بينه وبين نفسه ، وجمع أمره ، والتزود بما يحتاج إليه من عدة وعزم للنضال فى دنيا الناس .

خروجه إلى بغداد :

خرج إلى بغداد آخر سنة ٣٩٨ هجرية(١) — وإنها يومئذ لعروس الدنيا ، ومركز الحضارة الشرقية وملتقى الرواد والتجار ومقام الأشراف من العرب والعجم ، ومقصد الشعراء والرواة والعلماء والفقهاء والطلاب من جميع الأنحاء .

لماذا خرج إلى بغداد ؟

سكت ياقوت فلم يزد على أن سجل الرحلة ، وكذلك فعل ابن خلكان وإن كان قد جعل الرحلة اثنتين(٢) ، ونقله عنه ابن العماد فى شذرات الذهب(٣) . كذلك سكت الخطيب البغدادى فلم يذكر لنا فيم كانت الرحلة إلى بغداد(٤) .

وردتها دائرة المعارف الإسلامية إلى (أسباب مجهولة) وإن لم تستبعد « أن

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١ ص ١٦٣

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١

(٣) شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٨٠

(٤) تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٢٤٠

يكون فى شبابه ، قد شعر بقيود الحياة الريفية ، ونزع إلى ميدان أوسع تقدر فيه مواهبه[١] . »

وذكر الذهبي[٢] أنه سافر إليها متظلماً شاكياً : تعرض صاحب حلب لما فى يده من الوقف الضئيل . وهو سبب شك فيه مرجليوث[٣] ، وسلامون ، والدكتور طه حسين بك[٤] ، لأسباب أوردها فى كتابه « ذكرى أبى العلاء » .

ورد الدكتور طه حسين بك[٥] ، تلك الرحلة إلى أسباب أخرى ، قال إنه « يعتقد أن حب العلم ، وطلب الشهرة ، وسعة العيش ، وبغض الحياة السياسية بحلب ، هى التى كونت فى نفس أبى العلاء ، عزمه الرحلة من بلاد الشام إلى بلاد العراق . »

وقال مرجليوث « لقد يقبل أن يكون ضياع وقف الشاعر سبباً من أسباب رحيله عن المعرة ، ولكنه لا يجعلنا نفرض أنه رحل إلى بغداد لاسترداده . ورسائله وآثاره لا تذكر شيئاً عن هذا الوقف . وغير مستغرب ولا شاذ أن رجلا ظفر بحظ من الشهرة ، يرغب فى أن يجرب حظه فى العاصمة »

أبو العلاء ينفى أنه سافر للثروة :

أما أن أبا العلاء كان يبغض الحياة السياسية فى حلب ، فأمر لا نشك فيه ، وأما هذه الثروة التى راح ينشدها فى بغداد فأمر غير مستغرب ، لولا أن أبا العلاء نفسه قد

---

(١) دائره المعارف الإسلامية مادة (أبو العلاء)
(٢) ترجمة الذهبي — رسائل مرجليوث ص ١٢٩
(٣) Margoliouth - Biography of Abu'l Alà P. 20 ed. Oxford
(٤) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٢٨
(٥) « « « ص ١٢٨

ألح فى إنكار أنه ذهب يستكثر من الغنى وهو يقول : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب[١] » وهذه جملة أملاها مطمئناً رزيناً منصرفاً إلى نفسه وخواطره ، أملاها فى رسالته إلى أهل المعرة ، وهى رسالة لم تصدر عنه سريعة ، ولا مرتجلة ، و إنما صدرت عن روية وتفكير ، وكان رأيه فيها : « ليس بنتيج الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه سليل الفكر الطويل[٢] » .

أبو العلاء كما رأيت ينفى أن يكون قد سافر يستكثر من الغنى ، وهذا يبدو مخالفاً لرأى الدكتور طه حسين بك . ونحن لا نبرىء أبا العلاء من الرغبة فى سعة العيش ، وإن كنا نصدقه فى قوله إنه لم يسافر استكثاراً من النشب ، فليس ببعيد أن يكون (قد رغب فى الثروة ولكن الثروة لم تكن غايته بل كانت وسيلته إلى غاية أخرى كان يرجوها فى بغداد) وإلا لبقى فى بغداد حين عرض أهلها عليه أموالهم « عرض[٣] الجد ، فوجدوه غير جذل بالصفات ولا هش إلى معروف الأقوام . »

فما هذه الغاية البعيدة التى راح ينشدها فى بغداد ؟

(حب العلم ، وطلب الشهرة ؟)

نعم ، ولكنا نضيف إليهما غاية أخرى نلتمسها من حالته النفسية فى تلك الفترة الفاصلة بين طورى حياته . .

(كانت غايته تأييد نضاله مع الدنيا ، وإعلانه الناس بتفوقه وامتيازه :)

يبدو لنا من تفهم حالته النفسية ، وطول صحبته ، أنه خرج إلى بغداد يؤيد نضاله على الدنيا ، وانتصاره عليها ، هذا النضال الذى بدأه فى شبيبته وتمثل لنا فيه ، تحديه

---

(١) و(٢) رسائل أبى العلاء (مرجليوث) الرسالة الثامنة ص ٣٤
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥

للدنيا وتظاهره بالاستخفاف بمتاعبه . وقد سمعت ما رواه المؤرخون عن مجالسته الظرفاء — وتصرفه فى فنون الهزل والجد ، ولعبه النرد والشطرنج ، وحمده الله على العمى .

وظهر هذا النضال واضحاً فى شعر الشباب . فقد قال فى ذلك العهد[1] :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم   بإخفاء شمس ضوؤها متكامل
يهم الليالى بعض ما أنا مضمر   ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
وإنى وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل
ينافس يومى فىّ أمسى تشرفا   وتحسد أسحارى علىّ الأصائل
وطال اعترافى بالزمان وصرفه   فلست أبالى مَن تغول الغوائل
فلو بان عضدى ما تأسف منكبى   ولو مات زندى ما بكته الأنامل

(سقط الزند — شرح التنوير — ج ١ ص ١٠٩)

هذا هو حديث النفس التى تناضل عن حقها فى الحياة ، وتعلن عن امتيازها وتفوقها ، وتتحدى الأيام بعجزها عن النيل منها ، مهما أكثرت من مصائبها وأثقلت من أحمالها .

لمثل هذا خرج أبو العلاء إلى بغداد . خرج يؤيد نضاله على الدنيا وانتصاره عليها (خرج يعلن الناس بمكانه ويفرض نفسه عليهم ، ويدفعهم إلى الاعتراف به ويعرض طبيعته الممتازة وذكاءه النادر ، ليثبت أن الأيام لم تهزمه ، وأن محنته لا تحول دون تفوقه وامتيازه)

---

(١) لم يعين أبو العلاء — ولا المؤرخون — تاريخ هذه القصيدة ، كما لم يعينوا تاريخ غيرها من آثاره ، ولكن الذى اطمأن إليه دارسو أبى العلاء ، هو أن شعر الفخر كان قبل العزلة . انظر ص ٢٠٦ من تجديد ذكرى أبى العلاء .

واذكر هنا ما رواه ياقوت[1] ، عن قصة الكلب . . قال : « إنه دخل على الشريف المرتضى وهو ببغداد ، فعثر برجل فقال : من هذا الكلب ؟ فأجاب أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! » .

تلك قصة أوردها ياقوت فى معرض الحديث عن ذكائه ، ونقلها عنه السيوطى[2] ، ونقلها كذلك تيمور باشا فأوردها فى فصل[3] « فى مبلغ علمه وذكائه » .

ولكنى أوردها هنا لشىء غير التندر بذكائه والإشادة بعلمه — إننى أقف عندها طويلا فألمح وراءها معنى بعيداً . هى تكشف لى عن عزم أبى العلاء على النضال ، وتعلن عن تحديه للدنيا والناس ، وإصراره على أن يفرض نفسه عليهم ، إنه يقول : لقد امتحنتنى الأيام ولكنها لم تهزمنى ! أفسحوا لى مكانى بينكم ، فإن محنتى لا تحول دون تفوقى وامتيازى ! من شاء فليتقدم لمنافرتى ، والكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

فشل فى النضال فى بغداد :

خرج أبو العلاء إذن مناضلا عن نفسه ، يطلب مكانه الجدير به ، فماذا لقى فى بغداد وكيف كان النضال ؟

أما الناس فاعترفوا به وأفسحوا له مكانه بين الخاصة الممتازين[4] .

وأما الدنيا فتصدت له ساخرة بما اصطنع من جلد ، وما تكلف من شجاعة . رأته يتحداها ، فساقت إليه ما زهده فى النضال وكفه عنه . وأنت تذكر كيف

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١ ص ١٦٩
(٢) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٢٦
(٣) أبو العلاء المعرى لأحمد تيمور باشا ص ٢٣
(٤) معجم الأدباء لياقوت جـ ١ ص ١٦٢ — تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٥٢

أخرج[1] من مجلس الشريف المرتضى ذليلا مهانا . وتذكر قصته مع أبي الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي إذ استأذن[2] عليه فقال : « ليصعد الاصطبل » (الأعمى) » ولست في حاجة إلى أن نذكر لك أثر ذلك في نفس شاعرة دقيقة الحس ، قليلة التصبر ، شديدة الكبرياء كنفس أبي العلاء . »

كان هذا كفيلا بأن يجعل مكانه في بغداد — في دنيا الناس — قلقاً غير مطمئن ، لكنه تجلد ليهيئ نفسه للعودة إلى دنياه ، وساعده على التجلد أن الحياة العلمية في بغداد ، في ذلك الحين ، كانت تهيئ له غير قليل من المتاع ، وكانت حفاوة البغداديين به تربطه إليهم ، وتحببهم إليه . وقد أفسحوا له مكانه الجدير به فتأثر بتقديرهم ، ورأى في البقاء بينهم ، لوناً من ألوان الوفاء والاعتراف بالجميل .

رحيله عن بغداد :

وجاءه خبر من معرة النعمان أن أمه مريضة ، فأزعجه عن بغداد ، أو قل عجل بإخراجه منها . فقد يبدو لنا أنه كان على نية الرحيل مرضت أمه أو لم تمرض — ولست أنسى أنه قال يعلل رحيله عن بغداد . . . !

أثارني عنكم أمران : والدة   لم ألقها وثراء عاد مسفوتا

ذانكم سببان ظاهران للسفر ، وهما ظاهرا العذر كما يقول الفقهاء ، ولكنه إنما تعلل بهما . ووراءهما سبب بعيد ، هو ما قدمنا من قلق مكانه في بغداده ، ودقة حسه لما لقي فيها .

لو أنه ترك بغداد لمرض أمه حقاً ، لعاد إليها بعد أن ماتت . ولو أنه تركها لفشله

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٧٠ — شذرات الذهب لابن العماد ج ١ ص ١٨٣ بغية الوعاة للسيوطي ص ١٦٩ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٩ .

فى طلب الثروة ، لردته إليها الأموال التى عرضها البغداديون عليه عرض الجد فيما يقول . إنما هى تعلة الرجل المتعب ، الذى أجمع أمره على الرحيل والعزلة (أجل ، لم يكن رحيله عن بغداد فجأة حين أزعجه مرض أمه ، ولم يكن إجماع أمره على العزلة « نتيج الساعة ، ولكن سليل الفكر الطويل (١) ») ثم كان مرض أمه وعجز ثروته الضئيلة عن مواتاته على العيش فى بغداد فعجل بالسفر . كان فى نيته أن يرحل ، دون أن يحدد متى وكيف ، فجاء خبر مرض أمه مؤذناً بموعد الرحيل .

وفاة أمه :

أخذ الطريق إلى أمه وإن نفسه لتهفو إلى ساعة يلقاها ، فيغرق آلامه فى حنانها الكبير ويستمد السلوى والعزاء . وعاودته ذكرى ما لقى فى بغداد لكنه اعتصم بذكرى أمه ، وتمثل له ما سوف يلقى عندها من نعيم . وإنه لغارق فى تأملاته ، معتصم بأحلامه ، إذ ماتت أمه ، فتداعى للمصاب وتمت المأساة . صحا الرجل من غفوة أحلامه على صوت الفاجعة الجديدة ، فأدرك فى يقظة مباغتة أنه ضائع الحيلة أمام مصائب القدر وكوارث الأيام . هنالك عزم على وضع حد للنضال الذى أرهقه ، ومضى يهمهم بكلمات نائحة نادبة ، ويلهو بأحزانه ويتفنن فى تصويرها ، وكأنه يستمرىء طعمها : « يا قلب لعل أسودك زنجى من ولد حام ... ألا تبتئس لأول من فعل معك الجميل ؟ ألا تجزع لتقوض الأقربين ؟ يا شمال ، ألم يحزنك شلل اليمين ؟ أقمت وتحمل الناس ، وإن لحاقى بالظاعن لوشيك ، عند الله أحتسب ما رزئت من أهل ولقيت من هم كاد الغريب له يشيب ، وتعب رسخ ألمه فى الأعضاء (٢) . »

رحمك الله من ساكنة رمس ، أصبحت حياتك كأمس (٣)

---

(١) رسالته إلى أهل المعرة — رسائل أبى العلاء — الرسالة الثامنة ص ٣٤

(٢) الفصول والغايات ص ١٥

(٣) رسائل أبى العلاء . الرسالة السابعة ص ٢٨

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

لا آمل بعدها خيراً ، ولا أزيد فى المحن إلا إيضاعاً وسيراً . يا سلوة الأيام موعدك الحشر . موعد والله بعيد . . . وحزنى لفقدها ، كنعيم أهل الجنة — كلما نفد جدد ، وشرحه إملال سامع و إفناء زمان » .

هكذا انتهت الرحلة وأوى المتعب إلى بيته ، فإذا الظلام يكتنفه . . . اختفت منه الابتسامة الوحيدة التى أشرقت فى أساه ، وتلاشى شعاع النور الذى أضاء فى حياته المظلمة . آب المسافر من سفره وحط رحاله بعد أن أتم التجربة . كانت الحياة كما رأيت قد أخذته بأنواع من القيود فثار ، ولكن ثورته لم تفكها عنه ، و إنما تحطمت على صخرة الأحزان . حاول أن يشغل عنها بالناس والدنيا لينساها فى زحمة الحياة، ولكنه وجد هناك ما أزعجه عنها وملأ نفسه مللا وتعباً .

وعاد يلتمس العزاء فى أحضان أمه ، ولكن أمه قد مضت ومضى معها العزاء .

هنالك زهد فى دنيا الناس ، وصدف عما تركت له من تافه الملذات .

(« وانطوى على يأس ومجانبة للناس »)(١)

***

حياته بعد العزلة :

هذه حياة الرجل قبل العزلة ، وهذه هى متاعبه وآلامه ، فهل استراح فى عزلته وهدأ إلى اليأس وكف عن النضال ؟ .

ظن(٢) الكثيرون أن أبا العلاء حين اعتزل ، قد راض نفسه على الرضا بما قدر له

---

(١) من رسالة إلى بعض العلوية (رسائل أبى العلاء — الرسالة التاسعة ص ٣٥)
(٢) أبو العلاء وما إليه — للميمنى ص ١٧٤ .

والاستسلام لما أريد به (ولكن الحقيقة أن أبا العلاء لم يذق لذة الصبر وإن تكلف الصبر. ولم يرض بمحنته وإن تظاهر بالرضا والاستسلام. إنما رأى الرجل أنه ضائع الحيلة، لا يملك لنفسه شيئاً، فانطوى على نفسه، يعالج همومه، ويتكلف الصبر والصبر عنه بعيد)

حديثه عن مأساته :

(ونحن نتركه الآن يحدث عن مأساته، فسترى فى حديثه مرارة مؤثرة وأنيناً مكتوماً وصراخاً أبح، وشكاة موجعة باكية.)

قال فى اللزوميات :

ربِّ متى أرحل عن هذه الد   نيا فإنى قد أطلت المقام
لم أدر ما نجمى ولكنه   فى النحس مذ كان، جرى واستقام
فلا صديقى يترجى يدى   ولا عدوى يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب   والموت يأتى بشفاء السقام ٢/٣٢٤

ويبكم إن رأيتمونى يوماً   حبة فى الثرى فلا تلقطونى
بت كالواو بين ياء وكسر   لا يلام الرجال إن يسقطونى ٢/٣٨٥

أجامل الناس ولو أننى   كشفت ما فى السر أخزانى ٢/٣٨٣

أرانى فى قيد الحياة مكلفاً   ثقائل أمشى تحتها وأطابق ٢/١١٨

من عثرة القوم أن كنوا وليدهم   أبا فلان، ولم ينسل ولا بلغا
كالسيف سمى قطاعاً وما ضربت   به الأكف، ولا فى هامة ولغا ٢/٩٥

عرفت صروفه فأزمتُ منها   على سن ابن تجربة مُسن.

وأفقرنى إلى من ليس مثلى ... كما افتقر السنان إلى المسن ٢/٣٧٥

إذا لم يكن خلفى كبير يضيعه ... حمامى ولا طفل، ففيم حياتى ؟ ١/١٨٢

إذا طفئت فى الثرى أعين ... فقد أمنت من عمى أو رمد ١/٣٠٢

فيا دار الخسار ألى خلاص ... فأذهب فى الجنوب أو الشمال ؟

وظلم أن أحاول فيك ربحاً ... ولم أخرج إليك برأس مال ٢/٢٢٩

وهوّن أرزاء الحوادث أننى ... وحيد أعانيها بغير عيال

فدعنى وأهوالا أمارس ضنكها ... وإياك عنى لا تقف بحيالى ! ٢/٢١٥

وأصبحت فى الدنيا غبيناً مرزءاً ... فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن

فإن تحكمى بالجور فىّ وفى أبى ... فلن تحكميه فى بناتى ولا فى ابنى ٢/٣٥٩

وقال فى الفصول والغايات :

ما أضيق على دنياى ! وأنت المفزع إذا بطل كل احتيال . (٥٣)

يا نفس الغبر، لا تبقين على الغير، أما أصلك فقد ذهب، وأما الفرع فلا فرع لك، إنما أنت كشباً، عشى ماء مطحلباً . (٥٣)

إن جناحى لمهيض، طرت فى الصعيد فوقعت غير بعيد، والله منهض المنهاضين (٢١٤)

أصبح وأبيت، وأنا الضعيف الهبيت، ولو شاء خالقى لجعلنى القوى المزير (١٨٨)

يا نفس، كأنى بك وقد بنت، عن غير ابن لك ولا بنت، طالما رنت وأرنت، فالآن خبت وخبنت، أما عملك فشنت، أردت الزين فما زنت، فرحمك الله إذ حنت ..... كأن الأيام تحذنى، تأكلنى فتلذنى، والله العالم بعبده إذا جالت فيه الظنون . (٢١٩)

طلبنى الزمن بوتر ، ورمانى بالقتر ، وما ترك لى مسيو فتر ، غير ملقى جسد تحت الصفاح . (٣٥٥)

الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر ، أعوزنى فيه مسكن آرز إليه وأستكن ، وتبوأت الناسجة بين المثاب . (٤٧)

أضحك فلا ضحكت ! وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ، فعلىّ بالأسف ما دعت الحمامة حماما !

إنما أنا كرجل بُلى بالصدى ، لا يجد ورداً ولا مورداً فهو ظمآن أبداً . إن ورد غروفا وجده مضفوفاً ، وإن صادف نزوعاً ، أعوزته الآلة والمعين . (٣١٦)

أرتفع والقدر يكبنى ، يالبنى دائما ويلبنى . كم أستنسر وأنا من البغاث ! (٢١٦)

كم بت وظللت ، فقد سئمت الحياة ومللت ! كم أبللت من المرض فما بللت . (٢٨٥)

أى صديق لى وأى نسيب ؟ إنى فى الوطن لغريب ! (٣٦٦)

لا أعتدل أبداً ولا أستقيم ! مغبون فى الدنيا غبين . . . (٢٧٠)

أبو العلاء لم يزهد فى المجد :

(والذين يظنون أبا العلاء زهد فى المجد والشهرة مخطئون ، فقد كان الرجل شديد الكبرياء والاعتداد بعلمه وذكائه ، حريصاً على أن يعرفهما الناس ، شاكراً من يعرفهما ، ساخطاً على من ينكرهما .)

كتب إلى أبى القاسم المغربى فى رسالة الإغريض[1] . « وجعل الله رتبته ..... لا تنخفض أبداً . فقد جعلنى إن حضرت عُرِف شأنى ، وإن غبت لم يجهل مكانى » .

وقد غضب حين تلى عليه كتاب أبى الحسن النكتى البصرى ، إذ قصر اسمه

(١) رسائل أبى العلاء — الرسالة الثانية ص ٥

وحرفه فأسماه « محمدا أبي العلا » قال رداً عليه[1] : « أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ! هذا أمر الله ! ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ، ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، والاتفاق الردىء لمن سمى وذكر . . . . .

« ولا يقل سيدى الشيخ — أدام الله عزه — قد قصرت الشعراء . . . . . فإنه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته ، ولكنه ألغى الضرورات كلها ورفض العيوب فلم يستعملها . »

أرأيت كيف غضب المعرى وتألم ، وثار واستسلم ؟ أرأيت كيف فزع لقصر اسمه ثم تماسك وظنها ضرورة شاعر . ثم أدركه الشك فمضى يفتقد ضرورة أخرى فى رسالة صاحبه وأخذ يستعرضها فى صبر عجيب حتى أتى عليها فإذا بها خلو من الضرورات ، بريئة من عيوب الشعر ، هنالك فزع أبو العلاء وارتاع ، بدأ يعاتب صاحبه فى سخرية ، ولكن المرارة غلبته فهتف فى حزن وشكوى[2] « و إنما تغوثت من ذلك لأنى قصير الهمة قصير اليد ، مقصور النظر مقصور فى البيت ، فكأنى محبوس فيه فما كفانى ذلك مع قصر الجسم ، حتى يضاف إليه قصر الاسم ! لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت أقصر من سالفة الذباب قد كدت أمصح فى الأرض كما تمصح الظلال . »

٤ — (سوء الحياة العامة فى زمانه ومكانه)

تلك حياة الرجل الخاصة ، فإذا تجاوزتها إلى الحياة العامة فى حلب وفى بغداد وفى البلاد الإسلامية بوجه عام ، ألفيت شراً ونكراً . فقد ضمت الدولة شعوباً متنافرة شتى ، واندست إليها لوثات دينية واجتماعية شاذة من كل مكان .

(١) رسائل أبى العلاء — الرسالة السابعة والعشرون ص ٦٥
(٢) « « « السابعة والعشرون ص ٧٦

كانت الحياة السياسية على حال من السوء يدعو إلى التشاؤم . لم يظهر هذا السوء فجأة فى ذلك العهد ، و إنما تقدمته أسباب وطلائع ، ظلت تعمل فى جسم الدولة حتى صار هرماً منخوباً .

وكانت قوة شخصية الخلفاء فى العهد العباسي الأول تؤخر المأساة ، حتى إذا كان العصر الثانى ، ضاعت هذه القوة .

لم يعد للخليفة هيبة ، فهو مراقب مسجون ، ينتظر القتل والعزل ، لا رأى له فى اختياره أو عزله ، يثور به الخدم وتستبد به النساء ، و يلعب به الوزراء و يضحك منه الجند ، و يحوطه الأعداء من كل ناحية : من بيته وقومه وعدوه . وهو حائر يتردد بين الحرب والسلم ، بين الجهر بالعداء والكتمان والمداراة ، وهو ضعيف يقدر فلا يعفو ، و يملك فلا يرحم ، يصطنع الغدر والدس والخيانة ، بل والسلب المستتر .

والجند ماضون فى طغيانهم . يظلمون و يستبدون و يسلبون و يتنافسون . حديثهم بالسلاح ، وتفاهمهم بالحراب .

والادارة مكونة من خليط عجيب ، والدولة كالجثــة تنهشها ذئاب الاطماع والعصبيات والشهوات .

ولم يعد للدين حرمة ، فكثر مدعو النبوة ، والزنادقة ، واندست إلى البلاد لوثات دينية وآراء غريبة شاذة . وأصبح التصريح بالسوأة شائعاً على ألسن العامة والخاصة ، وشاع الاتجار بالدين والتكسب به .

والجمهور يفتح عينيه على هذا كله وهو فى ثورة فكرية لم يرها العرب من قبل ، فكانت ثقافته تزيد من ثورته وسخطه .

وارجع إلى ما تختار من كتب التاريخ الإسلامى لذلك العهد ، فسترى تلك

الصورة التى عرضناها له ، بريئة من الغلو والمبالغة والإسراف .

* * *

فى هذه البيئة المنكرة عاش أبو العلاء ، ومن الحق أنها لم تنفرد به وحده ، وإنما كانت بيئة شائعة مشتركة ، شهدها عدد من الشعراء فلم تلذعهم المرارة كما لذعت أبا العلاء . ذلك لأنه كان متعباً ، وقد أوفت الحياة له كيل الهموم ، وأثقلت كاهله بأعبائها ، وألقت بينه و بين الدنيا ستاراً أسود ، فبدت له مآسى الدنيا مظلمة شديدة الإظلام . وعاد الشاعر كتلة من الحس المرهف الدقيق ، فإذا به يحس أشياء ، يمر بها غيره سراعاً لا يلتفتون ثم اعتزل الناس ، ولكن بقيت له نفسه الشاعرة وحسه المرهف ، وعقله الممتاز وروحه الحرة الطليقة ، فمضى يرصد مهازل الحياة فى عصره ، ويحس شرورها وأخطاءها إحساساً عميقاً مؤلماً ، فتصدر عنه فيما يمليه ، قوية لاذعة مؤثرة .

قال فى اللزوميات يتحدث عن فساد الحياة فى عصره :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها ١/٥٥

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة ولا يرقون لدمع الشماء والخنساء
كالذى قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطى بالأحساء ١/٦٥

ومن يفتقد حال الزمان وأهله يذم بهم غرباً من الأرض أو شرقاً
يجد قولهم ميناً ، وودهم قِلى وخيرهم شراً وصنعتهم خرقا ٢/١٢٦

لقد تفكرت فى الدنيا وساكنها فأحدث الفكر أشجاناً وتأريقا

أعرق آدم هذا لا يمازجه ، سواه ، أم مس من إبليس تعريقا ؟ ١٣١/٢

كل الديار ذميم لا مقام به وإن حلت ديار الوبل والرهم
إن الحجاز عن الخيرات محتجز ، وما تهامة إلا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن فى يمن ويثرب الآن ، تثريب على الفهم ١٠٣/٢

ويقال الكرام قولا وما فى العصر إلا الشخوص والأسماء
وأحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء ٢٠٨/١

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ولكن لكم فيها التكاثر والكبر ٣٠٥/١

فؤادك خفاق وبرقك خافق وأعياك فى الدنيا خليل موافق
تخير ، فإما وحدة مثل ميتة وإما جليس فى الحياة منافق ١١٨/٢

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم علىّ صلاة يوم أصبح هالكا
فما فيكم من خيّر يدعى به يفرج عنى فى المضيق المسالكا ١٤٩/٢

وكتب فى رسالة الأخرسين يحمل على المتدينين وزيفهم :

« قال رجل من الصالحين . لأن يدعو لى رجل أخرس ، أحب إلى من أن يدعو لى ألف خطيب على ألف منبر — لأن ذلك يومىء إلى الله سبحانه بلسان ما أفك ولا قال البهتان ، وأولئك جديرون أن يكونوا كما قال سبحانه : « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » .

وقال فى الفصول والغايات :

طُفت الآفاق فإذا الدنيا نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضمر غيره الفؤاد ، فاخترت الوحدة على جليس السوء ! (٢٧٣)

***

بهذا الحس الدقيق المرهف ، وتلك النظرة القاتمة المتشائمة ، تجاوز أبو العلاء دنياه الخاصة وبيئته العامة ، ومضى يواجه مشكلات الحياة الإنسانية ويرصد متاعبها وشرورها وأخطاءها . فلنمض معه ولنصغ إلى تأملاته .

الكتاب الثانى

مراحل الحياة الإنسانية

« مرحلة النشأة — مرحلة الحياة — مرحلة الموت والمصير »

المقالة الرابعة : العلة الغائية للخلق

« لم خلق الإنسان ؟ وهل خلق العالم لنا ؟ »

« **الخامسة** : متاعب الإنسان

« مشكلة الخير والشر »

« **السادسة** : أخطاء الإنسان

« مشكلة الجبر والاختيار »

« **السابعة** : الموت

« **الثامنة** : مصير الإنسان

المقالة الرابعة :

مراحل الحياة الانسانية

المرحلة الأولى

العلة الغائية وحكمة الوجود

١ — لم خلق الإنسان ؟
٢ — وهل خلق العالم لنا ؟
٣ — وسخرت الكائنات لأجلنا ؟

البحث فى حكمة خلق الإنسان يرجع إلى أصل عام هو الحكمة العامة للوجود .
هل للخلق حكمة معروفة ؟
أو أن مانراه فى الكون ، من مظاهر وكائنات ، نتيجة نظام آلى لايقصد إلا غاية ؟.
ظهر النضال بين الرأيين فى البيئة اليونانية من قديم ، وكان فى أول أمره عاماً يتجه إلى المظاهر الكونية ، ويحاول فهمها وتعليلها . حتى جاء الدور السقراطى ، فلم يعد البحث فى حكمة الخلق مقصوراً على الظواهر الكونية ، وإنما تجاوزها إلى الكائنات بوجه عام والإنسان بوجه خاص .

رد الظواهر الكونية إلى غضب الآلهة ورضاها :

ظهرت فكرة العلة الغائية ساذجة ، فى (الميثولوجيا) اليونانية القديمة ، فكان اليونان فى شغل دائم بالآلهة وغضبها ورضاها ، كلما رأوا خيراً ردوه إلى رضى الآلهة ،

وكلما آصابهم أذى ردوه إلى غضبها . فكأن الآلهة فى شغل دائم بهؤلاء البشر ، وهى تفعل ما تفعل ، وتخلق ما تخلق ، متأثرة بعواطفها نحوهم .

ولكن المدرسة الذّرية الأولى، حاربت هذه الفكرة، فزعيمها ديمقريطس Démocrite يسأل : «هل المادة — وهى متحركة أبداً — تسير فى حركتها ، وفقاً لخطة مقدورة وغاية مرسومة ، أو أنها تخبط خبط عشواء ؟» ويجيب ديمقريطس عن السؤال ، فلا يتردد فى القول ، بأن الضرورة الآلية العمياء وحدها ، هى التى تدفع الذرات هنا وهناك دون أن يكون لها قدر معلوم ، أو سبب مرسوم ، أو غاية تقصدها .

هذا قول جهرت به المدرسة الذرية الأولى قبيل القرن السادس ق. م. ولكن العهد لم يطل به ، فقد نهض أناكسا جوراس Anaxa gore حوالى سنة ٥٠٠ ق. م. يبطله ، ويقول أرسطو عنه : « بدا كأنه الوحيد الذى احتفظ برشده إزاء هذيان سلفائه . »

بهره ما يشمل الكون من نظام وجمال وتناسق ، فأدرك على الفور أنه يستحيل على قوة عمياء أن تخرج هذا العالم الدقيق المتناغم ، فهو كما يظهر لا يخبط خبط عشواء بل يقصد إلى غرض محدود ، وكيف يسيغ العقل أن يكون تناسق الكون من فعل قوة آلية عمياء ؟ وهل تنتج هذه القوة إذا أطلق لها الأمر إلا عماء وفوضى ؟[1].

وقد بالغ أناكسا جوراس فى تقدير القوة العاقلة حتى انقلبت عنده قوة آلية ، وكأنه انكفأ بذلك راجعاً إلى حيث كان أسلافه من قبل .

وجاءت مدرسة سقراط فقررت ألا شىء فى العالم خلق عبثاً ، وأعلن أرسطو ، أن ما نرى فى العالم ليس ضرباً من العبث لا يقصد إلى غاية معلومة ، بل لا بد أن يكون هناك غاية ، وكلٌّ يسير إلى غايته ويعرف السبيل إليها . وحركات العالم ليست

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص ٥٦

حركات آلية مجردة عن القصد ، إنما كل حركاته — حتى الآلية منها — موجه إلى غاية .

The Great Chain of Being

وضبطاً للفكرة ، مضى تلاميذ المدرسة يلتمسون غاية يرد إليها كل نوع من الكائنات . واقتضاهم هذا أن يضعوا ترتيباً يعرف بسلسلة مراتب الوجود أو سلم العالم فالعالم متدرج فى الرق ، بعضه أرقى من بعض فى الوجود وفى القيمة .

البذور الأولى للوجود تبدأ بالحياة المعدنية ، وهى أحط درجات الوجود، وما يوجد فيها بشكل ساذج أو دنىء ، يوجد على درجة أرقى فى الحياة النباتية ثم الحيوانية ، وتنتهى السلسلة بالإنسان وهو أرقى الموجودات ، بما أنه حوى أنقى عنصر من هذه جميعاً .

قالوا : « وكل نوع من هذه الدرجات موضوع للدرجة التى تليه ، وله حق الاستيلاء على ما دونه وإلا كان وجود ما دونه عبثاً». قال سقراط[١] : «إن الخير هو النافع » ويقصد بالنافع أن يؤدى الغاية التى خلق من أجلها (وإذاً فكل الكائنات مسخرة لهذا الإنسان إذ هو أعلاها وأسماها) وإذاً — فالاعتداء على الحيوان خير ، لأن ذلك هو غاية وجوده ، والمثل الأعلى له أن ينتفع به الإنسان . وكان أفلاطون يمجد الإنسان ويقول عنه فى طيماوس : « ألسنا[٢] نبات السماء لا نبات الأرض ؟ » وأرسطو يقرر « أن لكل موجود وظيفة يؤديها ، وكمال الموجود أو خيره ، يكون فى تمام وظيفته[٣] . »

وقد أخضع أصحاب المذهب ، كل الأمور لهذا التفسير الإنسانى ، وقوموها بمقياس

---

(١) L. Robin-La Morale Antigue P.27—32 ed. 1938

(٢) الأخلاق لأرسطو — تعريب لطفى باشا السيد عن سنتهيلير . ص ٦٤

(٣) L.Robin-La Morale Antique — (Aristote—) P. 45—50

المصلحة البشرية ، فكل الكائنات موضوعة للإنسان (نبات السماء) ، وكل ما فى الكون من بحار وأنهار ونجوم ونبات وحيوان ، قصد به نفع البشر — حتى الزلازل وثوران البراكين والآفات والعاهات ، يقصد بها نفعهم أيضاً ، إذ فيها إعلان لهم بسخط الآلهة وردع لهم عن المعاصى .

ويظهر أن أرسطو قد لمح ما فى هذا من إسراف فتحفظ وقال : « يجب ألا نفهم من هذا أن كل موجود إنما يتحرك لخدمة الإنسان» . ولكنه يقول بعد هذا مباشرة : «كل[1] الأشياء التى هى أحط من الإنسان فى سلم الرقى ، تتجه نحوه ، وغايتها هو الإنسان بحكم أنه أعلى منها فى سلم الرقى » .

وقد لقى القائلون بذلك ، خصومة حادة عنيفة أثارها (الأباقرة[2] ، فقد أنكروا العلة الغائية إنكاراً صريحاً) ورفضوا القول بأن يداً إلهية خلقت هذا الكون لنا . وسخروا بمن يردون الظواهر الكونية إلى حكمة معروفة من نفع البشر أو سواهم . فلم يخلق المطر والخصب والصحة جزاءً لطاعة الناس ، وإعلاناً برضى الآلهة ، وليست الصواعق والبراكين والزلازل والآفات إيذاناً بسخطها وردعاً للبشر . إنما الوجود كله ، خاضع لنظام آلى لا دخل لإرادة خارجية فيه ، والقرابين التى يقدمها الناس للآلهة عبث مزدوج ، لأنها لا تقبلها ولا ترد ثمنا لها ، كما أنها لا تزعج بالغضب منا ، فهذه عواطف بشرية ليس لمثلها مكان فى القوة الإلهية الكاملة[3] .

والآلهة لم يخلقوا شيئاً لأجلنا ، لأنهم لم يكونوا ولن يكونوا فى حدود دنيانا .

---

(١) الكون الفساد لأرسطو — تعريب لطفى باشا السيد عن سنتهلير . ص ٢٣٤

(٢) Zeller — Outlines of the History of Greek Philosophy — Baily — The Greek Atomisme.

(٣) Lucretius — The Nature of things (De Rerum Natura) Book II Para. 167 — 183

ليس ما دون الإنسان مسخراً لخدمته ، فالإنسان أكثر الكائنات أعباء ، ولعله نفرد دونها بالمتاعب والشقاء ، فالعالم لم يخلق للإنسان ، والكائنات لم تسخر له ، إنما لكل موجود حقه الذاتى فى الوجود)

وقصيدة لوكريس « طبيعة الأشياء » إنكار ملحّ لمعرفة حكمة الوجود ، ورفض صريح لها ، وفيها سخرية بغرور الإنسان ورثاء لمتاعبه وشقوته ، واعتراف بحق الوجود الذاتى لكل الكائنات . قال : « هناك[1] من يدعون أن يداً إلهية خلقت هذا الكون كله لمصلحة البشر ، ولكن من الحمق أن ندعى ذلك ونتصور ألا شىء خلق إلا لخدمتنا ، فإن لكل موجود حقه الذاتى فى الوجود »

٢

فى البيئـــــة الإسلامية

القول بحكمة الخلق وردها إلى منفعة البشر :

(وفى البيئة الإسلامية ، راج القول بحكمة الوجود وبخلق العالم لنا واعتنقه المعتزلة ، فردوا كل شىء إلى منفعة الإنسان ، وردوا حكمة الوجود إلى نفع المكلفين من عباد الله)

وقد ظهرت هذه المسألة فى البيئة الإسلامية وأجمعت الفرق الدينية المختلفة — من معتزلة وسنيين وغيرهم — على أن الله خلق الخلق لحكمة ، وإن اختلفوا وراء ذلك فى أن تكون هناك علة غائية بعثت الله تعالى على العمل ، كما تبعثنا نحن على أن نعمل

(١) Lucretius — The Nature of things (De Rerum Natura) Book 11 Para . 167 — 183

طلباً لتحقيق تلك الغاية التى يريدونها فى قولهم : « أول الفكر آخر العمل » ، فنفى بعضهم هذه العلة ، وهو نفى لا يلزم منه مطلقاً نفى أن الله يفعل لحكمة ، فالحكمة هى مصلحة يراد تحقيقها ، والعلة هى ما يتوقف عليه وجود الشىء ، ويكون خارجا عنه مؤثراً فيه ، وقد راج القول بأن حكمة الخلق هى منفعة الإنسان فالمعتزلة[1] « أجمعوا على أن الله خلق عباده لعلة ، وأنه إنما خلقهم لينفعهم لا ليضرهم ، وأن ما كان من الخلق غير مكلف فإنما خلقه لينتفع به المكلف من خلقه ، وليكون عبرة لمن خلقه ودليلا ، ولولا ذلك كان لا وجه لخلقهم ، لأن من خلق مالا ينتفع به ولا يزيل بخلقه عنه ضراً فهو عابث .. » .

قيل لهم فلم خلق الحيات والعقارب وما أشبهها من الهوام ؟ قالوا لعلها تحشر يوم القيامة فتكون عذاباً على أهل جهنم من الكافرين والفجار من غير أن ينالها من ألم جهنم شىء ، كما لا ينال خزنة جهنم .[2] قيل وجهنم ؟ أخلقت لنفع الخلق ؟ قالوا نعم ، فقد أخافت كثيرين فصلحت أعمالهم . قيل وإيلام الأطفال ؟ قالوا إنه يؤلمهم عبرة للبالغين . وهكذا مضى المعتزلة فى التأويل وردوا كل شىء إلى منفعة المكلفين .

والغزالى أيضاً فى كتابه « الحكمة فى مخلوقات الله » ، يخضع كل ما فى الكون لهذا التفسير الإنسانى ، ويطرده فى كل شىء ، قال : « إذا تأملت[3] هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ، فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منصوبة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر . وكل شىء من ذلك معَد مهيأ لشأنه . . . . والإنسان كالمالك للبيت ، المخول لما فيه ، فضروب النبات لمآربه ، وأصناف الحيوان مصروفة لمصالحه » .

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى ص ٢٤٧ — ٢٥٢
(٢) مقالات الإسلاميين للأشعرى من ص ٢٥٤
(٣) انظر مقدمة كتاب « الحكمة فى مخلوقات الله » للغزالى

وقال فى المضنون : « وكمال[1] النبات أن يصير غذاء لما هو أعلى منه بالرتبة ، وهو الحيوان . وكذلك نسبة الحيوانات المذبوحة إلى الإنسان »

« والاعتراض[2] على هذا ، جهل بالأقدار والمراتب ، والعاقل يعلم أن الكامل أبدا يفدى بالناقص ، وأن الناقص يستسخر لأجل الكامل ، وهو عين الحكمة وليس ذلك بظلم » .

وابن رشد الفيلسوف يقطع بأن التناسق المشاهد فى الكون ، لا يمكن أن[3] يكون بالاتفاق ، بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده وهو الله عز وجل ، ويقول فى مكان آخر . « إن[4] الأشياء التى تفعلها الإرادة لا لمكان شىء من الأشياء ، أعنى لمكان غاية من الغايات . هى عبث ومنسوبة إلى الاتفاق » . وابن رشد فى هذا يرد الوجود إلى غاية ، ويفهم من قوله بعد ذلك أن الغاية هى منفعة البشر . ذكر فى قوله تعالى « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً . . . إلى قوله تعالى وجنات ألفافاً » . أن[5] هذه الآية إذا تؤمل فيها وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان .

وعلى القول بمنفعة الإنسان ، وترتيب الكائنات ، اعتمد داعى الدعاة فى مناظرته لأبى العلاء حول حق الإنسان فى الاستيلاء على الحيوان . قال : « فالحيوان[6] يستولى على النبات بالقوة الحساسة التى يرجح بها عليه من حيث كون النبات نامياً فقط وليس بحساس ، فلو لم يكن ذلك كذلك لكان موضوع النبات باطلا لا معنى له . والقوة

---

(١) و (٢) المضنون به على غير أهله — للإمام الغزالى ص ١١ — ١٢
(٣) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٨٢
(٤) » » » » » » » ٨٩
(٥) » » » » » » » ٨٢
(٦) معجم الأدباء لياقوت ص ١٩٠ .

الإنسانية كذلك مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليها بالمنطق والعقل . فهى مسخرة له بجميعها ، وإلا لكان موضوع الحيوان باطلا لا معنى له » .

رفض القول بالعلة الغائية :

ولكن القول بالعلة الغائية لقى فى البيئة الإسلامية خصومة حادة تشبه تلك الخصومة التى لقيها فى البيئة اليونانية . أعلن هذه الخصومة ابن حزم فى المغرب ، وأبو العلاء فى المشرق .

(ولا ينفى أحدهما أن الله خلق الخلق لحكمة . ولكنه ينفى أن تكون هناك علة ما ، تبعث الله على العمل ، ونعرفها نحن)

فأما ابن حزم ، فيحتد فى خصومته ، ويصطنع السب والتجريح . والجزء الثالث من الفصل ، جدال عنيف مع الفرق المختلفة ، وخصومة منكرة لأصحاب مذهب العلة الغائية ، ورفض صريح لها[1] .

ذهب[2] ابن حزم إلى أن هذه العلة من صنع عقولنا ، وهى تلزمنا . ولكن الخالق بخلاف خلقه ، يفعل ما يفعل ، ويخلق ما يخلق ، لا لعلة تبعثه على الفعل ، سوى أنه شاء ذلك . وأكد هذا المعنى فقال : « قلنا[3] فى غير موضع ، إن الخلق لما كانوا لا يقع منهم فعل إلا لعلة ، ووجب بالبراهين الضرورية أن البارىء تعالى بخلاف جميع خلقه من جميع الجهات ، وجب أن يكون فعله لا لعلة بخلاف أفعال جميع الخلق » .

وقد اعترف « ابن حزم » بعد هذا بحق الحيوان فى الحياة ، ونبه إلى خطأ نتورط فيه فى ترتيب الكائنات ، فنحن نأخذ الأمر على ظاهره ، ونرى أن كل درجة من

(١) الجزء الثالث من كتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزم
(٢) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٧١
(٣) » » » » » » ج ١ ص ٧٠

الكائنات تمتاز على ما دونها فى كل شىء وهذا أخذ بظواهر الأمور . والحق « أن كل واقعين تحت جنس ، فإن ذلك الجنس يعطيهما اسمه عطاء مستويا ، فلما كان جنس الحى يجمعنا مع سائر الحيوان ، استوينا معها كلها استواء لا تفاضل فيه ، فيما اقتضاه اسم الحياة ، ونحن نعلم بالمشاهدة أن الحيوان يألم بالضرب والنخس ، ويحدث لها من الصوت والقلق ما يحقق ألمه ، كما نفعل نحن ولا فرق ، فنحن نستوى معه فى الحياة وما يتبعها استواء لا تفاضل فيه ، وإنما نفضله فيما يتصل بالنطق ، من علم وتكليف ورسالة . »(١)

أبو العلاء والعلة الغائية

وأما أبو العلاء فيعرض الرأى على طريقته — تأملات شعرية فيها إنكار للعلة الغائية ، وحزن لمتاعب الإنسان وسخرية مُرة بغروره ومنطقه ، ورفض لمقاييسه فى تقويم الأشياء .

(هو يؤمن بأن الله تعالى خالقنا وخالق كل شىء ، وهو وحده الملك القوى القادر ، ونحن عبيده العجزة الضعفاء ، ويؤمن أن الله خلقنا لحكمة) ولكن ما العلة الغائية لذلك ؟ وما حكمة الوجود ؟ فلنرقبه وهو يمضى فى تأملاته يلتمس الجواب .

منطق الإنسان :

نسمعه أولاً يردد منطق الإنسان فيقول :

لو سُلط البرام على الآرام ، والعلس على ذوات الطلس ، لاستراحت الرذية من الأذية (الفصول والغايات ص ١٥٢)

---

(١) الفصل لابن حزم ج ١ ص ٧٩ .

ويصور إنكارنا حق الحياة على مالا ينفعنا فيقول فى الفصول والغايات :

لو كان لى وقير فيه الحبشة الرعيان ، أعبط كل يوم ما اخترت من الفرار ، فجاء خرس فى الليل الدامس يكنى أبا جعدة ، ووراءه عيال لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ، فاختلس فريراً أعجف ، لساءنى ذاك ، وغدوت بالملامة على ولاة الزراب . (٥٦)

لا يذنب رب الأخطار عند نفسه إذا اعتبط مائة فرار ، ويرى الذئب باعتباط الواحد مذنباً . (٤١٠)

ذلك منطق الإنسان ، ولم لا ؟ أليس الكون وما فيه مسخراً له موضوعا لأجله ؟

متاعب الآدميين :

ولكن أبا العلاء يمضى فى تأملاته ، فإذا هذا المنطق الإنسانى لا يستقيم على التحقيق ، لاحظ أبو العلاء أن الله قد ابتلى البشر بصنوف من المتاعب عجز عن تأويلها لمنفعتهم ، فكيف يستقيم هذا مع القول بأن الله لم يخلق الخلق إلا لينفعهم ؟

فى كل أرض صروف غيرُ هازلة يلعبن بالناس أفراداً وأزواجا لز ١٥٥/١

مهلا ! أمن وباءٍ فررت وهل ترى فى الأرض إلا منزلا موبوءاً ؟ ٦٢/١

وقال فى الفصول والغايات :

والدهر يلعب بنا حالا بعد حال (٢٩١)

وكل تطعم الكلب سنام الذعلب ، وتجلب إلى الغوى المترب ، ذات الحسن المعرب ، والجدب يحشر إلى الأمصار أرباب الإصار ، ويوكل أهل الصرم الحشرات . (٣٦٣/١١٤)

ومضى أبو العلاء فى تأملاته فلاحظ أن الله قد سلط علينا الهوام ، وهيأ للوحوش قدرة على افتراسنا وافتراس ماينفعنا من ماشية ودواب ، فكيف يستقيم هذا مع القول بأن الحيوان موضوع لأجلنا مسخر فى منفعتنا ؟

بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض   أتاه ليث على العلات يفترس   لز ١٣/٢

ولو لم يقدر خالق الليث فرسه   لمطعمه ، لم يعطه الناب والظفرا   ٣٥٢/١

وقال فى الفصول والغايات :

شبع السرحان من الطليح ، والله رزقه لحم الطلاح   (١٨٩)

(البرغوث يمتص دماءنا) والله أذن له بذلك الغذاء   (٥٤)

سقط فارس أسد ، على فارس أسأد ، دارع لبد على دارع زرد ، والله مسلط جنوده على من شاء .   (١٩٨)

يغدو الحاطب نشيطا وفى يده المخلب ، وعلى عاتقه المسد ، فيكون أكيل أسامة مع الشروق .   (٤٠٧)

أنت ربنا كافى الغافلين . بك أقرت شنعاء شنيرة (الحية) ، شربت الذيفان جرعا ، ثم رفعت رأسها إلى واحد بائسة تغتزل العميت ، فأعجلته عن دعاء الصحب . . . ويحه البائس ! لقد عثر منها بعثار فما تماسك فى أيدى الرحضة ، فكانت الكرامة له دفنه مع الرواح .   (٤٧٣)

رب فار من إبرة ذات الفقار (العقرب) ، أتيح له ناب الصل   (٣٦٥)

أوحى الله إلى الأسد أن كل فلاناً ، فظلت النوائح بحاً من النواح عليه ، فى أيديهن خذم النعال .   (٤٣٧)

٣ — (لم يخلق الكون وما فيه لنا ، ولكل كائن حقه فى الحياة)

ليس صحيحاً إذن أن كل ما فى الكون خلق من أجلنا وسخر لنا ، وإنما لكل كائن حقه الذاتى فى الوجود . خلق الله الكائنات وهيأ لها سبيل الحياة ، ورعايته تعالى تشمل الحيوان كما تشمل الإنسان . . .

قال فى سقط الزند :

دع الطير فوضى إنما هى كلها   طوالب رزق لا تجىء بمفظع ١٠١/١

وفى اللزوميات :

والرزق يهتف يا إنس اعملوا وكلوا   يا أيها الظبى ردْ ، يا طائر التقط ٧١/٢

ولو لم يقــدر خالق الليث فرسه   لمطعمه ، لم يعطه الناب والظفرا ٣٥٢/١

ولو لم يُرد جورَ البزاة على القطا   مكوِّنُها ، ما صاغها بمناسرَ ٣٧٧/١

وفى الفصول والغايات :

غَشيت رحمةُ الله كل الحيوان ، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات (١٧٥)

ليس التعشير (صوت الغراب) بنعى ولا تبشير ، وإنما هو لغة طير تسأل الله المير ، وهو رازق كل الحيوان . (٥٤)

إن الوحشية أكلت القَسور فى رأد النهار ، وأكلها القسور فى الأصيل ، والله بما كان منها عليم خبير . (٢٣٧)

طلب الأدفى الدفء فلقيه ذو نافض من الآساد ، والله جعل رزق الضيغم من الحيوان . (٢٤٢)

أجل ، للكائنات التى دوننا حقها الذاتى فى الحياة ، ولكننا ننكره عليها ، لأنا نقيس الأمور بمنفعتنا البشرية الخاصة ، ونرد كل ما فى الكون إلى مصلحتنا . ومن يدرى ؟ لعل من هذه الوحوش والحشرات من يخدعه الوهم والغرور مثلنا ، فيظن أننا لا نستحق الحياة ، أو أننا لم نخلق إلا لأجله .

وفى الفارسية القديمة قصة رمزية لا تخلو من عبرة وفكاهة . . زعموا أن رجلا أشرف على الكون فملأه الزهو ، وشاع فى نفسه الغرور ، وصاح قائلاً : « هذه الشمس تشرق من أجلى ، وهذا النبات ينبثق من التربة ليغذينى ، وهذه الدواب التى ترعى فوق الروابى وتملأ الوديان مسخرة لى ، كل ما فى الكون قد خلق من أجلى ، ألا ما أعظم مكانتى عند الخالق ! » .وكانت بعوضة تسمع هذا الكلام فلم يعجبها . وقفت على أذنه تمتص دمه وتروى به ظمأها وهى تقول فى سخرية : « قد يكون زعمك صحيحاً ، ولكن لا تشك فى أنى أعظم منك مكانة وأرفع رتبة لدى الخالق — فهو إن كان قد خلق العالم لأجلك ، فقد خلقك أيها الإنسان العظيم لأجلى ! » .

واذكر هنا قصة البيت والمالك عند الغزالى .

ثم اذكر قول أبى العلاء فى البرغوث : والله قد أذن له بذلك الغذاء (٥٤)

وقوله : « أوحى الله إلى الأسد أن كل فلاناً ! فظلت النوائح بحاً من النواح عليه فى أيديهن خِذمُ النعال

الكون لم يخلق لنا ، وظواهره لا تتأثر بنا

هنالك يرفض أبو العلاء أن يعترف بالعلة الغائية ، ويرفض أن يحدد حكمة الخلق ، ويشفق على الإنسان الذى يزعم الزاعمون أن الله خلق كل شىء لمنفعته ، وأن الكون قد سخر لأجله ، وقد مضى يسخر بمن يلتمسون علة إنسانية يردون إليها أنواع الكائنات وظواهر الكون .

لقد سلطت علينا الآفات والوحوش والأمراض والهوام ، ولو شاء الله لحمانا منها وحمى ضعاف الحيوان منا (ولكن الله يسلط بعض خلقه على بعض لحكمة نجهلها ، ولعلها الحد من كبرياء المخلوقات ، وإفهامها — لو تفهم ، أن العالم لم يخلق لنوع

بعينه من الكائنات ، وإنما خلق كل موجود ، وله حقه الذاتي فى الوجود ، وهيئت له أسباب الحياة ولو على حساب كائن آخر.

(وظواهر الكون لا تتأثر بنا — إنما الأمور مردودة إلى مشيئة الله)

قال فى اللزوميات :

لم تجدبوا لقبيح من فعالكم ولم يجئكم لحسن التوبة المطرُ ٣١٩/١

قضى الله فى وقت مضى أن عامكم يقل حياهُ أو يزيد به السحم
فقولكم : ربِّ اسقنا، غير ممطر ولكن بهذا دانت العرب والعجم ٢٥٢/٢

وفى الفصول والغايات :

إن أمر الله جلل ، لا ينقصه غدرُ الغادرين ، ولا تزيد قدرَه صلاةُ المصلين ، ولكن الصيامَ والصلاة ينفعان من فعلهما من الناسكين . (٤٣٨)

* * *

أبو العلاء يرفض مقاييسنا ويدافع عن صور الحيوان فى الحياة :

لم يكن غريباً بعد ذلك أن يرفض أبو العلاء مقياسنا الإنسانى فى ترتيب الكائنات، ويعجب لنا : نفزع الوحش ونسطو على الطير والماشية ، فلا لوم ولا تثريب ، ويخطف ذئب جائع دجاجة عجفاء أو حملا هزيلا ، يهدىء به ثورة جوعه ، أو يطعم به عيالا له جياعاً لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ، فنثور وندعو بالويل والثبور ، وهو ما اختار أن يجوع ، وما خلق طبيعته الآكلة للحوم . قال فى اللزوميات :

لو حاورتك الضأنُ قال حصيفها الذئب يظلم ، وابنُ آدم أظلمُ
أطْردتَ عنا فارساً ذا رَجلة ساقتْه حاجته وليلٌ مظلم

وَيَزيده عذراً لدينْـــا أنّهُ   سدرانُ ، ليس بعـالِمٍ مَا تعلمُ
تهوى سلامَتنا ، وترعى سرحَنا   وحِرابُ ضارٍ مِنْ حرابِك أسلم ٢٧٤/٢

جُرْ ياغرابُ وأفسدْ، لن ترىأحداً   إلا مسيئاً وأى الناس لم يجر ؟
لو كنتَ حارسَ أثمارٍ لهم ينعت   وصادفوك لما أخلَوْك من حَجر ٣٨٥/١

وقال فى الفصول والغايات :

فى قدرة ربك أن تقول المرية : إن المرء غصبنى ، خلبنى واحتلبنى ، جز وبرى وشربِ لبنى ، ونحر سقبي فكربنى ، وإلى القاصية ركبنى ، فلما رأى الـكبر ثلبنى . أبعدنى عنه وألبنى ، وعن حوض الواردة ضرينى ، لا يحسن ذلك أدباً ! (٤٢٣)

يا ظالمة ألا تنصفين ؟ لو كان لى وقير (قطيع) فيه الحبشة الرعيان ، أعبط كل يوم ما اخترت من الفرار ، فجاء خرص (جائع مقرور) فى الليل الدامس يكنى أبا جعدة ، وراءه عيال لاعهد لهم بالقوت منذ أيام ، فاختلس فريراً أعجف ، لساءنى ذاك وغدوت بالملامة على وُلاة الزِراب . (٧٥)

لا يذنب ربُّ الأخطار عند نفسه إذا اعتبط مائة فرار ، ويراه (يرى الذئبَ) باعتباط الواحد مذنباً . (٤١٠)

وربما اشتاق الراعيان إلى الشواء فأكلا ونسبا إليـــه (إلى الذئب) ، خانا — يعلم الله — وكذبا . (٤١٠)

هل أمن التعذيبَ حيوانٌ يعرف بالذيب ، يتبع الركاب فيرجع مخيباً ؟ يغدو مع السفر الغادين ، لعل الركائبَ تلقى حَوائلِ وأسقبا ! . الله رزقه فى البضيع ، فعلامَ يُقتل إذا احترس فريراً منزربا ؟ (٤١٠)

وقف الصائد فى شماله قوس نبع ، فأفزع الوحوشَ بالطبع ، ورمى ضبعاً فى الضبع ،

فركبتَ لذلك الردع ، أنفعٌ ما فعل أم ليس بنفع ؟ ألا تفرّق بين الحسنات والسماج.؟

وقال فى اللزوميات :

ولو علمتم بداء الذئب من سغب إذن لسلمتم بالشاة للذيب
ما أغدر الإنسَ كم حشف تربهم فغادروه قتيلا بعد تريب ١/١٣٤

***

وقد تصدى أبو العلاء للدفاع عن حق الحيوان فى الحياة ، واشتهرت فى ذلك قصيدته الحائية التى مطلعها .

غدوتَ مريض العقل والدين فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح ١/٢٣٢

وفى اللزوميات — غير هذه — قصائد أخرى كثيرة ، تنكر قسوتنا على الحيوان وتدافع عن حقه فى الحياة .

وسيان أم برة وحمامة غذتْ ولداً فى مهده ، وغذت نُجا
فلا تبكرن يوماً بكفك مدية لتهلك فرخاً فى مواطنه دجا ١/٢٠٩

تسريحُ كفىّ برغوثاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم أعطيه محتاجا ١/٢١٢

أرى حيوانَ الأرض يرهب حتفَه ويفزعه رعدٌ ويطمعه برق
فيا طائرُ أمنى ، وياظبيُ لا تخف شذاى ، فما بينى وبينكما فرق ٢/١١٦

وما الظبياتُ منى خائفات وردن على الأصائل أو ربضنه
فلا تأخذْ ودائع ذات ريش فما لك أيها الإنسان بضنه ٢/٣٤٨

وقال فى الفصول والغايات :

أيها المسكين ، ما أنت وحمامة قد رضيت من الأوطان بغصن فى غينة واد ، مشيفة على صغيرين عجزا عن المراد ، فهى تنقل الحبة إلى حبيبى الفؤاد . فامض لحاجتك ولا ترمها . (٢٦٠)

واقرأ رسالته[1] إلى أبى منصور خازن دار العلم ببغداد ، تر كيف يتمثل أبو العلاء ألم الحيوان ، وكيف يضيف إليه اللوعة والحنين .

مناظرة لداعى الدعاة :

عرض أبو العلاء رأيه فى ترتيب الكائنات ، وحق الحيوان فى الحياة ، على طريقة الشعراء ، وكان هذا جديراً بأن يعفيه من لم وكيف .

ولكن من معاصرى أبى العلاء من لم تخدعهم طريقته ، فرأوا خلال تأملاته الشعرية مذهباً يعتنقه الرجل ، ويخالف به جمهور المسلمين . فتصدوا لجداله . من هؤلاء داعى الدعاة بمصر ، أبو نصر بن أبى عمران . وكان لبقاً ذكياً عنيد الخصومة . رأى فى الأمر شيئاً أكثر من خطرات شاعر يهيم فى كل واد ، وأيقن أن أبا العلاء يؤمن بما يقول ، ويعتنقه مذهباً له فى حياته العملية ، فأحب أن يناقشه ويحرجه ، لكن كيف يجره إلى المناظرة ، وهو المعتزل الزاهد الذى اختار طريقة الشعراء فى عرض تأملاته وآرائه ؟ .

الأمر يحتاج إلى الحيلة البارعة .

وقد قال أبو العلاء :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى   لتسمع أنباء الأمور الصحائح لز ١/٢٣٢

(١) رسائل أبى العلاء (مرجليوث) الرسالة التاسعة عشرة ص ٥٠٢

فليتمارض أبو نصر، وليذهب إلى طبيب العقل والدين يرجو كشف المرض ! — وقد كان .

ودارت بينهما رسائل نجح فيها داعى الدعاة فى كشف الرجل وإظهار أن وراء تأملاته الشعرية شيئاً أكثر وأخطر من خطرات شاعر يهيم فى كل واد ويقول ما لا يعنى . وفطن أبو العلاء لمقصد الرجل فراوغ وداور ، ولكنه مع ذلك بقى على موقفه فى الدفاع عن حق الحيوان فى الحياة ، وإنكار قسوتنا عليه ورفض مقاييسنا الإنسانية .

سأله داعى الدعاة[1] « عن العلة فى تحريمه على نفسه اللحوم والألبان — سؤال من يعرف بكونها مخلوقة للأشخاص البشرية . . . فإن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليها بالنطق والعقل فهى مسخرة له بجميعها . . . . . . ولو لم يكن ذلك كذلك لكان موضوع الحيوان باطلا . » فأجاب أبو العلاء : « إن الحيوان كله حساس يقع به الألم — وحاله فى ذلك يعلم . . . وإن العرب لتضرب المثل بما يلحق الوحشية من الوجد إذا فقدت الفصيل ، وإن السمك ليخرج من الماء كارها ، وإن النحل لتحارب الشائر عن العسل بما تقدر »

قال داعى الدعاة : «ولكن الله خالقها رؤوف رحيم وما أنت بأرأف بها منه» . فمضى أبو العلاء يسخر بمنطقنا ويقول : « لو رأف ببنى آدم ، لوجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأدنى شىء ، ولم يخص الإنس بذلك وهم يجنون الكبائر ويقدمون على إتيان الذنوب ؟ وقد علم أن الوحش الراتعة يدنو إليها الفارس فيطعن العير والأتان وربما كانوا جماعة ، فصادوا الأتن والأعيار ، وهن ما أسدين أذاة — فلأى حال استوجب الرأفة من يفعل بها ذلك ، وهى لم تشرب من المآثم بذنوب

(١) الرسالة الأولى من داعى الدعاة إلى أبى العلاء

ولم تحس ما يكتب من الذنوب . ثم أضاف : « وما الطير[1] الراضية بلقط الحبة ، الراجعة بها إلى الأحبة ، فسلط عليها بازى أو صقر . . . ؟ وإن القطاة لتدع فراخها ظماء ، وتبتكر لترد ماء ، تحمله إليها فى القربة ، فيصادفها دون المدهن (المستنقع) أجدلُ ، فينال الظفر بقوت ، ويهلك أفراخُها أواما . ؟ ألحقت الرأفةُ بازياً أو كدرية ، فأخذت غصباً أو درية ؟ » .

قيل له ولكن الله سخر الحيوان للإنسان على ما تعرف من ترتيب المخلوقات ، فأجاب ساخراً منكراً : « فلم يسلط الأسدَ على افتراس إنسية ليست بالمفسدة ولا القسية ؟ ولم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، ما هى بالزلل ممهورة ؟ »

وقد بقى أبو العلاء على مذهبه ، وصرح فى رسالته الرابعة إلى داعى الدعاة بأنه « قد رضى أن يلقى الله جلت قدرته ، وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد » .

* * *

وتصدّى أبى العلاء للدفاع عن حق الحيوان فى الحياة ، وامتناعه عن أكل اللحوم ، مصدرهما ما رأيت من رفض الاعتراف بسيطرة الإنسان على الخليقة ، والتسليم بأن الكون مخلوق لنا ، وكل ما فيه مسخر لمنفعتنا . ولكن الكثيرين يقفون عند ظواهر الأشياء فيردون ذلك إلى مجرد « التأثر[2] بالفلسفة الهندية » أو الحكماء[3] المتقدمين » .

وآخرون يردون هذا الدفاع إلى مجرد الرأفة بالحيوان . ولذلك لم يفهموا فيم كان

(١) هذه القصة منظومة فى اللزوميات أيضاً ج ٢ ص ٢٤٨
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (أبو العلاء)
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢

امتناعه عن أكل لحم ذبحه غيره؟ فهم يسألون فى عجب: «قد[1] كان يمكنه ألا يذبح الحيوان رحمة، وأما ما قد ذبحه غيره، فأى رحمة بقيت؟.»

وزعم البعض «أنه[2] كان مدفوعاً فى ذلك إلى حد مّا بدافع الاقتصاد»، ولا ندرى كيف يضطره الفقر إلى المذهب النباتى، وإن أفقر أعرابى، ليجد بلغته من اللبن والطير وما يخرج من الماء؟ وقد عرضت عليه الثروة كما رأيت عرض الجد عند رحيله عن بغداد، وعُرضت عليه فى الفترة الأخيرة من حياته عن طريق داعى الدعاة.

(عندنا أن تصديه للدفاع عن الحيوان. مصدره الاعتراف بحق الحيوان فى الحياة، ورفض منطقنا الإنسانى، فى اعتبار الكون وما فيه مخلوقا لأجلنا، مسخراً لنا)

الكون لا يكترث بنا:

هكذا رفض أبو العلاء القول بأن حكمة الخلق هى منفعة البشر، ومضى يسخر بغرورنا نحن الذين نزعم أن العالم خلق لمنفعتنا، وأن الظواهر الكونية تتأثر بنا، وإنما الأمر موكول إلى مشيئة الله، والكون لا يعنيه من شأننا قليل ولا كثير.

قال فى اللزوميات:

تورعوا يا بنى حواء عن كذب   فما لكم عند رب صاغكم خطر ٣١٩/١

وهان على الفراقد والثريا   شخوصٌ فى مضاجعها درسنه
وما حفلتْ حضار ولا سهيل   بأبشارٍ يمانيـــة يدسنه ٣٥٣/٢

وقال[3]:

وما درى يوم أحدٍ بالذين ثووا   فيه، ولا يوم بدر أنهم نُصروا

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٧٠
(٢) مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٢ ص ٣١٩، ٣٢٠
(٣) «أبو العلاء وما إليه للميمنى» — انظر البيت رقم ٢٩ من فائت شعر أبى العلاء

وفى الفصول والغايات :

هل مازن وهوازن القبيلتان ، فى مُلك الله ، إلا كمازن النملة ، والهوازن من الطير النافرة ؟ وكذلك كلب بن ربيعة ، وكلاب بن وبرة إنما هما كلب مفرد ، وكلاب مستنبحة . وقضاعة بن مالك كالدابة الخارجة من خضارة ، وقريش كذلك . (٤)

يا من نام على السنام ، إن النجم لا يُهاد من طول السهاد ، إن عرتك نافض فإن السماك لا يشعر بحمّاك ! (١٦٦)

(لم نخلق عبثا ، ولكننا نجهل العلة) :

هل خلقنا عبثاً ؟

كاد أبو العلاء يقول ذلك ، لولا إيمانه بأن الله حكيم غير عابث .

لولا بدائعُ دلت أن خالقنا أدرى وأحكم ، قلنا خلقُنا لَمَ لز٢/٢٦٤

وخلقُك من ربنا حكمة لقد جل عن لعب أو عبث لز٢/٢٠٣

وفى الفصول والغايات :

ما أمور العالم بمهملة . (٨١)

ما أنشأك ربك لعبث . (٦)

والربُ يستجار ، لا يَخرج مما يقضيه الجُمدُ ولا الحيوان ، ولا يفعل إلا ما رضى وشاء ، وغيرُ متعلق به الزيغُ والخطأ ولا شىء من الدنيات (٣٣١)

✲✲✲

هو تعالى حكيم ، سبحانه جل عن عبث وارتياب ، لم يخلقنا عبثاً ، ولكن ما هذه الحكمة التى خلقنا لأجلها ؟

ذلك أمر يجهله أبو العلاء .

ومن الخطأ والظلم أن يزعم أحد أن أبا العلاء اطمأن إلى هـذا التسليم تقليداً أو ارتجالاً، أو إراحة لذهنه من عناء التعليل، فقد رأيت، وسترى، أنه قد أتعبه البحث

التمسها فى خلقنا وخلق الكائنات فأضلها.

والتمسها فى توزيع الحظوظ والأرزاق؟ فأعجزه الاهتداء إليها.

والتمسها فى الهداية والإضلال فما وجدها.

والتمسها فى الموت فلم يعرف ماذا يراد بنا.

لم يكن غريبا بعد ذلك أن يرفض القول بالحكمة، وأن يرد الأمر كله إلى مشيئة الله «فهو تعالى يفعل ما يفعل ويخلق ما يخلق، لا لعلة إلا لأنه أراد ذلك. أما ما عدا هذا فيجهله أبو العلاء» وهو يجهر بهذا الجهل فى صراحة مرة أليمة.

أرى جوهراً حل فيه العرض تبارك خالقه ما الغرض؟ لز ٦٣/٢

والله خالقنـــا لأمرٍ شاءه أبق العبيدُ، وعبده لا يأبق ١٢٤/٢

خُلقنا لشيء غير بادٍ، وإنما نعيش قليلا، ثم يدركنا الهلك ١٤٢/٢

نفارق الأرض لم نظفر بمعرفة أى المعانى بأهل الأرض مقصود ٢٥٤/١

المرحلة الثانية
من مراحل الحياة الإنسانية

مرحلة الحيـــاة

أصغينا إلى تأملات أبي العلاء فى مسألة العلة الغائية للوجود — وهى المرحلة الأولى من مراحل حياة الإنسان — ورأيناه حائراً متعباً لا يعرف علة واضحة يرد إليها خلق الإنسان .

والآن نرى أبا العلاء يواجه المرحلة الثانية من مراحل الحياة الإنسانية ، وتلك هى مرحلة الحياة .

اهتم أبو العلاء بهذه المرحلة اهتماماً كبيراً ، على أن عنايته اتجهت بوجه خاص إلى ناحيتين من نواحى الحياة :

(الأولى) متاعب الإنسان (مشـكلة الخير والشر) .

(الثانية) أخطاء الإنسان (مشكلة الجبر والاختيار) .

واهتمامه بهاتين الناحيتين غير مستغرب ، (فالناحية الأولى تبحث فى متاعب الإنسان ، وأبو العلاء كما رأينا ، موفور الحظ من شقاء الدنيا ومتاعبها . والناحية الثانية تبحث فى أخطاء الإنسان ، وأبو العلاء قد ضاق بأخطاء الإنسانية ورثى لها ، وحرص على أن يعرف نصيب الإنسان من المسئولية عن هذه الأخطاء .)

ونحن نصحبه فى هذه الجولة مبتدئين بمشكلة الخير والشر .

متاعب الانسان

مشكلة الخير والشر

١ — تعذر ضبط مقاييس الخير والشر .
٢ — عالمنا الذى نعيش فيه ، أخير هو أم شر ؟
٣ — من خلق الشر ؟
٤ — علة خلق الشر .

١

الخـــير والشر

تعذر ضبط مقاييسهما :

قبل أن نعرض لمشكلة الخير والشر ونصغى إلى أبى العلاء وهو يرصد شرور الدنيا ومتاعب الحياة ، نرى واجباً علينا أن نشير إلى تعذر ضبط معنى الخير والشر وتعذر الاتفاق على مقياس منضبط لتقويمهما .

ما الخير وما الشر :

واضح أن الشر هو نقيض الخير كما تقول معاجم اللغة ، وقد حاولوا تعريفهما من قديم فأحسوا صعوبة التعريف ولجأوا إلى المرونة يستعينون بها على ما فى الأمر من مشقة وعسر .

قالوا : [1] « إن الخير هو ما يجب أن يكون ، والشر هو ما يجب ألا يكون »

(١) دائرة معارف الأخلاق والديانات — مادة (الخير والشر)

ويرد عليه أنه لا توجد حدود ثابتة واضحة لكلمة (ما يجب)، فمن الصعب تحديد ما صدق «ما» في قولهم (ما يجب وما لا يجب).

وقالوا[1]: «الخير هو المرغوب، والشر هو المكروه». «والخير[2] عندنا هو الذي نرحب به إذا جاء، ونحاول أن نحتفظ به ونبقيه، وننظر إليه برضا — والشر في تجاربنا هو كل ما يراد التخلص منه وإبعاده عن نظرنا وسمعنا وذاكرتنا».

على أن الأمر أدق وأوسع من أن تضبطه قيود التعريف، ولكل من الخير والشر — على أي حال — مفهوم ذهني ليس من العسير إدراكه وتمثله، وهو في أبسط حالاته، وبمعناه العام، ينصرف إلى النفع والضرر (فالخير هو النافع المفيد، والشر هو المؤذي الضار).

مقاييس الخير والشر :

ولكن بم يقاس النفع والضرر؟

كتب[3] الأخلاق تفصل الحديث عن تاريخ الحكم الخلقي وتطوره من عرف وعادة إلى قانون — وضعي أو سماوي — إلى بحث ونظر. وهي كذلك تعرض الخلاف في ضبط الغاية التي يخضع لها السلوك الإنساني ويوجه إليها. وتصور النضال بين من أرجعوا[4] هذه المقاييس الخلقية إلى معنى الواجب، وبين من أرجعوها إلى معنى اللذة.

وليس هذا مكان التعرض لهذه الأبحاث الخلقية، ولكن الذي يعنينا هنا هو الإشارة إلى الخلاف في التقويم الاعتباري للخير والشر. هل تقوم الأمور بالاعتبار الفردي، أو باعتبار الجماعة على اختلاف صورها؟..

(١) Sidgwick — Methods of Ethics P. 110 ed. London 1901

(٢) Royce — Studies of good & Evil P. 16

(٣) و (٤) Zeller — Outlines of the History of Greek Philosophy P. 237

L. Robin — La Morale Antique P. 45 — 50

— كتاب الخير (خط) لحضرة الأستاذ أمين الخولي.

لم تهتد الإنسانية حتى اليوم ، إلى مقياس صحيح منضبط ، يتفق عليه الناس فى تقويم الخيرية والشرية ، فلا يزال شىء من النضال قائماً بين أنصار الجماعة وأنصار الفردية . وإن كان صوت الفردية قد خفت قليلاً ، وبدا نوع من الاطمئنان إلى الجماعية .

هل يقاس بالفرد أو الجماعة ؟

يرى أنصار الجماعة أن القياس بالمصلحة الفردية قائم على الأثرة والأنانية معطل لمبادىء التضحية والإيثار والفداء ، والواجب أن تهدر المصلحة الفردية فى سبيل مصلحة الجماعة ، وأن تكون هذه المصلحة هى التى تلون نواحى الحياة وتوجه السلوك والأخلاق ، فكل وسيلة تبررها مصلحة الجماعة ، خير وفضيلة مهما أبى العرف وثارت الأوضاع .

ويرى أنصار الفردية أن فناء الفرد فى الجماعة إلغاء لسير الزمان ، وتعطيل للنهوض الإنسانى ، ورجوع إلى عصور السذاجة والفطرة ، حين كان الفرد يفنى فى جماعته ، ويرى بعينها ويردد صدى صوتها — وهذا الفناء لم يعد يساير رقى الفردية ، والتطور الاجتماعى والسياسى ، القائم على احترام الفرد وتقدير شخصيته ، والاعتراف بوجوده مستقلا عن جماعته .

ونلاحظ أن تقويم الخير والشر بأى المقياسين ، عاجز عن ضبط الأمر ، فما أكثر ما تجد شيئاً ينفعك ويؤذى سواك ، ومصلحة جماعةٍ ما ، قد تضر جماعة أخرى .

أو يقاس بالمصلحة الإنسانية العامة ؟

ولقد وجد مبشرون ينادون بتقويم الأمور بالمصلحة الإنسانية العامة ، ويدعون إلى مقياس واسع لا ينظر إلى نفع فرد بعينه أو طائفة بذاتها ، وإنما ينظر فى أفق أوسع ويهدر الاعتبارات الشخصية والطائفية والقومية جميعاً ، ليقيس بمصلحة المجموع .

فما كان نافعاً للإنسانية فخير وما كان مسيئاً إليها فشر « الخير هو أحسن ما يمكن لأكبر عدد ممكن » .

ظهر هذا المقياس فى أقوال الدعاة وتعاليم المصلحين المبشرين بعهد جديد يلغى الفروق بين طوائف البشر وأجناسهم ، ويحطم الحدود والأسوار التى تقيمها كل أمة حول نفسها . وهذا المقياس يبدو سامياً معقولاً فى ظاهره ، ولكنا إذا حققناه وجدنا أن ضبطه عسير إذ يصعب أن يتفق الجميع على تحديد ما ينفع المجموع وما يضره .

هذه الحرب الهدامة التى تدمر جهد الإنسانية وتراثها فى ماضيها الطويل ، وَجدت من يقول إن فيها بعض الخير للبشرية ، وهذه المدنية التى أثمرها جهد الإنسانية وكد فيها العقل الإنسانى قرونا وأجيالا ، وَجدت من ينكرها ويرى فيها القضاء على نعيم البساطة والفطرة .

جاء فى دائرة المعارف للأخلاق والأديان : « نحن إذ ننظر إلى الخير والشر الخلقيين، نجد خلافاً لانهاية له فى معتقدات الناس وتقويمهم لما هو خير وما هو شر — ولا يوجد اتفاق عالمى بين الناس على تقويم السلوك ، خيراً كان أو شراً . فما هو فضيلة فى مكان ما يعد رذيلة فى مكان آخر . وما يقدره بعض الناس أصدق تقدير ، يتعذر على آخرين أن يجدوا ألفاظاً تعبر عن مدى كراهتهم له واحتقارهم إياه . قال بسكال: « ليس هناك قط قانون عالمى واحد» . وقال[١] : « ما هو حق فى هذا السفح من سفحى البرنيه ، باطل فى ذلك السفح الآخر » .

والخلاف فى الخير والشر الطبيعيين physique يشبه الخلاف فى الخير والشر الخلقيين ، فقد عجز الناس عن الاطمئنان إلى مقياس تقوم به الخيرية والشرية . فما أكثر ما تجد مصائب قوم فوائد عند آخرين ؟ .

(١) B. Pascal — (Pensèes — 204 P. 405) ed. L. Brunschvig

الموت الذى يراه البعض مأساة الإنسانية الكبرى ، وجد من يراه خيراً للإنسانية ومنفذاً للتضخم فى عدد الأفراد ، وإراحة من ذل الشيخوخة وضعفها . والريح التى تهدم بعض الدور الفقيرة ، تسوق السحب فتنزل الأمطار .

وهبنا اتفقنا على قدر ما من الأمور نراها خيراً للإنسانية أو شراً لها كالمرض والزلازل والجدب والصحة والخصب ، فقد بقى من يرى أن فى مقاييسنا خطأ جوهرياً ، فنحن فى تقويمنا ، للأشياء نقيسها بمصلحتنا معشر البشر ونسقط من حسابنا ماعدانا من المخلوقات ، مدفوعين فى ذلك باعتقادنا أن هذا الكون خلق لأجلنا وأن ما فيه مسخر لمصلحتنا ، فما نفعنا فهو خير ومن حقه أن يعيش ، وما لم ينفعنا فشر وليس من حقه أن يعيش . وإذا عاش بالرغم منا ، مضينا نسأل فى عجب وإنكار : كيف يخلق الله هذا الشر ؟ وتبدأ المشكلة .

الخلاف فى ذاتية الخير والشر :

هذه المقاييس المتقدمة — على ما فيها من صعوبة وخلاف — اعتبارية محضة ، فهى تستطيع أن تحكم على أمر ما حكما اعتبارياً إضافياً ، فتقول هو خير بالنسبة إلى فلان ، شر بالنسبة إلى فلان — أو هو خير بالإضافة إلى بنى الإنسان ، شر بالإضافة إلى الحيوان .

ولكن أى شىء هو فى ذاته ؟ أخير هو أم شر ، ما الرأى فى العمل الواحد يعمله زيد فيكون منه خيراً وفضيلة ، ويعمله عمرو فيكون شراً ورذيلة ؟ وما القول فى الشىء الواحد يكون شراً وخيراً لشخصين فى وقت واحد ؟ أو للشخص الواحد فى ظروف متغيرة ؟ ذلك أمر حير الناس من قديم وكان[1] إحدى المقدمات التى استخرجت منها المدرسة السوفسطائية Sophisté نتائجها الخطرة فى إنكار الحقائق ، واتهام المعرفة الإنسانية .

(١) كناش فى الفلسفة وتاريخها لحضرة الأستاذ أمين الخولى

قررت المدرسة أنه لا حق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما تواطا الناس عليه ليستقيم به معاشهم . قالوا[١] : « مذهب كل قوم حق بالقياس إليهم وباطل بالقياس إلى خصومهم ، وقد يكون طرفا النقيض حقاً بالقياس إلى شخصين ، وليس فى نفس الأمر شىء بحق » .

وقد خاصمهم سقراط وتلاميذه فى إنكارهم للحقائق ، واتهامهم للمعرفة الإنسانية . وقالوا إن العقل عام مشترك بين الناس وهو أداة المعرفة ، وإذن فنحن نستطيع أن نصوغ للخير تعريفاً يقوم على أساس إدراكنا العقلى لصفاته المشتركة ، وبذلك نكون قد ظفرنا بمقياس يقره العقل ، وهو عنصر مشترك عند كل الأشخاص .

استطاع سقراط وتلاميذه ، أن يمحوا لوثة الشك التى بثها السوفسطائيون فى نفوس الناس ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلغوا الفروق الواضحة فى وجهات النظر ، وأن يجحدوا أن الشىء الواحد يكون فضيلة وخيراً فى مكان ما ، ويكون رذيلة وشراً فى مكان آخر .

لم يستطيعوا أن يجحدوا ذلك ، وظلت المشكلة قائمة ونشأ عنها ما عرف بنظرية النسبية الخلقية Relativity of morality.

أصحيح ما قال بسكال[٢] : « إن ما هو حق فى هذا السفح من البرنيه ، باطل فى ذلك السفح الآخر » ؟ أيكون الشر والخير قريبين ؟

هذا ما يشغل الكثيرين من الفلاسفة المحدثين ، فى بحثهم فى نظرية القيم . هل[٣] قيم الأشياء من جمال وقبح ، وخير وشر ، وحق وباطل ، صفات عينية فى الأشياء ؟ هل لها وجود مستقل عن عقولنا ، أو هى من وضع العقل ؟

(١) محاضرات الأستاذ سلنتلانا جـ ١ ص ٢٠

(٢) B. Pascal — (Pensées — 204 P. 405) ed. L. Braunschvicg.

(٣) انظر ملخص الخصومة فى نظرية القيم فى كتاب (فلسفة المحدثين والمعاصرين للأستاذ وولف) وقد عربه الدكتور أبو العلا عفيفى .

فى البيئة الاسلامية :

ظهرت المشكلة فى البيئة الإسلامية وأخذت لوناً إسلامياً . فذهب فريق إلى مثل ما ذهبت إليه السفسطة اليونانية ، وقالوا إن مذهب كل قوم حق عندهم باطل بالقياس إلى غيرهم ، وليس شيء حقاً فى ذاته . وذهب فريق آخر إلى ألا حقائق متميزة إطلاقا ، لا فى نفسها ولا تبعاً للاعتقاد ، وقد ووجه هؤلاء وهؤلاء بخصومة منكرة ويقول الفخر الرازى فى مناقشتهم[١] : « إن الصواب ألا نشغل بالجواب عن هذه الشبه لأن ذلك يحصل غرضهم . » وكان الطريق عنده « أن يعذبوا حتى يعترفوا بالحسيات » على أن النضال ظل حاداً فى المدارس الكلامية ، وقام الجدل واشتدت الخصومة فى الأمر . ذهب فريق إلى أن ليس فى العالم شيء حسن لعينه ولا قبيح لعينه ، بل الحسن والقبح تابعان لأمر الشرع ونهيه ، فما سماه الله حسناً فهو حسن وفاعله محسن وما سماه قبيحاً فقبيح وفاعله مسيء .

وأشهر أدلتهم على ذلك :

أولا — أن الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لم يتخلفا ولم يتوقفا على شروط ، فإن ما بالذات لا يتخلف .

ثانياً — أن الله كان قبل الخلق ولا شيء معه ، فعلى أى شيء كانت صورة الحسن حسنة والقبيح قبيحة ، وليس هنالك عقل أصلا ، ولا كانت هنالك نفس عاقلة فيقبح عندها القبيح ويحسن الحسن ، فبأى شيء قام تحسين الحسن وتقبيح القبيح[٢] » .

والتمسوا شواهدهم من الواقع والحس ، وقد فصل ابن حزم رأيهم[٣] فهو يسأل . « ما مقياس الخير والشر ؟ » ثم يتصدى للاجابة فيلاحظ أن كثيراً من الأعمال اعتبرت

---

(١) محصل أفكار المتقدمين للفخر الرازى ص ٢٣
(٢) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم جـ ٣ ص ١٠٣
(٣) هذا الرأى مفصل فى الجزء الثالث من الفصل

شراً لأن الله نهى عنها ، وأن هناك أشياء تعتبر شراً حيناً وخيراً حيناً آخر . فقتل النفس فى الانتحار شر ومعصية — وفى الحرب والجهاد خير وإيمان . وكانت الصلاة إلى بيت المقدس حركة حسنة وإيماناً قبل أن يولى الرسول قبلة يرضاها ، فلما أمر بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام أصبح استقبال بيت المقدس أمر قبيحاً منكراً — وهذه تلك ، الحركة نفسها . والخمر والخنازير والحجارة المعبودة ، كانت حسنة عند العرب ، ولكن الله تعالى سماها قبائح وأرجاساً وحراماً ونجساً ، فأصبحت شروراً وخبائث . ثم يقرر ابن حزم : « فصح أن العالم ليس فى شىء حسن لعينه ، ولا شىء قبيح لعينه ، لكن ما سماه الله حسناً فهو حسن وفاعله محسن وما سماه قبيحاً فقبيح ، وفاعله مسىء . »

والغزالى فى رده على من قال بتعدد الآلهة ، أحدهما خالق الخير ، والثانى خالق الخير ، قرر : « [1] أن الشر ليس شراً لذاته ، بل هو من حيث ذاته مساو للخير ومماثل له — والقدرة على الشىء قدرة على مثله ، فإن إحراق بدن المسلم بالنار شر وإحراق بدن الكافر خير ودفع شر . والشخص واحد ، إذا تكلم بكلمة الإسلام ، انقلب الإحراق فى حقه شراً . »

ولكن المعتزلة رفضوا هذا المذهب وذهبوا إلى أن الحسن والقبح فى الأشياء والأعمال عقليان ، رداً على من قالوا إنهما شرعيان ، فجميع الأعمال الحسنة فيها نفسها صفة جعلتها حسنة وجعلتنا نحكم عليها بالحسن إذا رأيناها ، والشرع بأمره بأشياء ونهيه عن أشياء إنما يتبع فى ذلك ما فى الأشياء من حسن وقبح ، وكذلك العقل يستحسن أشياء لإدراكه ما فى الأشياء ذاتها من حسن ، ويستقبح أشياء لإدراكه ما فيها ذاتها من قبح ، فالشرع فى تحسينه وتقبيحه مخبر عنها لا مثبت لها ، والعقل مدرك لها لا منشىء

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد للامام الغزالى

وأهم أدلتهم :

أولا — أن الناس قبل ورود الشرائع ، كانت تتحاكم إلى العقل ، وتتجادل بالعقل ، وليسوا يرجعون فى ذلك إلا إلى ما فى الأشياء من حسن وقبح عقليين .

ثانياً — لو لم يكن فى الأشياء حسن وقبح عقليان ، لأفحمت الرسل حين يقول الناس : لا يجب علينا النظر فى معجزاتكم ونبوتكم إلا بالشرع ، ولا يستقر الشرع عندنا إلا بنظرنا فى نبوتكم ومعجزاتكم .

* * *

(وتسأل عن رأى أبى العلاء فى هذا الصدد فلا تجده يعرض للمسألة عرضاً مباشراً كما فعل الفلاسفة وأهل الكلام . و إنما يعالجها عن طريقة الشعراء . فهو حيناً لا ينكر الحقائق كما فعلت السوفسطائية بل يقول رداً عليهم :

وقال أناس ما لأمر حقيقة ... فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى ؟ لز٢/٢٨٠

ولكنك تلمح جنوحه إلى الاعتراف بتعذر ضبط القياس فى الخير والشر حين يقول فى اللزوميات :)

غنى زيد يكون لفقر عمرو ... وأحكام الحوادث لا يقسنه ٢/٢٥١

سقيا الغمائم بعض الإنس تفسده ... كالطرس يهلك إما مسه البلل ٢/١٧٥

وسُخط الظباء بما نالها ... تولّد منه رضى الحابل ٢/٣٤٥

و يقول فى الفصول والغايات :

تصير بُرة الغادة عقداً ، و برة الناقة فى عنقها قدا . (١٨)

رُب صَعِقٍ فى غمام منبعق ، يطردُ الجدبَ بخصب أدب ، وغريقٍ ، فى غمرٍ ينقع سالكَ الطريق . (٢٢)

٢

عالمنا الذى نعيش فيه

أخير هو أم شر ؟

لم يكن أبو العلاء أول رائد لهذا الأفق الإنسانى الواسع ، وأول متأمل فى تلك المسائل الإنسانية العامة . فالناس من قديم يواجهون متاعب الحياة ، ويختلف رأيهم فيها باختلاف حظهم من التفاؤل والتشاؤم . فمن الناس من يستقبلون الحياة ضاحكين متفائلين ، يرون كل شىء فيها حسناً طيباً . ومنهم من يرى الشر فى كل مكان ويحس الحياة الإنسانية ملأى بالمتاعب والآلام . وعلم النفس يحل هذه المشكلة ويرد الخلاف فيها إلى اختلاف الأمزجة وتفاوت حظوظ الناس من المتاعب والمسرات . ولكن المسألة تعقدت حين عرضت للبحث العقلى فى المدارس الفلسفية والكلامية ، وقام النضال بين المتفائلين والمتشائمين .

مذهب التفاؤل :

كانت مدرسة سقراط متفائلة ترى أن العالم — على ما فيه من نقص — هو خير العوالم الممكنة وحجتها فى ذلك أن الله بنى العالم من المادة التى وجدها وقد خلقه كاملا بقدر ما تسمح به هذه المادة (طيماوس — أفلاطون) .

ومدرسة الاسكندرية[1] ، كانت تذهب إلى التفاؤل ، وترى أن الشر فى عالمنا قليل جزئى . وتقرر أنه لا يقع شر جزئى فى العالم ، لا تقتضى الحكمة أن يوجد بسببه خير كلى .

(١) محاضرات سانتيلانا جـ ١ ص ١١١

وقد اعتنق[١] « ليبنتس 1716 : 1646 Leibnitz » مذهب القائلين : «إن عالمنا خير العوالم الممكنة » وفصله ودافع عنه . فهو يقرر « أن الحكمة السامية لا يمكنها إلا اختيار أصلح الأشياء » . ولكى يواجه بمذهبه شرور العالم ، كان يفرق بين الشر النظرى والشر الطبيعى . ثم يعمد أحياناً إلى نفى الشر النظرى فيضيف إليه وجوداً سلبياً محضاً ، مؤكداً « أنه شر بالقياس إلى الإنسان فحسب ، أما الأضرار الطبيعية فقد سمح الله بوجودها لأنه أدرك من قبل بحكمته السامية أن عالمنا — مع ما فيه من شر — خير من أى عالم ممكن ، فليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

وقد ووجه المتفائلون بشرور العالم ، فراحوا يلتمسون علة طيبة لها ، قال بعضهم : « إن[٢] الشر يزيد قيمة الخير و بضدها تتميز الأشياء » . وقال آخرون[٣] : « إن الشر الطبيعى physique هو الذى أبرز جهود العقل الإنسانى ، وجعل تاريخ البشرية رائعاً ، والعقبات هى أم الاختراع ، بينما الحياة السهلة ذات المتاعب القليلة ، تجعل الإنسان خامل الجسم والعقل ، تافه الشخصية » .

✲✲✲

(وراج مذهب التفاؤل فى العالم الإسلامى ، ومن القائلين به ابن رشد) الذى ذهب إلى أن « [٤]العالم قد بنى بترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه .... (صنع الله الذى أتقن كل شىء) » .

وذهبت إليه كذلك المدرسة[٥] الصوفية ، فقررت أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . وقد فصل هذا المذهب الإمام الغزالى .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة ليبنتز

(٢) و (٣) دائرة معارف الأخلاق والأديان مادة « الخير والشر »

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٨٧

(٥) محاضرات سانتيلانا جـ ١ ص ١٠٩

وذهبت المعتزلة إلى القول بالأصلح ، فقالت :[1] « ليس عند الله تعالى شيء أصلح مما أعطاه الناس ، ولا يجوز أن يترك الله تعالى شيئاً يقدر عليه من الصلاح . ولو كان عنده تعالى أصلح وأفضل مما فعل ومنعه ، لكان بخيلا ظالماً » .

وهذه الأقوال — على اختلاف مناهج البحث فيها فى المدرسة الصوفية والمدرسة الكلامية — تنتهى إلى أن الشر الموجود فى العالم شر جزئى لا بد منه ، وأن العالم — على حاله التى نراها — هو أفضل العوالم الممكنة .

مذهب التشاؤم :

ولكن أقوال المتفائلين وتأولاتهم ، لقيت خصومة منكرة أثارها المتشائمون ، والتشاؤم قديم فالبوذية كانت ترى أن الوجود نفسه شر ، وأن الحياة تعنى الحزن . والمهرب الوحيد من أحزانها هو الفرار من الحياة ، وذلك أمر مستطاع حين نسحب من الدنيا ، ونقهر الرغبة فى الحياة . وكانت البوذية تعترف بالخير ، ولكن بمعنى سلبى فهو عندها : ألاّ ترغب ، ولا تتمتع .

والتشاؤم الغربى أو الحديث ، يعرضه «شو بنهاور Schopēnhaur 1788-1860» « وكان[2] تلميذاً لفيلسوف شرقى ، فمذهبه متأثر — إن لم يكن مستعاراً — من البوذية مع خلاف فى الألفاظ ، ففى البوذية « قانون خالق Karma » ولكن عند شو بنهاور نجد الإرادة The Will » .

يرى شو بنهاور أن الإرادة التى خلقت هذا العالم عمياء جهول ، إذ خلقت هذه الدنيا الملأى بالمتاعب والشرور والأحزان . وإذا كان الخلق والحياة ، كما نعرفهما ،

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٦٤

(٢) دائرة معارف الأخلاق والأديان مادة الخير والشر

من عمل خالق مدرك ، فلا بد أنه شرير آثم ، لم يجد رياضة أفضل من هـذه الدنيا التعسة البائسة » .

ومثـله « جون ستيوارت مِل » J.S. Mill الذى رصد متاعب الإنسانيـة وأحزانها وأمانيها المحطمة وسجلها تسجيلاً مؤثراً[١] . « فالطبيعة تنصب الفخاخ للناس ، ولديها المئات من الميتات المختفية الاحتياطية ، وهى تفعل ذلك فى قسوة و بلا اكتراث »

وفولتير[٢] ، على طريقته التهكمية الساخرة اللاذعة ، يحشد فى قصته « كانديد » ألواناً من الشقاء الإنسانى ، و يعرض آلام الإنسانية ومتاعبها ، عرضاً مؤثراً ، فيه سخرية مرة بمن يزعمون أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وهؤلاء المتشائمون ، يرون أن نظرية التفاؤل ، هى سخرية مؤلمة قاسية بمتاعب الإنسانية وآلامها .

* * *

مثل هذا النضال ، عُرف — على صورةٍ ما — فى المدارس الإسلامية ، بين المعتزلة أصحاب القول بالأصلح ، و بين خصومهم ، وقد لجأ الأولون إلى التأويل ومضوا يلتمسون غاية طيبة لـكل ما يبدو لنا شراً . ولـكن خصومهم واجهوهم بالشرور التى تملأ العالم ، والمتاعب التى تصيب الإنسانية ، والمحن التى تصب عليها ، وأرهقوهم[٣] بالسؤال عما وراء ذلك من خير ، وسوف ترى هـذا النضال فى الحديث عن حكمة خلق الشر .

أبو العلاء يرصد شرور العالم :

الآن نقف لنسمع رأى أبى العلاء فى عالمنا الذى نعيش فيه .

---

(١) J. S. Mill — Essay on Nature

(٢) Voltaire — Candide

(٣) الجزء الثالث من الفصل فى الملل والنحل لابن حزم .

واضح أن أبا العلاء كان متشائماً يرى الـكون حافلاً بألوان الشر والأذى ، وقد فصلنا فى المقالة الثالثة كيف كانت حياته العملية ، ومزاجه العقلى ، وظروف زمانه ومكانه ، تأبى عليه أن يريح نفسه ، فيزعم الشر خيراً ، أو يطمئن إلى أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان (بل كان مغرقاً فى التشاؤم ، دقيق الحس لما فى الـكون من شر وأذى ، صادق الحزن لما يصيب المخلوقات من ألم وضر)

وقد سمعنا أبا العلاء فى المقالة الثالثة يتحدث عن متاعبه الخاصة ، ويتحدث عن سوء الحياة فى زمانه ومكانه . والآن نسمعه يتحدث عن متاعب الحياة الإنسانية . قال فى سقط الزند :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده
أرى ذوى الفضل وأضدادهم يجمعهم سيلك ، فى مده ٥/٢

وقال فى اللزوميات :

مهلاً أمن وبأ قررت وهل ترى فى الدهر إلا منزلاً موبوءاً ؟ ٦٢/١

ما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خيابها ١٤٣/١

أرى دنياك خالطها قذاها وأعيت أن يهذبها مصفى ١٠٨/٢

وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن فى العالم البشرى إلا بائس ٢٠/٢

أما إساءتها فقد كانت ، وحسنها وعود ٣٠٦/١

فى كل أرض صروف غير هازلة يلعبن بالناس أفراداً وأزواجا ٢١٣/١
ومن لم تبيته الخطوب فإنه سيصبحه من حادث الدهر صائح ٢٤٤/١

ضحك الدهر فى محياك مكر ماله غير أن يسوءك فكر ! ٣٤٥/١

وما فى الأرض من أحـد غنى ولـكن كلنـا فقراء عاله ٢/٢٠٠

تباركت[1] يا رب العلا أنت صغتها فليتك فى أرزائهـا لم تبـارك ! ٢/١٥٨

وقال فى الفصول والغايات :

كل الدنيا مكاره إلا ما شاء الله . (١٥٤)

والدهر يلعب بنـا حالا بعد حال . (٢٩١)

إن المرء السيد ، ربما أذلته النكبات حتى يحسبه اللبيب أحد ضعاف العامة (٣١٨، ٤٣٠)

صروف الأيام تريك الجدى على الثدى ، وذا الأمور يخدم المأمور ، والعربية تنصف السبية ، والصقر يسأل الدخناء معونته على الفقر ، والظباء تصاول قروما . (٤٧٣)

الزمان لا يجوز عنه الضمان ، إنمـا يضمن ما يعرف ويؤمن . (٤٤٩)

كفاك من حوادث الدهر ، أن ولد الغنى يفتقر ، وأن ابن الفارس يرجل فيحضر ، وتدعى الوشائظ صميا . (٤٣٠)

الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر . (٤٧)

إن داء الدنيا عرف قديماً ، والحياة كثيرة الصاب . (٣٢٤)

والدنيا دار حسرات . (١٠٥) ودار شقاء (١٦٠)

ألم تر ناراً بالأمس متأججة ، ومررت بها اليوم هابية كأنها لم تغذ ضراماً ؟ . . الدنيا كالمنام ، أجدر بالهم فيها أن يكون فرحا بعدها .

(ما أقل العالم وأقلنى فيه !) (١٢٢)

أحسنوا أملاءكم جماعة الملأ ، فسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ، ولو هجم لهبها على النجوم ، وتخف بكم النوب ولو أنكم الجبال حلوما !

والدنيـا غير وافية ، ليست الحيـاة فيها بصافية ، إن الـكدر لـكأس العيش مزاج . (٤٣٦)

---

(١) انظر اللزوميات ج ١ ص ١١٣ — ٤٨ — ١٧٥ ٦٨ ج ٢ ص ١٤ — ٢٠٠ — ٢٣٦

(ولكل خير بالشر انتساخ (٢٩٤، ٤٧٠)

(ما البقاء إلا طول شقاء ، والحياة ظلمة ليس فيها إياة ، ومن السعادة أن يموت القوم كراما .) (٤٤٣)

٣

من خاق الشر

لم يقف أبو العلاء فى تأملاته عند رصد شرور الدنيا ، بل مضى متأملا يبحث وراء هذه الظواهر عن خلق الشر وتعليل خلقه ، ويلقى آراءه على طريقة الشعراء .

وخلق الشر مشكلة ذات أهمية وخطر ، وأهميتها تأتى من اتصالها الوثيق بالإرادة الإلهية ومدى خيريتها وشمولها .

من خلق الشر ؟

مسألة حيرت النـاس من قديم ، وبدت فيها حلول تنحدر من أصل واحد هو تعظيم الله .

وكان أسبق هذه الحلول ظهوراً ، فكرتين :

١ — ظهرت أولاهما عند الفرس القدماء ، وكانت تتجه إلى تعظيم الله بتنزيهه عن خلق الشر ، وإنمـا يخلق الشرّ خالقٌ غيره . وهو مذهب الثنوية الذى راج فى فارس والهند .

عرف هـذا المذهب فى عهد مبكر ، وكان ديناً شعبياً اعتنقه الفرس من غير أن يعنوا بتحليله وتعليله ، إنمـا كان شعوراً ساذجا بأن للخير والشر مصدرين . فلما ظهرت الفلسفة أخذ الفرس يدافعون عن الثنوية ويجادلون بالحجة والبرهان . أحالوا

أن يكون خالق الخير هو خالق الشر ، وأحالوا أن يوجد الشر فى الدنيا من غير أن يخلقه خالق ، فذهبوا إلى الثنوية ؛ جعلوا للخير إلهاً وللشر إلهاً .

قالوا [١] : « وجدنا الحكيم لا يفعل الشر ، ولا يخلق خلقا ثم يسلط عليه غيره ، ووجدنا العالم كله ينقسم إلى قسمين ، كل قسم منهما ضد الآخر ، كالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والحياة والموت ، فعلمنا أن الحكيم لا يفعل إلا الخير وما يليق فعله به ، وعلمنا أن الشرور لها فاعل غيره ، وهو شر مثلها » . وقالوا [٢] : « من خلق خلقاً ، ثم خلق من يضل ذلك الخلق فهو ظالم عابث ، ومن خلق خلقاً ، ثم سلط بعضهم على بعض ، وأغرى بين طبائع خلقه ، فهو ظالم عابث ، فعلمنا أن خالق الشر وفاعله غير خالق الخير » .

٢ — الفكرة الثانية اتجهت إلى تعظيم الله بتعميم الإرادة الإلهية فى كل الأمور خيرها وشرها ، فهو تعالى خالق الخير والشر . وقد ظهرت هذه الفكرة عند اليونان ، وكانت هى الشائعة فى الميثولوجيا القديمة ، فلما جاءت الفلسفة أيدتها فى الأطوار الأولى ، وظلت غالبة عند الفلاسفة الإغريق حتى جاءت المدرسة الذرية الأولى ، فحاولت أن تهدمها ، وترد أمور الخير والشر إلى حركات الذرات فى الفضاء ، ولكن فكرة التعميم استردت قوتها فى الدور السقراطى (القرن الرابع قبل الميلاد) وظلت غالبة على اليونان ، حتى ظهرت مدرسة أبيقور تحاربها فى قوة وعنف وترد كل الظواهر الكونية إلى القوانين الطبيعية .

٣ — هنا ظهر حل ثالث فى مشكلة خلق الشر ، وهو يتجه إلى تعظيم الآلهة بتنزيهها عن التدخل فى أمور دنيانا خيرها وشرها ، ويرد الأمور والظواهر الكونية

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٣٧
(٢) » » » » » ج ١ ص ٣٨

كلها إلى قوانين الطبيعة وهذه هى فكرة الأباقرة . قالوا[١] : « إن الآلهة يعيشون بعيداً عن العالم فى سلام وأمن وسعادة خالدة ، لا يزعجهم التفكير فينا ، ولا ترهقهم هموم دنيانا ، ولا تنفعل طبيعتهم الإلهية بغضب أو رضا ، لأن هذه العواطف ألوان من الضعف الإنسانى ومظاهر للطبيعة البشرية ، وليس يجوز فى حقهم أن نزعم أنهم يخلقون خيراً أو شراً ، أو نضيف إليهم عواطف السخط والغضب والرضا ، فنقول إنهم يرضون عنا حينا فتستقيم أمورنا وتكثر خيراتنا ، ويغضبون أحياناً فيثور بهم الحقد والسخط ويصبون على خلقهم ألواناً من الشر والعذاب ، حقداً عليهم وانتقاماً منهم » « إن[٢] الآلهة متمتعة بالحياة الخالدة فى سلام تام ، بعيدين عن مشاغل دنيانا ، برآء من الخطر والأحزان ، وليسوا فى حاجة أبداً إلى أى شىء منا . لسنا نكسبهم بفضيلتنا ، ولسنا نثير سخطهم بأخطائنا . إنما الخير والشر وأمور الكون كلها خاضعة لنظام آلى ، لا دخل لإرادة خارجية فيه ، ومن الخرافة الزائفة التى أرهقت الإنسانية ، الظن بأن الظواهر الكونية من عمل الآلهة ، أو أن الدنيا محكومة بإرادتهم » .

وقصيدة لوكريس (طبيعة الأشياء) تفصل مذهب المدرسة أجمل تفصيل .

فى البيئة الاسلامية :

وفى البيئة الإسلامية ، عرفت المذاهب الثلاثة ، ولكنها ملونة بالصبغة الإسلامية

١ — فأما مذهب أبيقور فيظهر[٣] فى مذهب الطبيعيين من الأشاعرة ، وجم غفير من الملاحدة الذين أنكروا البارى ووحدة الوجود .

وقال به بعض المعتزلة — وفيهم الجاحظ — حين أنكروا أن يخلق الله الشر

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية مادة أبيقور .

(٢) Zeller—(Outlines of the History of Greek Phylos. P.-237—squ)

(٣) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١٨ وفى عبارته غموض .

وذهبوا إلى أن « الآلام والأمراض من فعل الطبيعة . » وقامت الخصومة بينهم وبين جمهرة المسلمين ، وإليك مثلا من الجدل الإسلامى فى تلك المسألة : « سئلوا[١] هل الله قادر على معارضة هذه الطبيعة المعذبة للطفل ، بقوة من عنده تعالى ، أو هو غير قادر ؟ فإن قالوا ، هو غير قادر ، فما فى العالم أعجز ممن تغلبه طبيعة هو خلقها وطبعها ووضعها فيمن هى فيه ، وربما غلبها طبيب ضعيف من خلقه ، بعقار ضعيف من خلقه . وإن قالوا هو قادر على صرف الطبيعة ، ولكنه لم يفعل ، أقروا على ربهم بالظلم والعبث ، وبالضرورة ندرى أن من رأى طفلا فى نار أو ماء ، وهو قادر على استنقاذه بلا مؤنة ولم يفعل ، فهو ظالم عابث » .

٢ — ومذهب الثنوية ، عرض فى ثوب إسلامى على أيدى المعتزلة ، فهى لا تقول بالثنوية ، ولكنها تلتقى معها فى القول بأن الله لا يفعل الشر .

أنكر المعتزلة[٢] أن يقال إن الله يفعل شراً ، لأنه تعالى لا يريد إلا مصلحة خلقه ، ونزهوا الله تعالى عن أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، وكان منهم من يقول[٣] : « إن الله تعالى لم يفعل شراً بوجه من الوجوه ، وإذا قلتم إن الله فعل فعلا هو شر على وجه من الوجوه ، فما أنكرتم أن يكون شريراً . »

ودليلهم النقلى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » — « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً » .

٣ — وفكرة التعميم : قال بها أهل السنة وأصحاب الحديث وأكثر الخوارج . إذ

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٢٠
(٢) الملل والنحل للشهرستانى (على هامش ابن حزم) ج ٢ ص ٥٥٠
(٣) مقالات الإسلاميين للأشعرى ج ٢ ص ٥٣٧

يمتنع عندهم أن يقع فى ملكه تعالى ما لا يريد . ودليلهم النقلى : « ما أصابكم من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير »

رأى أبى العلاء

هذه هى خلاصة الآراء فى خلق الشر ، فأين يقع رأى أبى العلاء منها ؟ . كان يذهب مذهب القائلين بشمول إرادة الله فهو تعالى خالق الخير والشر .

مِن وَسخ صاغ الفتى ربُّه فلا يقولنّ توسختُ لز/١٧٣/١

تروم تهذيبَ هذا الخلق من دنس والله ما شاء للأقوام تهذيبا ١١٠/١

والله يقدر أن يفنى بريته من غير سقم ولكنْ جُنده العلل ١٨٤/٢

تباركتَ يا رب العلا أنت صغتها فليتك فى أرزائها لم تبارك ١٥٨/٢

وقال فى الفصول والغايات :

أنعم ربنا كل حين ، وجاء فعله بالبرحين (الدواهى) . (١١)

غفرانك ربنا القديم ، خلقت الخير إلى جنب الضير . (٢٢)

خضعت قحطان لك ومعد ، وجرى بقدَرِك النحس والسعد . (٢٩)

أنا إلى رحمتك فقير ، ومن الغنىّ عنك ؟ ينبغى أن يدعى ذلك من يقدر أن ينفع ويضر ، ولا يقدر على المنفعة والضرر سواك . (٣١)

مؤتى الملكِ مُلكَه ، قاصرُ الصعلوكِ على عَدمه ، وكاسى الجميلِ حلةَ الجمال ، هو سالبها القبيحَ ، فبيد الله العطيةُ والحرمان . (٣٩)

والرزق بيد الله من أراد حَرم ، ومن أراد أكرم . (٣٣٢)

والله خالق السهد والرقاد (٤٩٤) . وبإذن الله سالت الدماء . (٢٧٥)

إن الزعيم بالشقاء والنعيم ، حكم ألا يخلد سواه حكيم . (٢٩٤)

وربك يولد ويعقم ، ويعز من يشاء ويقم (٣١٣)
فهو خالق النفع والضر (٣٥٣) وكلٌ بقدر الله كان . (٢٩٦)

وأملى أبو العلاء فى رسالته الأولى إلى داعى الدعاة « يقول قائل : (الله لا يفعل إلا خيراً) أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ فإن قيل إنها صادقة رأينا الشرور غوالب وقد روى أن النبى (صلعم) كان إذا أراد السفر قال : « اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد » . أفهذه الأشياء التى تعوذ منها خيرات أم شرور ؟ فإن قال قائل هى مخوفة منكرة ، فقد أبطل القضية المتقدمة . وإن قال القضية منعكسة ، فقد لزمه أن يقول : إن الله سبحانه يفعل الخير والشر . فإن أبى ذلك ، رجع إلى ما يقوله المجوس من أن للعالم خالقين ، أحدهما يزدان وهو فاعل الخير ، والآخر أهرمز وهو فاعل الشر ، ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة »(١)

ثم قال أبو العلاء فى مكان آخر من هذه الرسالة : « وللسائل أن يقول : إن كان الخير لا يريد ربنا عزت قدرته سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، وإما أن يكون غير عالم به ، ونعوذ بالله من هذه المقالة .

« فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون مريداً له أو غير مريد ، فإن كان مريداً فكأنه الفاعل ، كما أن القائل يقول : قطع الأمير يد السارق ، فالأمير قطعها إلا أنه لم يل ذلك بنفسه . وإن كان غير مريد له ، فقد جاز عليه ما لا يجوز مثله على أمير ، له فى الأرض نظراء كثير . لأنه إذا فُعل فى ولايته شىء لا يرضاه ، نكره أشد النكير » .

وهذا المعنى هو الذى نظمه أبو العلاء فى اللزوميات فقال :

إذا قيل غال الدهر شيئاً فإنما يراد إلهُ الدهر ، والدهر خادم ٣٦١/١

☆ ☆ ☆

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١ ص ١٩٧ — ٢٠١

(فأنت ترى أن أبا العلاء أنكر قول المعتزلة فى نفى فعل الشر عن الله ، ورأى فيه شبها بالثنوية المجوسية ، التى يستعذ بالله منها)

ورأيه صريح فى أنه تعالى خالق للخير والشر ، عالم بهما ، مريد لهما .

٤

تعليل خلق الشر

والبحث فى خلق الشر ، جر إلى مشكلة من أعقد المشكلات ، فقد اقتضى البحث فى تعليل خلق الشر ، وأخذت المسألة وضعاً خطيراً هو :

(إذا كان الله قد أراد الشر ، فكيف اتجهت إرادته إلى الشر ، وهو — تعالى — خير محض ؟)

و إن لم يكن الله قد أراد الشر ، فكيف وقع فى ملكه ما لم يرده ، وهو المريد المختار ؟

والوضع الأول يضيف إرادة الشر إلى الله و يهتم بالتماس علة لذلك .

والوضع الثانى يحد من قدرة الله ، ويجعل فى الدنيا ما ليس من خلقه .

مشكلة قديمة

هذه المشكلة شغلت اليونان والعرب ، ولا تزال تشغل الفلاسفة المحدثين . على أن المسألة أقدم من هؤلاء جميعاً : لقد حيرت إبليس نفسه عند بدء الخليقة — فيما يروون — وقد أورد « الشهرستانى » فى مقدمة كتابه الملل والنحل ، قصة تلك المناظرة التى قيل إنها قامت بين إبليس والملائكة ، و يعدها الشهرستانى أول شبهة وقعت فى الخليقة .

قال(١) إبليس ، كما نقل عنه :

إنى سلمت أن البارى تعالى إلهى و إله الخلق ، عالم قادر ، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته ، فإنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون . وهو حكيم ، إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة . قالت الملائكة : ما هى ؟ وكم هى ؟ فمضى اللعين يسأل : « إنه علم قبل خلق ، أى شىء يصدر عنى و يحصل منى ، فلم خلقنى ؟ وما الحكمة فى خلقه إياى ؟ و إذ قد فعل ، فلم طرقنى إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانياً وغررته بوسوستى ، فأكل من الشجرة المنهى عنها وأخرجه من الجنة معى ؟ وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو منعنى من دخول الجنة ، لاستراح منى آدم ؟ و إذ فعل وكانت الخصومة بينى و بين آدم ، فلم سلطنى على أولاده حتى أراهم من حيث لا يروننى ، وتؤثر فيهم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم ، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يختالهم عنها فيعيشون طاهرين سامعين مطيعين ؟ و إذ قد فعل ، فلم إذ استمهلته أمهلنى . فقلت أنظرنى إلى يوم يبعثون « قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » . وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو أهلكنى فى الحال ، استراح آدم والخلق منى وما بقى شر ما فى العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير ، خيراً من امتزاجه بالشر . ؟ » .

قيل(٢) فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام ، فقالوا له : « إنك فى تسليمك الأول أنى إلهك و إله الخلق ، غير صادق ولا مخلص ، إذ لو صدقت أنى إله العالمين ، ما احتكمت على بلم : فأنا الله الذى لا أسأل عما أفعل والخلق مسئولون . »

فى البيئة اليونانية :

بدأت الخصومة فى البيئة اليونانية بين الطبيعيين وخصومهم. الأولون يصرون على نفى تدخل الآلهة ، ويردون الأمر إلى قوانين الطبيعة ، ويخضعون الظواهر الكونية

(١) الملل والنحل للشهرستانى — على هامش الفصل لابن حزم — ج ١ ص ٩ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣

لنظام آلى لا دخل لإرادة خارجة فيه . ولكن أنصار شمول القدرة الإلهية يخاصمونهم ويصرون على شمول القدرة ويردون إليها كل ظواهر الكون خيرها وشرها . أخذ الطبيعيون يهاجمون خصومهم فى عنف فيسألونهم ساخرين(١) : « ما بال آلهتكم تخلق العالم ثم تصب الويلات على ما تخلق ؟ ما بالها تلهو بسهامها فتخطىء الأشرار وتصيب الكرام ؟ ما بالها تسخط على العالم ، فتهدم ما بنته بنفسها ؟ ما بالها ترسل شواظ غضبها صواعق مدمرة وزلازل هدامة وبراكين ثائرة ، فتصيب حممها المعابد ، وكان جديراً بها أن تحمى هذه المعابد لأنها بيوتها ؟ »

إلا أن مدرسة سقراط ومن تبعها من القائلين بتدخل الآلهة لم تسكت عند إضافة خلق الشر إلى الآلهة ، وإنما أعلنت إيمانها بأن الله خيّر حكيم . ومضت تلتمس عللاً ترد إليها وجود الشر فى العالم .

واختلفوا فى التعليل :

١ — فذهب أفلاطون ومن تبعه إلى أن الله بنى العالم من المادة التى وجدها — وقد خلقه كاملاً بقدر ما تسمح له هذه المادة . فالنقص راجع إلى المادة وليس إلى الصانع .

ويشبهه(٢) قول أرسطو فى قدم المادة وله أنصار محدثون ، وخلاصة رأيهم أن الأرواح غير مخلوقة وإنما هى قديمة أبدية ، والله يجاهد فى تخليصها من الشر ، وهو على أى حال غير مسئول عن هذا الشر من قريب أو بعيد .

٢ — وذهب فريق إلى التأويل ، فراحوا يلتمسون علة طيبة يردون إليها كل ما يظهر لنا شراً ، وهم فى تأويلهم خاضعون لفكرة المنفعة الإنسانية ، فالله لا يخلق شراً إلا ويقصد به منفعة عامة لبنى الإنسان .

---

(١) Lucretius — The Nature of things — Book II

(٢) دائرة معارف الأخلاق والأديان (مادة الخير والشر)

وأظهر تأويلاتهم أن الحكمة الإلهية تبيح وجود الشر — لا لذات الشر — وإنما لأجل خير يقترن به . فمدرسة الإسكندرية تعلل خلق الشر بأنه يسبب خيراً كلياً «(١) ولا يقع شر جزئى فى العالم لا تقتضى الحكمة أن يوجد بسببه خير كلى . » فليس من الحكمة مثلا ترك المطر الذى به حياة العالم ، لئلا تنهدم به دور معدودة ، أو يتألم به سائح فى البر والبحر . وقد اعتنق هذا المذهب ليبنيتس فقرر : « أن(٢) الله لم يرد الشرور . وإنما سمح بوجودها ، وهو قد سمح بذلك لأنه أدرك من قبل أن هذا العالم مع ما فيه من شر ، خير على أى حال من أى عالم ممكن . »

٣ — وظهرت محاولة ثالثة فى تعليل خلق الشر ، وهو أن الخير والشر يختلفان بالإضافة إلى الله عنهما بالإضافة إلينا . ومن الذين قالوا بهذا فى صور مختلفة : برادلى(٣) وتايلور(٤) . وقد صار هذا ، أسلوب المحدثين من رواد هذه الآفاق العليا . وخلاصة الرأى أن هذه الأوضاع يقتصر تطبيقها على البشر ولا تجوز على الله . فنحن وضعناها فى حدود بشريتنا ، وهناك أفعال وظواهر ، تبدو لنا شراً ، ولكن لا يبعد أن تكون خيراً كاملا ، لأن النظر الإلهى للخير والشر ، يختلف عن مقاييسنا وضوابطنا .

فى البيئة الإسلامية :

أخذ تعليل خلق الشر فى البيئة الإسلامية ، شكل جدال عنيف بين المعتزلة الذين نفوا فعل الشر عن الله ، و بين خصومهم . وكان الدين عنصراً أساسياً فى ذلك النضال .

كان المعتزلة يقولون بالأصلح ، و يصرون على أن الله لا يخلق شراً ، فهو لم يخلق عباده إلا لينفعهم . فكان على المعتزلة إذ قالوا ذلك ، أن يعللوا وجود الشر فى العالم

(١) محاضرات سانتيلانا جـ ١ ص ١٢١

(٢) دائرة المعارف الانجليزية مادة — ليبنيتس

(٣) F. H. Bradly — Appearance & Reality — London 1897

(٤) A. M. Taylor — Problem of Conduct — London 1901

وأن يجيبوا عن سؤال خصومهم : (إن كان الله لا يريد الشر ، فكيف يوجد فى ملكه ما لا يريد ؟) . ولم يكن موقف خصومهم أسهل من موقفهم . فقد كان عليهم — إذ قالوا إن الله فاعل الخير والشر — أن يجيبوا عن سؤال المعتزلة : (وكيف تتجه إرادته تعالى إلى الشر ؟ إنكم إذاً ما أنكرتم أن يكون شريراً) .

أما المعتزلة فاستعانوا على النضال بالتأويل . سئلوا[1] : من خلق الكفر والمعصية؟ قالوا : خلقها العباد . قيل: وما الرأى فى جهنم، أو خلقها العباد ؟ قالوا: لسنا نقول إنها شر ؟ فقد أخافت كثيرين فصلحت أعمالهم .

قيل: والحيات والعقارب والهوام ، أتستقيم مع قولكم بالأصلح ؟ . قالوا: لعلها تحشر يوم القيامة فتكون عذاباً على أهل جهنم من الكافرين والفجار من غير أن ينالها من ألم جهنم شىء ، كما لا ينال خزنة جهنم .

***

أما خصومهم ، فرأوا فى نفى خلق الشر عن الله تحديداً لإرادته تعالى ، ولكن كان على هؤلاء أن يعللوا وجود الشر فى العالم .

١ — قال فريق منهم: «[2] إن الشر خلقه الله فيجب أن ينسب إليه ، كما ينسب إليه خلق الخير . لكن ليس ينبغى أن يفهم هذا على الإطلاق ، وإنما على أنه تعالى خالق الخير لذات الخير ، وخالق الشر لأجل ما يقترن به من الخير » .

٢ — وقالت[3] الصوفية : إن وجود الشر فى العالم كان ضرورة لابد منها لكى

---

(١) هذا النضال مفصل فى (مقالات الإسلاميين للأشعرى) وفى (الفصل لابن حزم)
(٢) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١١٦
(٣) محاضرات الأستاذ سانتلانا جـ ١ ص ١٠٩ — ويعلق أستاذنا الجليل أمين الخولى على هذا قائلا : « لعل هذا فى أصله ليس قول الصوفية ، بل هو قول الأفلاطونية الحديثة تأثرت به الصوفية . والنزعة الفلسفية بادية فى شرح الفكرة — ١ هـ . انظر قول مدرسة الإسكندرية ، وقد نقلناه فى ص ١١٢ .

يوجد العالم ، فهو شر أجيز ليكون منه خير عام . فإذا قيل : ولم أوجدت العلة الأولى هذا العالم إذا كان لا بد فيه من عدم الكمال والشر ، قلنا إنه لما كان من المستحيل أن يوجد الإله عالماً يساويه فى الكمال ، فلا يخلو الأمر من حالين . إما أن لا يوجد العالم رأساً ، وإما أن يوجد على ما هو عليه من مداخلة الشر فيه . وظاهر أن وجود العالم أولى من عدم وجوده .

٣ — وفريق أنكروا على خصومهم ذلك المنطق الإنسانى الذى يزعم أن خلق الله للشر يقتضى أن يسمى شريراً . قالوا[١] : « لقد وافقونا على أن الله خلق الخمر ولا يسمى خماراً ، وبنى السماء والأرض ولا يسمى بناء ، وسقانا الغيث ولا يسمى سقاء ولا ساقياً ، وخلق إبليس ومردة الشياطين ولا يسمى خبيثاً ، فأى فرق بين هذا وبين أن يخلق الشر ولا يسمى شريراً ؟ » .

هم إذاً يرفضون أن يسمى الله شريراً لأنه خلق الشر ، وكان عليهم بعد ذلك أن يعللوا خلق الله للشر ، فاتكئوا على أصل لهم ثبتوا عنده ، ذلك هو أن الله لا يُحكم عليه تعالى بالحكم الجارى على خلقه . ولا يجوز أن نقيس أفعاله بالمقاييس التى وضعتها عقولنا ، فإن[٢] فى هذا تشبيها مجرداً لله تعالى بخلقه : « ثم كيف[٣] يجوز الحكم عليه بقوانيننا وقد كان تعالى وحده ولا شىء موجود معه قبل الخلق ؟ ترى فى أى شىء كانت صورة الخير خيراً وصورة الشر شراً ، حين لم يكن هناك عقل أصلا ولا كانت هناك نفس عاقلة أو غير عاقلة ، فيقبح عندها القبيح ويحسن الحسن ؟ فبأى شىء قام تحسين الحسن وتقبيح القبيح ؟ بطل إذاً أن تكون أفعال الله جارية على أحكام المربوبين ، وأن نطرد القوانين التى صنعتها عقولنا — وهى محدثة — فى أفعال الله وهو تعالى لا يجوز عليه الحدوث » .

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٧٣
(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ / ٩٨
(٣) « « ص ١٠٣

أبو العلاء يرد الأمر إلى مشيئة الله :

وأبو العلاء كما رأيت خاصم المعتزلة فى قولهم : إن الله لا يخلق شراً . وصرح بأنه تعالى خالق الخير والشر . ولما عرض لتعليل خلق الشر ، لم يستطع أن يتأول الشر خيراً ، وإنما ذهب مع القائلين بأن الله لا يحكم عليه ، بما يحكم علينا به . وأنه تعالى خلق الشر لأنه أراد ذلك ، ونحن نجهل الحكمة فيه لأننا لا نملك إلا مقاييسنا الإنسانية التى صنعتها عقولنا المحدثة .

رأى أبو العلاء فى عالمنا ألواناً من الشر عجز عن تأويلها ، ووقف أمامها حائراً يجهل الحكمة فى خلقها .

قال فى اللزوميات :

والله يقــدر أن يفنى بريته   من غير سقم ، ولكن جنده العلل ١٧٤/٢

لبيب القــوم تألقه الرزايا   ويأمر بالرشاد فلا يطــاع
فـلا تأمل من الدنيا صلاحاً   فذاك هو الذى لا يستطــاع ٨٤/٢

والله إذ خلق المعادن عالم   أن الحداد البيض منها تجعل
سفك الدماء بها رجال أعصبوا   بالخيل تلجم بالحديد وتنعل ١٨١/٢

وقد يرزق المجدود أقوات أمة   ويحرم قوتاً واحد وهو أحوج ٢٠٤/١

وما زالت الأقدار تترك ذا النهى   عديماً ، وتعطى منية النفس غمرها ٣٥٦/٢

والله ما اختار البقاء وطوله   إلا لشر عباده إبليســا ٢٤/١

وقال فى الفصول والغايات :

رب فار من إبرة ذات الفقار ، أتيح له ناب الصل ٣٦٥

(لص قاطع طريق) ، فرع مناكب جبل يرقب وراد الماء — والله بمكانه عليم — فمرت رفقة من التجر فى أعقابهم طالب رزق يقوم الليل ويصوم النهار ، فوثب الداعر فضرب عنق جارمة عيال ، فما تطعم عيونهم من حثاث . ١٧١

رُبَّ نخيل جعلتَها (يارب) فى مُلك بخيل ، الفقيرُ عنده حقير ، لو قدر لمنع الصعو (العصفور) من نقر المعو (الرطب) ، والهاتفَ ذا الشغف من الوقوف بالسعف ، وصان الجريدَ صيانةَ الخودِ الخريد . يَطعم ولا يُطعم ، ويَنعم وهو غير مُنعم . إن كرَمك لعظيم (٢٠)

رُبَّ هَجمةٍ وهبتَها لذى نفس وجمة ، مخلبُه دون محلبه ، وأبنه تمنع من لَبنه (٢٠)

رب لا تجعلنى راب عُروج ، جعلها الوسمى كالبروج ، خُلُقه نابٍ أن يحمل على الناب ، ورزقك ربَّنا عليه مدرار . (٢٣)

بإذن الله تصول الضُبعان ، وبقدرته أقبل المدُّ بعد الأمد ، يحمل ذوات الربد بين الغثاء والزبد ، كل حاملة سمٍ مؤبد . (٢٣٦)

الفاضلُ مُوجَّب ، والفاجرُ منتخب . (٤)

ما أكثر ما تلقى الفاضل عديماً ! (٤٣٠)

واللهُ أرسل المِحنَ أجوراً للمتعبدين (١٧٥)

***

(ما حكمة خلق الشر؟) سؤال حير أبا العلاء وأرهقه . كان يتأمل فيرى الكون حافلا بألوان من الشر والأذى . وهو يؤمن بأن الله أراد هذه الشرور . إذ يمتنع فى حقه تعالى أن يقع فى ملكه ما لا يريد ، ولكن لم أراد الله الشر !

لم يخلق الخلق ثم يسلط بعضه على بعض ، وإنه لقادر على أن ينقذ القوى من الضعيف ؟

لم يبتلى بريته بالعلل والأسقام وإنه لقادر على أن يفنيهم من غير سقم ولا تعذيب ؟ .

لم خلق الشياطين واختار لها طول البقاء ، وإنه لقادر على أن يرحم عباده فيفنى إبليس وشيعته ؟ .

لم خلق فى الإنسان طبائع شريرة تقهره وتغلبه على أمره ، وإنه لقادر على أن يهدى عباده ويجعل رغبتهم زهداً وضلالهم هدى ؟

لم تُصب المحن على الصالحين ويدركهم الموت ، وكانوا أولى من إبليس بالبقاء الطويل ؟ .

لم يسوق الله الرزق مدراراً للأشرار البخلاء ، ويحرمه الأخيار ، وإنه لقادر على أن يجعل الغنى للكريم والفقر للبخيل ؟ .

أتعلم الأرض وهى أم ... خَفَّ زمانٌ فما ازدهاها
بأى جُرم وأى حكمٍ ... سُلِّط ليثٌ على مَهاها ؟
وَعُذِّرت حاجةٌ بعسر ... على عليـــل قد اشتهاها ؟
وظالم عنــــده كنوزٌ ... من أم دفر ، ومن لهاها ؟ لز ٤١٤/٢

أسئلة عرضت لأبى العلاء فلم يعرف لها جوابا . عجز عن إدراك حكمة الله فى خلق الشر ، ولم يستطع أن يطمئن إلى علة واضحة يرد إليها ما يرى من أذى وشر . هنالك تراه يصرح بهذا العجز ، ويرفض أن نقيس أفعال الله بقوانيننا ، فهو تعالى خالق الشر ، لـكنه غير عابث ولا شرير إنما هو عادل حكيم ، لا شبه له ولا نديد ، قال فى اللزوميات :

ما قيـــل فى عظم المليك وعزّه ... فالله أعظمُ فى القيـــاس وأكبر ٣٢٦/١
لا ريب أن الله حق فلتعـد ... باللوم أنفسكم على مرتابهـــــا ١٤١/١
فتبـارك الله الذى هو قادر ... تعيا وتقصر دونه الأوصـاف ١٠٣/٢

وقال فى الفصول والغايات :

هو تعالى فوق التشبيه والقياس (٦١)
لا يعجزه ممتنع فى العقول (٤٧)

والحكم لله فى العاقبة والمبتدأ ، لا يرد عليه عجب ، وكيف يعجب من شىء خالق العجائب ومبتدع الآزال ؟ (١٩٦)

لا امتراء فى أن الله حكيم . (٤٧)

جل القادر عن ارتياب . (٣٨)

شرُف عن الأكفاء . (٢٦)

ودونه مواقع الفكر . (٢٩)

تعالى أن يدركه الواصفون . (٢٨٩)

وكيف يوصف بشىء خالقُ الصفات ؟ (٨٨)

سبحانك ما فاتك ، ولا أحاط بك علم ولا ظن ، تخشعت لك الإنس والجن ، وحكمت على خلقك بالفناء . (١٦٧)

✡ ✡ ✡

وأبو العلاء هنا — فى تعليل خلق الشر — يجنح إلى ما جنح إليه فى تعليل خلق الكون والإنسان ، من إنكار العلة الغائية . فلسنا نعلم علة نرد إليها خلق الله للشر ، وإنما الذى يدريه أبو العلاء ، هو أن الله يفعل ما يفعل ويخلق ما يخلق ، لا لعلة إلا أنه أراد ذلك . وهو تعالى الملك وله الحكم على خلقه ، ولا شىء لنا من الأمر .

قال فى اللزوميات :

تبارك ربُّ الناس ليس لما أبى مريدٌ ، ولا دونَ الذى شاء حابس ٥/٢

قضى اللهُ فينا بالذى هو كائن فتمَّ ، وضاعتْ حكمةُ الحكماء

وهل يأبق الإنسان من مُلكِ ربهِ فيخرجَ من أرض له وسماء ؟ ٦٣/١

وقال فى الفصول والغايات :

أعدِلْ بالحاكم على خلقه بالمنية ، يحيدون من خطب إلى سواه . ١٦٩

ولو شاء لأنقذ من القوى الضعيف . ١٨٢/١٦٩

إن الله — وله علو المكان — جعل الشر غريزة فى الحيوان ، ولو شاء تعالى جعل زهداً رغبة الراغبين . ٢٠٦

إن الزعيم بالشقاء والنعيم ، حكم ألا يخلدَ سواه حكيم . ٢٩٤

(سبحانه) ، لا يفعل إلا ما رضى وشاء ، وغيرُ متعلق به الزيغ والخطأ ولا شىء من الدنيات . ٣٣١

* * *

وأبو العلاء فى رسالته[١] الأولى إلى داعى الدعاة ، يجمل رأيه فى تعليل خلق الشر ، فيذكر أن العالم حافل بألوان من الشر ، لا يمكن أن تكون وجدت عبثاً ، وأن من هذه الشرور ما يصيب الإنسان ، ويستحيل تأويلها بالخير . قال رداً على من قالوا (إن الله لا يخلق إلا خيرا) : « لقد رأينا الشرور غوالب . وفى الكتاب الكريم (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً !) . . . .

ولما توفى إبراهيم عليه السلام ، بكى عليه السلام . فقيل يا رسول الله ، أنت تنهانا عن البكاء . فقال : « تدمع العين ، ويخشع القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون . وإنا لله وإنا إليه راجعون » . أفموته

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١ ص ١٩٧

يراه خيراً أم شراً . ؟ ويقول القائل المجترئ : أفما كان من قتل الحسين وسم الحسن ، أخير هو أم شر ؟ إن قيل إنه خير ، فعلام نلعن القاتل فى صبح ومساء ؟ . وكذلك الذين قُتلوا يوم أحد ، شأنهم مشكل ، والنظرُ فى حديثهم يشكل ، أفقتلُ حمزةَ حُسِب مما يُحمد أم هو عبرة للعين ورَمد ؟.والحديث المشهور ، إن الغزاة لما رجعوا إلى المدينة بكت النساء على قتلاها ، فقال النبى (ص) : « لكن حمزة لا بواكى له ! ؟ » فصار النساء يبدأن ببكاء حمزة ثم ينتقلن إلى من فارقهن . والبكاء إنما يحدث من الحزن ، وإن الأيام كثيرة المحن . »

ورأينا أبا العلاء بعد أن فرغ من عرض بعض الشرور والمتاعب التى لا سبيل إلى إنكارها ، يقرر علم الله بالشر ، وينكر أن يقال إنه غير مريد له .

وانتهى إلى رفض أقوال المتكلمين وإعلان العجز عن إدراك العلة لخلقه تعالى وأفعاله قال : « هذه العقد قد جهد فى حلها المتكلمون فلم يجدوا لها انحلالاً ، وأصبح مقالهم ضلالاً . وللبارى عزت قدرته أسرار وقف دونها الأبرار ؟ ولعل هذه الأشياء مخفاة إلى أن تقبض الحىّ وفاة . »

والخلاصة : أن أبا العلاء كان دقيق الحس لما فى الكون من شرور وما فى الحياة من متاعب وآلام ، وقد أعجزته طبيعته وظروفه عن التفاؤل ، فرفض تأويلات من يردون الشر إلى الخير .

أما رأيه فى خلق الشر فقد رأيت أنه خاصم المعتزلة ، فى نفى خلق الشر عن الله، ورأى فى مقالهم شبهاً بالثنوية المجوسية ، وصرح بأنه تعالى خالق الخير والشر ، سبحانه لا يقع فى ملكه ما لا يريد .

ولما عرض لتعليل إرادة الشر ، أعجزه إدراك حكمة الله فى ذلك ، فذهب مع القائلين إن الله لا يُحكم عليه بما يُحكم علينا به ، وإنه تعالى خلق الشر لا لعلة إلا أنه أراد ذلك ونحن نجهل الحكمة فيه ، لأننا لا نملك إلا مقاييسنا التى صنعتها عقولنا المحدثة ، وهو تعالى خالق حكيم قديم ، يجل عن التشبيه والقياس » .

المقالة السادسة :

أخطاء الإنسان

مشكلة الجبر والاختيار

١ — حرية الإرادة
٢ — بحث المشكلة فى البيئة اليونانية
٣ — بحث المشكلة فى البيئة الإسلامية
٤ — اضطراب أقوال أبى العلاء
ا — قوله بالجبر — وقوله بالاختيار — وتردده
ب — تردده فى الثواب والعقاب
ج — إيمانه بعدل الله

حرية الإرادة :

الحيرة فى الجبر والاختيار أمر قديم ، يقول الشهرستانى إنها أول شبهة وقعت فى الخليقة ، وقد مرت بك فى المقالة السابقة ، تلك[1] المناظرة التى روى أنها قامت بين إبليس والملائكة ، والتى يسأل إبليس فيها ، لم خلقه الله وإنه تعـالى ليعلم أى شىء يصدر عنه ؟ ولم كلفه بطاعته ومعرفته ، وهو الذى خلقه على مقتضى إرادته ومشيئته ؟ ولم طرقه إلى آدم فى الجنة وسلطه على أولاده ، وهيأ له القدرة على التأثير فيهم ؟

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (على هامش الفصل لابن حزم) ج ١ ص ٩ .

كان(١) البحث فى حرية الإرادة مشكلة الأمس وهو مشكلة اليوم ، وقد يظل مشكلة الغد فليس للعلم فيه حتى اليوم كلمة فاصلة .

الفلاسفة حائرون : رجال الأخلاق منهم يناضلون عن مبدأ حرية الإرادة ليكون لهم منه متكأ حين يتحدثون عن الفضيلة والمثل ، وعن المسئولية بوجه خاص .

ورجال الفلسفة المادية الواقعية ، يقولون بالجبر ، و يردون أفعال الإنسان — ككل شيء فى الكون — إلى قوانين الطبيعة التى تحكم العالم فى رأيهم .

ورجال الدين كذلك مضطربون : يؤيدون الجبر حيناً اعترافاً بشمول القدرة الإلهية التى تثبت الأديان أنها تدبر العالم وتقوده ، فالله عالم بكل شيء وكل ما علم أنه سيقع ، لا بد واقع كما علم . وما علم أنه لا يقع فهو لامحالة غير واقع . فعمل الإنسان إنما يجرى على وفق علم الله تعالى السابق وهو إذ ذاك مجبر لا مختار . لكنهم يرجعون فيجدون الإنسان محاسباً مسئولاً على ما عمل ، فعلام الحساب إذا لم يكن حراً ؟ لا بد من القول باختيار ، لتستقيم أمور التكليف و إرسال الرسل والثواب والعقاب . وليسلم لهم مبدؤهم فى عدل الله .

ونحن نحاول الآن أن نلم بخلاصة الأقوال فى هذه المشكلة .

١ — فى البيئة اليونانية :

كان البحث فيها ينحو منحى فلسفيا أخلاقياً . وقد احتلت مسألة الإرادة مكاناً ظاهراً فى مدرسة سقراط ، وكانت أظهر الأبحاث فى فلسفتها الأخلاقية .

المدرسة تعلن إيمانها بحرية الإرادة ، فأفلاطون يقرر فى (القوانين) « أن الله قد ترك إلى تصرف إرادتنا ، الأسباب التى تتعلق بها صفات كل منا . و إن كل إنسان هو كما يرضى أن يكون، تبعاً للميول التى يترك نفسه لها » .

---

(١) كتاب الخير (خط) للأستاذ أمين الخولى .

وأرسطو(١) يقرر الاختيار ويرى « أن الفضيلة والرذيلة ليستا مما أوتى الإنسان بالطبع ، فإن الطبع لم يؤت إلا الأصول . »

ولكن هذا الرأى لا يسلم للمدرسة ، فهى لاتبرأ من تناقض واضطراب ، سقراط وأفلاطون يعلنان حرية الإرادة ثم ينقضانها ويهدمانها . حين يقرران ، فى إلحاح وتكرار ، وعلى صور شتى ، أن الخطيئة لا إرادية ، فلا أحد يأتى الشر بمحض اختياره، ذلك لأن الإنسان لا يريد لنفسه شراً ، فإذا أذنب ، فإنما يكون ذلك على رغمه دائماً . وتسمع سقراط يعلم تلميذه (مينون الشاب) . « أن الفضيلة هبة محضةمن عند الله » .

وقد لاحظ أرسطو اضطراب صاحبيه ، فرفض رأيهما فى لا إرادية الإثم ، وقال بالحرية ، وأشهد عليها وجدان الإنسان الذى تجده فى كثير من الأحوال علة ما يصدره من الأفعال . وأشهد عليها الذوق العام الذى يحترم بعض الأفعال ويحتقر بعضها . وأشهد عليها كذلك سنة المشرعين الذين يعاقبون أو يعفون تبعاً لإرادة المذنب فيما يفعل .

كذلك لاحظ « سنتهلير »(٢) التناقض الذى وقع فيه سقراط وأفلاطون ، حين قررا حرية الإرادة ثم أكدا أن المرء لا يأتى الإثم مختاراً وإنما يأتيه مرغماً لجهله أو لسوء الاستعداد أو سوء التربية . حمل سنتهلير على هذا التناقض والاضطراب . لكنه يتورط فى إسرافه فى الإيمان بحرية النفس وجبروتها . فيقع فى صورة أخرى من الجبر الذى أنكره . (٣) إذ يقرر بشكل واضح أن الإنسان عبد شهوته وأنه يناضلها فيفشل . فكل الفرق بينه و بين سقراط وأفلاطون ، أنهما يريان الإنسان يفعل الشر مرغماً لجهله ، وهو يراه يأتى الإثم والخطيئة مدفوعا بقوة قاهرة « تهزم عقله وتسكت صوت

(١) الأخلاق لأرسطو (تعريب الأستاذ لطفى السيد باشا) ص ٥٨
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٤
(٣) « « ج ١ ص ٤٩

الضمير والحكمة وكل شيء . تلك هي الشهوة التي يناضلها الإنسان فيفشل . »

ترى مثل هذا الاضطراب والتناقض ، في المدرسة الرواقيـة (القرن الرابع والثالث ق . م) فتلاميذها يقررون أن الإنسان حر الإرادة مختار ، ويسرفون في الإشادة بتلك الحرية ، ولكنهم — مع تطرفهم في الحرية — يسلمون بالقضاء والقدر ويقررون خضوع الإنسان في كل شيء للقوة الإلهية .

أما المدرسة الذرية — والأباقرة بوجه خاص — فيقولون بالجبر — ويمنعون الحرية، ويعلنون في صراحة أن الإنسان مغلوب على أمره لأنه ككل شيء في الكون — خاضع لنظام آلي لا دخل للإرادة فيه ، محكوم بقوانين طبيعية لا تتخلف .

٢ — في البيئة الإسلامية :

اتجه البحث في المشكلة نحو المنحى الديني ، الذي يدور حول علاقة الإرادة الإنسانية بالقوة الإلهية التي يثبت الإسلام — والأديان جميعا — أنها تدبر العالم وتقوده .

وقد أخذت المسألة نقطة ابتداء عند الخلاف في خلق الله تعالى لأفعال خلقه ، ثم اتسعت وتشعبت ، حتى أخذت شكل جدل حاد ، وخصومة من أعنف الخصومات التي شهدتها البيئة الإسلامية . ذلك لأنها لم تعد قاصرة على خلق الله تعالى لأفعال خلقه ، أو خلق الناس لأفعالهم ، بل تفرعت منها مسائل شتى ، كل منها كان مثار الجدل والمناظرة . فتكلموا في الهدى والإضلال والتعديل والتجوير ، وإرادة الله كون الفسق والكفر ، والكلام في اللطف والأصلح .

ولنرجع إلى حيث بدءوا ، فنراهم يواجهون المشكلة داخل الدائرة الدينية ، وجدوا أن الأدلة العقلية — في حدود الدين — تتعارض ، إذ القول بحرية الإنسان يستلزم القول بأن هناك خالقا غير الله ، مع أنهم مجمعون على ألا خالق إلا هو . والقول بالجبر يستلزم

البحث فى التكاليف ويجعل السعى والجد ودفع الضرر، هراء باطلا غير مُجد، وهو ما لا يعقله إنسان .

ونظروا فى الأدلة النقلية السمعية، يبتغون فيها فيصلا، فوجدوها كذلك متعارضة فانقسموا[١] شيعاً ثلاثا :

١ — طائفة تقول بالجبر المطلق، وترى أن جميع أفعال العباد مخلوقة، خلقها الله عز وجل فى الفاعلين لها . وأصحاب هذا القول هم أهل السنة كلهم والجهمية، وطوائف من الخوارج والمرجئة والشيعة .

٢ — طائفة تقول بأن أفعال العباد محدثة، فعلها فاعلوها ولم يخلقها الله عز وجل : « فالعبد[٢] قادر خالق لأفعاله مستحق على ما يفعله ثواباً وعقابا » : وأصحاب هذا القول هم سائر المعتزلة، ومن وافقهم من الخوارج والمرجئة والشيعة .

٣ — طائفة تذهب بين هذين وسطا، ويسميها الشهرستانى[٣] الجبرية المتوسطة، وهى لا تقول بالجبر المطلق . ولا تقول بالاختيار المطلق، ولكنها تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة .

وفى هذا المكان الوسط، وقف ابن حزم، يهاجم الجبرية والاختيارية جميعاً، ويفند حججهم فى قسوة وعنف، وإنما لنا مشيئة، إلا أنها لا تكون إلا أن يشاء الله كونها .

واختاره ابن رشد وإن لم يقل بالكسب كالأشاعرة، وإنما ذهب إلى تقدير الجبر بالعوامل الخارجية، مضيفاً اليها الأحوال النفسية، فهو[٤] يرى أن الإنسان حر فى نفسه، إلا أن حريته تلك محدودة بالأسباب الخارجية . فالإرادة هى شوق يثيره شىء

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٥٤،
مقالات الإسلاميين للأشعرى ج ١ ص ١٤٠ .
(٢) الملل والنحل للشهرستانى (على هامش الفصل) ج ١ ص ٥٥
(٣) « « « « « ص ١٠٨
(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٠٧

يعرض لنا من الأمور التى من خارج ، ومن ثم كانت إرادتنا محفوظة بالأمور التى من خارج ومربوطة بها « فكون الأشياء الموجودة عن إرادتنا ، يتم وجودها بالأمرين جميعاً ، أعنى بإرادتنا وبالأسباب التى من خارج .... وهذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التى من خارج ، نجد مثله بين أفعالنا و بين الأسباب التى خلقها الله تعالى فى داخل أبداننا » .

ولكل طائفة من الطوائف الثلاث أدلتها و براهينها :

فحجة[1] الإجبار :

١ — أنه لما كان الله تعالى فعالا وكان لا يشبهه شىء من خلقه ، وجب ألا يكون أحد فعالاً غيره .

٢ — أن الله عالم بكل شىء ، فعمل الإنسان يجرى على وفق علم الله تعالى السابق ، وهو إذ ذاك مجبر لا مختار .

٣ — أن شمول القدرة الإلهية ، يقتضى ألا يقع فى ملك الله إلا ما يريد .

ومن أدلتهم النقلية:

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله »

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم »

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ؛ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وتأولوا الآيات التى أضيف الفعل فيها إلى الإنسان ، فقالوا إنما هى كما تقول : مات زيد و إنما أماته الله تعالى .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٢٣٩ ، ٣٠٠
الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٥٨

وقال أصحاب الاختيار :

١ — القول بالجبر[١] يبطل التكليف. وإلا فقد نسبتم إلى الله تكليف ما لا يستطاع . ولزمكم أن تجيزوا تكليف المقعد أن يجرى وهذا ظلم وجور ، وهما منفيان عن الله تعالى .

ورد بأن هذا تشبيه لله بخلقه ، وهو تعالى يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل .

٢ — تكليف ما لا يطاق ثم التعذيب عليه قبيح فى العقول جملة ، فلا يحسن من البارى تعالى أصلا .

ورد[٢] بأن الله فوق القياس وفوق أحكامنا ، وإن أحدنا ليقول مثلا اعبدونى ، فينكر قوله . ويقول الله اعبدونى فيكون ذلك حسناً وحقاً ، وإنما قبح ذلك منا لأننا لا نستحقه ، وكذلك قبح منا تكليف ما لا يطاق والتعذيب عليه ، لأننا لا نستحق هذه الصفة .

٣ — إن كان الله[٣] خلق الكفر والمعاصى ، فهو إذن يغضب مما فعل وخلق ، ولا يرضى ما صنع .

ورد عليهم ، ولكنكم تعلمون أنه تعالى خلق إبليس وفرعون والأصنام والكفار . هذا نفس ما أنكرتم من أنه تعالى غضب من فعله وكره ما خلق .

٤ — إذا كان[٤] تعالى خلق الظلم والكفر وجب أن يسمى تعالى ظالماً . لأن من فعل شيئاً وجب أن ينسب إليه . ورد عليهم بأن الله تعالى يفعل الأشياء ولا تنسب إليه كخلق الخمر وإبليس ، وبناء السماء والأرض (انظر رده فى ص ١١٤)

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٢

(٣) « « ص ٦٩

(٤) « « ص ٧٣

٥ — إذا كان[1] فعلنا خلقاً لله ، فكيف يعذبنا على خلقه ؟

ورد عليهم بأنه تعالى لا يسأل عما يفعل ، ولو أخبرنا تعالى أنه يعذبنا على ما خلق في غيرنا لقلنا به ولصدقناه . كما نقر أنه يعذب أقواما على ما لم يفعلوه قط ولا أمروا به . لكن على ما يفعله غيرهم . قال تعالى :

« وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم . »

« إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار . »

« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم — ألا ساء ما يزرون » .

ومن آيات الاختيار :

« وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى »

« إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

* * *

هذا شيء من النضال الذي قام بين المجبرة وخصومهم ، وبقي أن نسمع أقوال الطائفة الثالثة أصحاب المذهب الوسط أو الجبرية المتوسطة كما يسميهم الشهرستاني[2]

قالوا إن الحقيقة أن لنا مشيئة ، إلا أنها لا تكون إلا أن يشاء الله .

« لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين . »

وساق المجبرة إليهم أدلتهم العقلية والنقلية ، وكذلك فعل أصحاب الاختيار ، فقالوا إن الاختيار الذي توحد الله به ، هو أن يفعل ما يشاء وكيف شاء وإذا شاء . وأما الاختيار الذي أضافه الله تعالى إلى خلقه ، فهو ما خلق فيهم من الميل إلى شيء ما ، والإيثار له على غيره وقد ووجهوا بالاعتراضات التي ووجه بها المجبرة والاختيارية جميعاً ، ونوقشوا

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٩١

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري ج ٣ ص ٢٣ — الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٥٥

فى إرادة الله للفسق والكفر ، وفى التكليف والعدل والثواب ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم مبدأ يتكئون عليه و يردون به على خصومهم .

ومبدؤهم واضح ، فهم يقولون إن المعتزلة تورطت فيما زعمته من الاختيار ليسلم لها مبدؤها فى عدل الله فيصح التكليف ، ويجوز الثواب والعقاب . وإن المجبرة نفت الاختيار ليسلم لها مبدؤها فى شمول القدرة الإلهية ، والواقع أننا نخطىء فى قياس أفعال الله بأحكام عقولنا ، إذ أن هذا تشبيه مجرد لله تعالى بخلقه .

« والقول الصحيح هو أن العقل الصحيح يعرف بصحته ضرورة ، أن الله تعالى حاكم على كل ما دونه وأنه تعالى غير محكوم عليه ، ولا يلزم لأحد على الله تعالى حق ولا حجة ولله تعالى على كل من دونه ، الحق الواجب والحجة البالغة . [١] »

[٢] وأبطلوا العلة الغائية فالله تعالى يفعل مايفعل لالعلة إلاأنه شاء ذلك فليس لأحد أن يقول لم وكيف ؟ لم حبا فلاناً بالسعد ؟ ولم خلق إبليس ومردة الشياطين ؟ ولم لم يمنع قتل أنبيائه ؟ تعالى الله الذى « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »

وهذا كما ترى جنوح مقنع إلى الجبر وانتهاء إليه . ويظهر هذا فى قول ابن حزم « كل [٣] مافعله الله من تكليف مالايطاق ، وتعذيبه عليه ، وخلقه الكفر والظلم فى الكافر والظالم ثم تعذيبهما ، وخلقه الكفر وغضبه منه ، كل ذلك من الله تعالى حكمة وعدل وحق ، ومن دونه تعالى سفه وظلم وباطل ، لايسأل تعالى عما يفعل وهم يسألون » .

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ٣ ص ٩٨

(٢) « « جـ ١ ص ١٢ — الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٥ — مقالات الإسلاميين للاشعرى جـ ١ ص ٤٠

(٣) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم جـ ٣ ص ٧١

أبو العلاء ومشكلة الجبر والاختيار :

والآن إلى أبي العلاء .

الفكرة الشائعة عنه أنه رجل جبرى ، وهى فكرة لها ما يؤيدها من أقوال أبي العلاء نفسه . فاللزوميات بوجه خاص حافلة بالشعر الجبرى ، وقد أورد أستاذنا الدكتور طه حسين بك طائفة من هذا الشعر ورآها « كافية لإثبات الروح الجبرى لأبي العلاء واضحاً جلياً » .(١)

ومن الحق أن أبا العلاء يقول بالجبر ، ولكنه لا يثبت عليه . على أنا لا نتعجل القول ، بل نصحب أبا العلاء لنسمع أقواله فى الجبر والاختيار .

١ — قوله بالجبر :

أبو العلاء يقول بالجبر صراحة ، وإذا مضيت تلتمس هذا ، رأيته فى كثير من قصائده وفصوله .

قال فى اللزوميات :

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها   فإن شذّ منا صالح فهو نادر
وما فسدت أخلاقنا باختيارنا   ولكن بأمر سببته المقادر ٣١١/١

ولست بفاتح للرزق بابا   إذا أيدى الحوادث أغلقته
ومن يظفر بأمر يبتغيه   فأقضية المهيمن وفقته ٤٠٢/٢

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى   ولا حياتى ، فهل لى بعدُ تخيير ٣٢٢/١

تتخيرنّ الأمر كى تحظى به   هيهات ، ليس على الزمان تخير ٣٢٥/١

تقفون والفلك المسخر دائر   وتقدرون فتضحك الأقدار ٣٣٣/١

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٨٢

لو ينطق السيف نادى ليس لى عمل   إذا قضى مالك الأفلاك أنضانى
وإن كهمت فأمر الله أكهمنى   وإن مضيت فأمر الله أمضانى ٣/٣٧٢
تبارك رب الناس ليس لما أبى   مريد، ولا دون الذى شاء حابس ٢/٥
ما حركت قدم ولا بسطت يد   إلا لها سبب من المقـــدار ٢/٤٠٦

وقال فى الفصول والغايات :

لو ترك القطا ليلا لنام، والأقمر لما هام، والعرفج لما اضطرم أشد اضطرام. (١٥)

المرء يقدر ولغيره الأمور. (٣٧٤)، ولن تقضى أمراً إلا بالقضاء (٢٧١-٢٩٦)

وإذا رأيت الملأ يبرمون أمراً، فقل لعب الولدان خراج. (٢٩٧)

وربك خص بالفضيلة من اختار. (١٨٢)

(يطعن الطاعن) والله مالك أيدى الطاعنين. (١٧٧-٢٣٧)

دع الأقدار وما تريد فإنها لا تصرف على اختيار المخلوقين. (٢٣٩-١٧٤-٣٦٩)

تعالى من خار لعباده وهم للخيرة كارهون. (١٧٤)

وتخيرُ العبد على مولاه شقاق. (٣٤٨)

(أنت (ربنا) مجرى القدر على رغم الكارهين، والخيرة لك لا للمختارين.) (٢٣٩)

وأبو العلاء يبعد فى الجبر (فيقرر أن الشر غريزة فى الإنسان. وإذاً فهو مغلوب على أمره، يغلبه طبعه، وتقهره غريزته. ولا يملك الخير لنفسه، كما لا يملك دفع شرها فأىّ هكذا خلقت.)

قال فى اللزوميات :

جسمىَ أنجاس فما سرنى   أنى بمسك القول ضُمخت
من وسخ صاغ الفتى ربُّه   فـلا يقولن توسـخت ١/١٧٣

وإن لأجسام الأنام غرائزا إذا حَركت للشر طالبه لجّا ٢١٠/١

فكيف لا تخبث النفس التي جُعلت من جسمها ، فى وعاء كله دنس ١١/٢

يطهر الجسدَ المغرورُ صاحبُه وإنما صيغ أقذاراً وأنجاساً ٢٣/٢

نبغى الطهارة فى الحياة وإنما أجسادنا جمل من الأنجاس ٤٠/٢

نهانى عقلى عن أمور كثيرة وطبعى إليها بالغريزة جاذب ١٣١/١

والشر فى الجسد القديم غريزة فى كل نفس منه عرق ضارب ٩٤/١

إن الضلالة كالغريزة فيكم يأوى إليها كهلكم وفتاكم ٢٧٥/٢

فلا تعذلينا ، كلنا ابن لئيمة وهل تعذب الأثمار إن لؤم الغرس؟ ٤/٢

مهجتى ضد يحاربنى أنا منى ، كيف أحترس ؟ ١٠/٢

وقال فى الفصول والغايات :

إن الله — وله علو المكان — جعل الشر غريزة فى الحيوان . (٢٧٩)

والشيء كما فطر حتى يأذن خالقه بالتغيير . (٣٣٩)

ولو شاء تعالى جعل زهداً رغبة الراغبين . (٢٠٦)

وبعد أكثر من ذلك ، فيعلن أن الإنسان قد يتألم لما يقترف من شرور وسيئات ، ويحاول مخلصاً أن يتجنبها ويفعل الخير ، فتصده عن ذلك قوى قاهرة غلابة ، لاسبيل له إلى مقاومتها . يهم بالخير فتأبى الأقدار عليه ذلك وتتصدى معترضة دون هذه الرغبة الكريمة .

يعلن أبو العلاء ذلك فى مرارة وألم فيقول فى اللزوميات :

وإذا غدوتَ على القضاء مغالبا　فأذاك تستمرى وأنفك ترغم ٢/٢٧٥

ارتاحت النفس بتطهيرها　وربما قاض بتدنيسها ٢/٤٢

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا　فلا ترومن للأقوام تهذيبا ١/١١٠

أوصيت نفسى، وعن ود نصحت لها　فما أجابت إلى نصحى وإيصائى ١/٦٦

وكيف يقام فى أمر مهم　ليُفعل والمقادر مقعدات ؟ ١/١٦٣

قضى الله فينا بالذى هو كائن　فتم، وضاعت حكمة الحكماء

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه　فيخرج من أرض له وسماء ؟ ١/٦٣

وفى الفصول والغايات، من هذه التأملات كثير، ترى خلالها هزيمة العقل وفشل الجهد، أمام سطوة الغريزة وسيف المقادير :

إنى لأزجى إلى الخير نفساً كالعَود الرازم . (١٠٤)

كم أذمُرها حاضاً لها على فعل الخير وهى غير مصغية إلى طول الذمرات . (١١٦)

رب نطف (فاسد النية) يُعطف إلى الخير، فلا ينعطف، وكيف، ولم يأذن خالقه بالانعطاف ؟ (١٩٠)

أريد الخير لا يجبنى، والغريزةُ عن الرشد تذُبنى . (٢١٦)

وأى أسباب الخير علقت به، وجدتُه علىّ ذا التياث : (٢١٧)

هل يعصمنى الاجتهاد، وقد سبق حكمه أنى من أهل الخسار ؟ أو يضرنى التقصير وقد نفذ علمه أنى فى درجة الأبرار ؟

خلدى بالخطايا مملوء، وأنا بها أبوء، أحملها فلا أنوء، وغيرُ القدر هو المدروء، لا يبعد عنى السوء. أهمُ بالخير وأهوء، والأقدارُ دونه معترضات . (١٤٩)

٢ — قول بالاختيار :

سمعت أبا العلاء يقول بالجبر ويبعد فيه ، ولكنك تمضى فى تتبع تأملاته فإذا هو لا يثبت عند القول بالجبر و إنما يناقض نفسه .

وأول ما يلفت النظر فى ذلك إلحاحه الغريب فى الوعظ والنصائح ، وهذا جنوح إلى الاعتراف بالاختيار والاجتهاد . و إلا فكيف يستقيم إلقاء النصيحة مع مغلوب على أمره جبل على الشر وأجبر عليه ؟ كيف يوصَى بفعل الخير وتجنب الشر من يعلم أن الأمر رهن بمشيئة الله لا بإرادة العبد ؟

اللزوميات ، والفصول والغايات، وملقى السبيل ، حافلة بالمواعظ والنصائح . وكثرتها تُشعرك أن أبا العلاء كاد يحترف الوعظ .

واقرأ ثبت كتبه فى ياقوت ، فسترى من بينها هذه الأسماء :

استغفر واستغفرى — فى الوعظ .

الأيك والغصون — فى العظات وذم الدنيا .

تاج الحرة — فى عظات النساء خاصة .

حماسة الراح — فى ذم الخمر .

دعاء الأيام السبعة .

دعاء ساعة .

سيف الخطبة ، فى الخطب والدعاء — وفيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والاستسقاء .

عظات السور .

العظة والزهد .

سجع الحمائم فى الوعظ .

السجعات العشر — فى الوعظ .

فقه الواعظ .

المواعظ الست : فى خطاب رجل ، واثنين ، وجماعة ذكور ، وامرأة ، واثنتين وجماعة إناث .

ملقى السبيل — فى الوعظ .

هو إذاً واعظ يوصى الناس بعمل الخير واجتناب الشر ، ويدعو إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق ، وهذا جنوح إلى الاعتراف بأن للإنسان قدرة على أن يفعل الخير ويتجنب الشر .

ب — وتراه إلى جانب إسرافه فى الوعظ والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، يسرف فى لوم المذنبين ويقسو فى تعنيفهم ، وهذا جنوح إلى الاختيار ، لأن المجبر على الشر والخطيئة معذور ، وأولى بنا أن نشفق عليه بدلا من أن نقسو فى لومه وتعنيفه .

قال فى اللزوميات :

أرى الناس شرا من زمان حواهمُ فهل وُجدت للعالمين حقائق ؟
فقد كذبوا عن ساعة ودقيقة وما كذبتْ ساعاتهم والدقائق ١١٧/٢

فؤادك خفاقٌ ، وبرقك خافق وأعياك فى الدنيا خليلٌ موافق
تخير ، فإما وحدة مثل ميتة وإما جليس فى الحياة منافق ١١٨/٢

هل يغسل الناسَ عن وجه الثرى مطرٌ فما بقوا ، لم يبارح وجهَه دَنسُ
والأرض ليس بمرجوٍ طهارتها إلا إذا زال عن آفاقها الأنس ! ١٣/٢

أنسلَ إبليس أم حواء ويحكم هذا الأنام ، ففى أفعالهم دلس ؟
إن يؤمنوا لا يؤدوا ، أو يكنْ لهمُ عِزٌ يضيموا ، وإن أعياهم اختلسوا ١١/٢

إذا حضرت عندى الجماعة أوحشت   فما وحدتى إلا صحيفة إيناسى
طهارةُ مثلى فى التباعد عنكم   وقربكم يجنى همومى وإدناسى ٢٦/٢

هذا رجل يضيق بالناس ، ويقسو فى لومهم وينكر ما يقترفون من آثام ، وكان جديرا به أن يعذرهم لأنه كرر — على صور شتى — أن المرء مغلوب على أمره ، يقترف الإثم مرغما ، وقد يحاول الخير فيصده عن ذلك قدر غالب ، وطبع قاهر .

على أن أباء العلاء لا ينصح ويلوم فحسب ، وإنما يقول بالاختيار الصريح .

قال فى اللزوميات :

فما أذنبَ الدهرُ الذى أنت لائم   ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا ٨٠/١
تأبىّ أن تجىء الخيرَ يوما   وأنت ليوم غفرانٍ تثبُّ ؟ ٨٨/١
نقمتَ على الدنيا ولا ذنبَ أسلفتْ   إليك ، فأنت الظالم المتكذب ٨٠/١
تقلدتْ المآثمَ باختيـــارٍ   أوانِسُ بالفريدِ مقلّدات ١٦٣/١

وقال فى الفصول والغايات :

كفرتْ البريةُ وربها حليم . (٢٨)

مولانا ! أتغيرنا فتغيرت لنا ؟ أم نزلتْ السخطةُ منك علينا ؟ بل نحن الجرمة المسيئون ، ما زلنا عبيد سوء ولا زلت أكرم المالكين . (٥٠)

لو هُجر أبٌ لجناية ولد ، لحرِّم العنبُ لجريرة المدام . وهل لها من ذنب ؟ إنما الذنب لعاصر الجون ، ومستخرجها وردية اللون ، وحابسها فى الدن ، ومنتظرها برهة من الدهر ، وشاربها ورد العطشان وتفوق الرضيع ، فاجتنبوا ما يذهب العقول ، فبها عُرف الصواب . (٤٠)

وأى ذنب للدنيا لديك ، إنما الذنوب كلها لك ! (٥٣)

لتكن أفعالك لوجه الله ما استطعت ، وعزيز ذلك على سكان الأرض ، ولكن يوجد من وراء ذلك اجتهاد . (١٨٠)

٣ — تردده واضطرابه

وقد يختلط الأمر على أبى العلاء فلا يقول بجبر ولا باختيار ، وإنما يقف حائراً لا إلى هذا ولا إلى ذاك ، يجمع بين النقيضين فى وقت واحد ، ويتحدث بكلام مبهم لا تدرى مؤداه . فى اللزوميات يقول :

فأوسعْ بنىِ حواء هجراً فإنهم يسيرون فى نهج من الغدر لاحب
إذا ما أشار العقلُ بالرشد جرَّهم إلى الغى طبعٌ أخذه غيرُ ساحب ١٣١/١

تخالفت الأشياعُ فى عقب الردى وتلك بحار ليس يُدرك عبرُها
وقيل نفوسُ الناس تسطيع فعلَها وقال رجال بل تبين جبرُها ١٣١/١

أرى شواهد جبرٍ لا أحققه كأن كلاً إلى ما ساء مجرور ٣٢٣/١

كيف احتيالُك والقضاء مدبر تجنى الأذى ، وتقول إنك مجبر ؟ ٣٢٧/٢

وجدت الفتى يرمى سواه بدائه ويشكو إليك الظلم وهو ظلوم !
فإن كان شيطانٌ له يستفزه فأيهما عند القياس تلوم ٢٦٣/٢

أرأيت كيف يوسع الناس لوما وقد جرهم طبعهم إلى الغى ؟

أرأيت كيف يردد قول المجبرة وخصومهم ثم لا يلقى لنفسه رأيا ؟

أرأيت كيف يعجب من احتيالك والقضاء مدبر ، ثم ينكر عليك أن تقول إنك مجبر؟

أرأيت كيف يعجب ممن يشكو الظلم وهو ظلوم ؟ ثم يسأل من الملوم إن كان شيطان له يستفزه للمعصية والظلم ؟ .

واسمع قوله فى الفصول والغايات :

ليس للسان ذنب ، إنما الذنب لمحرك اللسان ، كفارس طعن برمح فقتل غيرَ مستحق للقتل ، فالجانى الفارس . والرُمحُ غنى عن الاعتذار . . .

وإذا سعت القدمُ إلى قبيح ، فالجريمة لناقلها ، مثل رجل ركب فرساً فأخاف سبيلا ، فاستوجب العقوبةَ الرجلُ دون الجواد ، وإذا خانت اليدُ فالباسطُ لها الخِبُّ الخؤون . وإذا نظرتْ العين ، فتلك المِصباحُ استعان بها السارق على اجتلاء بز وجهاز . (٣١٧)

هو هنا ينفى الذنب عن الجوارح ويبرئها من المسئولية ، ويلقى العبء على محرك اللسان ، وناقل القدم ، وباسط اليد ، والناظر بالعين .

فاسمعه يقول فى مكان آخر من الفصول والغايات :

الخيانة جنسان : خيانة الضمير ، فتلك لا يشعر بها غير الله ، والخيانة الظاهرة على أقسام : خانت العين بنظر واطلاع ، والأذن فى إصغاء واستماع ، والقدم إذا نقلها إلى الإثم ساع ، وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان . (٣٩٩)

أرأيت كيف يضيف الخيانة إلى الجوارح ، وفى مكان آخر قد نفاها عنها ؟ ولكى يبعد شبهة المجاز فى الإسناد ، يختم الفصل بقوله : « وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان » .

٤ — ما موقف الرجل :

ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين بك فى (ذكرى أبى العلاء) إلى أنه كان[1] جبرياً إلى أبعد حدود الجبر .

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء للاستاذ الدكتور طه حسين بك ص ٢٨٢

ولكنه عاد ، فلاحظ تردد الشيخ وعدم ثباته على القول بالجبر الخالص ، فرأى الدكتور أنه كان يذهب إلى ما سماه (الجبر الملطف) . وقد فصله فى كتابه (مع أبى العلاء فى سجنه) . أورد قول أبى العلاء فى الفصول والغايات : « ألا ترى الحجر الموضوع ، مر به العاثر فأدمى الإبهام ؟ ولا ذنب للحجر ، لكن للواضع والعاثرين . » وعلق الأستاذ على ذلك بقوله : « والمثل[1] الذى ضربه أبو العلاء فى هذا الفصل لا يخلو من دلالة ، فهذا عاثر قد عثر بحجر فى طريقه فدميت أصبعه ، فأيهما المسئول عن هذا الشر ؟ ليس هو الحجر من غير شك ، ولكنه واضع الحجر فى موضعه ، هذا الذى جعله عرضة لأن يؤذى من قد يمر فيعثر به . والعاثر نفسه ، لأنه لم يتبين موضع قدمه . وما ينبغى أن نقف عند المعنى القريب لهذه الجملة من حديث أبى العلاء ، فأبو العلاء أذكى وأعمق فلسفة من أن يقف عند هذا المعنى فى تفكيره ، فكن أنت من الذكاء ونفاذ البصيرة بحيث تستطيع أن تسمو معه إلى ما أراد . وأكبر الظن أن هذه الصورة المادية رمز لصور معنوية كثيرة ، فما يكون من شر إنما ينحل فى حقيقة الأمر إلى نوعين من أنواع التبعة : أحدهما تبعة الذى هيأ أسباب هذا الشر وجعلها فى مواضعها من حياة الناس ، بحيث يعثرون بها ويتورطون فيها ، فلو لم تتهيأ هذه الأسباب لما عثر الناس ولا تورطوا . والنوع الثانى تبعة الناس الذين يرون أسباب الشر فلا يتجنبونها ولا يعدلون بأنفسهم عنها . . . (وأيسر ما يستخلص من تحقيق هاتين التبعتين أن الإنسان ليس مسئولاً كل السؤال عن سيئاته ، لأنه لم يبتكر أسبابها ، ولم يخلق دواعيها ، ولم ينصب أشواكها فى طريقه . ولكنه فى الوقت نفسه ليس معفى كل الإعفاء ، لأن له عقلاً يهديه فى هذا الطريق ويدله على مواضع هذه الأشواك . فمن الحق عليه أن يهتدى وهو ملوم إذا لم يفعل .)

(١) مع أبى العلاء فى سجنه للاستاذ الدكتور طه حسين بك ص ٢١٨

« وإذاً فهو الجبر الملطف — إن صح هذا التعبير — الجبر الذى يعذر الإنسان بعض العذر ، ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها . الجبر الذى يبيح لأبى العلاء أن يلوم الناس على آثامهم ويأمرهم بالخير ، ويفرض عليه أن يحتاط لنفسه فيصطنع الخير ما وجد إلى ذلك سبيلا . وهذا الرأى من آراء أبى العلاء شائع فى اللزوميات شيوعا شديدا على تفاوت فى ذلك ، فهو مرة يسرف فى الجبر ، ومرة يقتصد فيه . »

هذا رأى يصدق على الحياة العملية لأبى العلاء ، فقد أراد لنفسه أشياء وأريدت له أشياء ، أراد لنفسه العزلة والزهد والتقوى ، ولكنه قد أريد على أن يفضل هذه الحياة ، حين ألحت عليه المحن وأكرهته الظروف على أن يسيء الظن بالدنيا وبالناس فاعتزلهم طائعا مختارا .

وكنا نود لو أن هذا الرأى يسلم لأبى العلاء فى تأملاته ، لأنه يجلو موقفه . ولكننا نلاحظ :

١ — أن هذا الجبر الملطف — على فرض أنه قسم ثالث — لا يسلم لأبى العلاء ، ذلك لأن الرجل لا يقول بالجبر الملطف وحده ، ولا يثبت عند هذا الموقف المتوسط متردداً بين الجبر والاختيار ، وإنما يقول بالجبر المشدّد مرة ، وبالاختيار المؤكد أخرى ، وقد يتوقف فى الأمر فلا يقول بجبر ولا باختيار ، ولا بجبر ملطف ، وإنما يقف حائرا ، يردد فى القول ، فيجمع بين النقيضين ، ويقول بالرأى ثم يعود فينقضه .

عندنا أن أبا العلاء متناقض فى مسألة الجبر والاختيار ، فلسنا نعرف له رأيا بعينه ثبت عليه ، وإنما نراه يبعد فى الجبر حينا ، حتى ليصور الإنسان مجبولا على الشر مغلوبا على أمره ، يحاول الخير فتقعده قوى قاهرة غلابة لا سبيل له إلى مقاومتها .

ويجنح إلى الاختيار حيناً ، فيقول بالاجتهاد ، ويدعو إلى صالح الأعمال ، ويقسو فى لوم الناس ويضيق بآثامهم ، وينفى الذنوب عن الدنيا والقدر ، ليثقل بها كاهل الإنسان .

ويتوسط متردداً بينهما حيناً ثالثاً كما رأينا فى قصة الحجر والعاثر.

وقد يتوقف فى الأمر فلا يقول بجبر خالص، ولا باختيار خالص، ولا بجبر متوسط ملطف، بل يقف حائراً متردداً.

(هو إذاً متناقض لم يثبت عند رأى بعينه، فليس من الصواب أن نقول إنه جبرى، أو اختيارى، أو متوسط، أو متردد؛ لأنه قال هذه جميعاً فاختلط أمره، وتناقضت أقواله.)

* * *

الثواب والعقاب:

(وقد اختلف قول أبى العلاء فى الثواب والعقاب، تبعاً لاختلافه فى الجبر والاختيار.) يقول بالجبر، فيحار فى الثواب والعقاب. لِمَ يُثاب مجبور على الخير مساق إليه؟ وكيف يعاقب مجبور على الشر مُكره عليه، لم يسع إليه ولم يرغب فيه؟

إن كان من قتل المحاربَ مجبراً يسطى عليه، فأين يُبغى الثار؟ لز ٣٣٤/١

لا تحمدن ولا تذمّن امرأً فينا، فغيرُ مقصرٍ كمقصر ٣٩٨/١

فإن كان شيطانٌ له يستفزه فأيهما عند القياس تلوم؟ ٢٦٣/٢

ويقول بالاختيار، فيعوزه الاطمئنان إلى هذا القول، ولكنه مع قلقه يفزع من العقاب ويجنح إلى تقرير المسئولية.

قال فى الفصول والغايات:

إنى سائلك (يا رب) هل أبقت السيئات عندك موضعاً للحسنات؟ (١٣٨)

اسودَّ عملك فما حُزنتَ، وحزنتك بيضُ الشَّعرات. (٩٤)

(وأنت ترى حيرته واضحة فى تردده بين الأمل فى المغفرة والفزع من العقاب)

(هو حين يجنح إلى الجبر، يأمل فى المغفرة مهما اقترف من الذنوب والآثام، لأن عقاب المجبر على ما أريد له من سيئات، ظلم بين.)

قال فى اللزوميات:

قالت معاشرُ، كلٌ عاجزٌ ضرع ... ما للخلائق، لا بطء ولا سرع
مدبّرون فلا عتب إذا خطئوا ... على المسيء، ولا حمدٌ إذا برعوا
وقد وَجدتُ لهذا القول فى زمنى ... شواهداً، ونهانى دونه الورعُ ٧٩/٢

ليفعلْ الدهرُ ما يهم به ... إن ظنونى بخالقى حسنه
لا تيأس النفسُ من تفضله ... ولو أقامت فى النار ألف سنه ٣٥٨/٢

أأخشى عذابَ الله والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب؟ ٤٢٠/١

وقال فى الفصول والغايات:

ما أحسنتُ فأطلب الجزاء، لكنى أسأت فرادى الغفران. ومن لى بالوقفة بين المنزلتين لا أكرم ولا أهان؟ ١٧٣

لا آيس من رحمة الله ولو نظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً، كأنهن بنات حمير، (ابن حمير هو الليل المظلم). ووضعتهن فى عنق الضعيفه كما ينُظم صغار اللؤلؤ فيما طال من العقود. ولو بنيت بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشعر، يلحق بأعنان السماء، وتمتد أطنابه فى السهل والجبل، كامتداد حبال الشمس، لهدمه عفو الله ١٧٩ — ١٨

وأسألك (يا رب) عصمة من الذنوب، فإن لم أكن أهلاً للعصمة، فلتكن جرائمى معك لا مع عبادك، فإنك الحليم الكريم، وإنا معشَر الإنس فينا سوء ظفر وقلة احتمال. ١٧٣

وقد عرض أبو العلاء مسألة المغفرة فى (رسالة الغفران) عند ماذكر قصة التوبة.

فهو يمضى بصاحبه ابن القارح فى الجنة يسأل بعض الشعراء بم غفر الله لهم ، فإذا المغفرة قريبة . بيت من الشعر ، كاف لأن يعفى الآثم العاصى من لفح جهنم ويمضى به إلى نعيم الجنة .

اسمعه يتحدث على لسان ابن القارح ، ويعرض قصة عبيد : «[1] ثم ينصرف (ابن القارح) إلى عبيد ، فإذا هو قد أعطى بقاء التأبيد . فيقول : السلام عليك يا أخا بنى أسد . فيقول : وعليك السلام — وأهل الجنة أذكياء — لعلك تريد أن تسألنى بم غفر لى ؟ » فيقول : أجل، وإن فى ذلك لعجبا . فيقول عبيد : إنى دخلت الهاوية وكنت قلت فى أيام الحياة :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد ، فلم يزل ينشد ويخف عنى العذاب، حتى أطلقت من القيود والأصفاد . ثم كرر إلى أن شملتنى الرحمة ببركة هذا البيت . وإن ربنا لغفور رحيم » . قال أبو العلاء : « فإذا سمع الشيخ ما قال هذان الرجلان (زهير وعبيد) طمع فى سلامة كثير من أصناف الشعراء » .

ويمضى بصاحبه « فإذا[2] هو ببيت فى أقصى الجنة كأنه حِفش أَمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة . وعنده شجرة قميئة (حقيرة) ثمرها ليس بزاك . فيقول : يا عبد الله لقد رضيت بحقير .

فيقول : والله ما وصلت إليه إلا بعد هياط ومياط (أشد السوق فى الورد والصدر) وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن . . . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا الحطيئة العبسى ، فيقول : بم وصلت إلى الشفاعة ؟ فيقول : بالصدق فى قولى :

---

(١) رسالة الغفران (طبعة هندية) ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه ص ٨٣

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما بهجر فلا أدرى لمن أنا قائله !
أرى لى وجهاً قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله !

فيقول : ما بال قولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

لم يغفر لك به ؟ فيقول : سبقنى إلى معناه الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ، فحرمت الأجر عليه . »

على هذا النحو ، يمضى أبو العلاء فى تصوير التوبة والمغفرة فيظهر لك الغفران أمراً هيناً قريب المنال .

لـكنه لا يمضى على هذه الفكاهة المرة ، فرسالة الغفران لا تخلو من جد صارم حزين ، تحسه حين ترى أبا العلاء يمضى بصاحبه (ابن القارح) إلى شعراء آخرين لم يغفر لهم « فهم حطب لجهنم ، كلامهم ويل وعويل ، يغمض أحدهم عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من العذاب ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار » . يتأملهم أبو العلاء حزيناً متألماً ثم يصيح على لسان أحدهم (أوس بن حجر) وقد سئل عن أبيات رُويت له وللنابغة « قد[١] بلغنى أن نابغة بنى ذبيان فى الجنة ، فاسأله عما بدا لك . فلعله يخبرك ، فإنه أجدر أن يعى هذه الأشياء . فأما أنا فقد ذهلت : نار توقد ، وبنان يعقد ، إذا غلب على الظمأ رفع إلى شىء كالنهر ، فإذا اغترفت منه لأشرب ، وجدته سعيراً مضطرما . ولقد دخل الجنة من هو شر منى ، ولـكن المغفرة أرزاق ! كأنها النشب فى الدار العاجلة ! » .

هذا الجد الصارم تحسه كذلك من أبى العلاء فى اللزوميات والفصول والغايات . تراه يبعد فى تأمله — حين يقوى جنوحه إلى الجبر ، فيدركه العجب والحزن ، ويصيح فى ألم يشبه أن يكون اعتراضاً .

---

(١) رسالة الغفران ط هندية — ٩٩

لِمَنْ تؤاخذ بالجرّى التى سلفتْ وما تحركَ حتى حُرِّكَ الجرس ١٢/٢
مهجتى ضــــــدر يحـابنى أنا منى كيف أحـــترس ؟ ١٠/٢
من وسخ صــاغ الفتى ربه فلا يقـــــولنّ توسختِ ١٧٣/١
وما فسدت أخلاقنـا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقـــــادر ٤١١/١
نحن شئنا فلم يكن ما أردنا ه وتمتِ لله فينـا المشيئـة ٤٣٣/١

وقال فى الفصول والغايات :

و بئس الربُ ربٌ لا يعذر ، إن غفل قاتٍ (خادم) فى بعض الأوقات . (٣٠٤)

(أبو العلاء — كما رأينا — طامع فى عفو الله مهما كانت الذنوب والآثام . يرى المغفرة قريبة وينكر المسئولية والعقاب ، ما دامت أخلاقنا لم تفسد باختيارنا)

ولــكنه لا يطمئن إلى هذا ، لأنه كما قدمنا لايثبت على القول بالجبر — بل تدركه لوثة الشك فيرتاب ، ويصيح فى فزع رهيب :

وراعنى للحســـاب ذكـر وغـرنى أنه بعيـــــــد لز١/٢٥٩
ذكّرتْنى عقـــوبةً من إلهى فاستطيرُ الفـــؤاد للتذكير ٤١٨/١
والرملُ يشبه فى أعداده خطئى فما أهم له يوماً بإحصــــاء ٦٦/١
فهل عاينوا فى مضجعى لجرائمى كتائبَ من زنج ، تروح ، ونوبِ
وهل يجعل الأرضَ التى ابيض لونها كلون الحرار الُحمسِ ، لونُ ذنوبى ١٢٨/١
نرجو السلامةَ فى العقبى وما حسنت أعمالنا فيرجى الفوزُ والغرف !
ما بان قوم عن الأولى بما جمعوا من الحطام ، ولكن بالذى اقترفوا ٩٢/٢
إنىَ حىّ رانَ ذنبى على قلبى ، فما أنفــــك حيرانًا ٣٥٧/٢

وقال فى الفصول والغايات :

لقد خفت النقمة من رب العظمة .

واجعل خوف الله نصب فكرك ، والموت غير خال من ذكرك ، اسود عملك فما حزنت ، وحزنتك بيض الشعرات . (٩٤)

ما أضيق على دنياى ! أخطأت خطأ لا أقول معه دراك ، والمتخلف مظنة من فوت الصحاب . (٥٣)

لا يخلو اليوم من اقتراف . إما ظاهر وإما خاف ، فالواجب أن أظل كناقف الحنظل أو الباكى عند السمرات . (١٣٠)

وإنى سائلك : هل أبقت السيئات عندك موضعاً للحسنات ؟ (١٣٨)

غفران إلهنا مأمول ، ولكنك أيتها الحشاشة فرطت فأوبقت ، حتى خلفت وسبقت ، فانظرى هل من متاب ؟ (٤٦)

هل من راق لذى إيراق بات شاكياً ، من الخيفة باكياً ، يسأل ربه غفران الكبائر . والله القابل توبة التائبين . (١٣٩)

ويبعد أبو العلاء فيضيف إلى الجماد والنبات، الخوف من العقاب ، ويقول بإمكان العقاب معها . قال فى الفصول والغايات :—

نكزت القلب من خوفك ، فما سقى بياض بسويد ، وكأن بعض الشجر عصاك فحمل ، فلما قارب الكمال أو كمل، أرسلت سحاباً ذا عمد حمر ينفض على الثمر ، حصى من جمد . . . . لقد بات بحيبة شر من حاب . (٥١)

(هكذا تردد أبو العلاء بين الأمل فى المغفرة ، والخوف من العقاب، وكان تردده كما رأيت صدى لاضطرابه فى أمر الجبر والاختيار .)

عدل الله

بقى أن نسمع قول أبي العلاء فى عدل الله . ولو أن أبا العلاء اطمأن إلى الاختيار كما فعل المعتزلة ، لأراح نفسه من العناء ، كما أراحوا أنفسهم وسلم لهم مبدؤهم فى عدل الله .

ولكن أبا العلاء صرح بالجبر وأسرف فيه ، والقول بالجبر ، مع الاعتراف بالثواب والعقاب ، يبدو منافياً لعدل الله .

إن كان مَن فعل الجرائم مجبرا   فعقابه ظلمٌ على ما يفعل
والله إذ خلق المعادنَ عالمٌ   أن الحداد البيض منها تُجعل
سَفَكَ الدماء بها رجالٌ أعصموا   بالخيل تُلجم بالحديد وتُنعل لز٨١/٢

فإن كان شيطان له يستفزه   فأيهما عند القياس تلوم ؟ ٢٦٣/٢

وما كان المهيمن وهو عدل   ليقصر حيلتى ويطيل لومى ٣١٢/٢

إنما نذكر هنا أن أبا العلاء لم يطمئن إلى الجبر الاطمئنان الكافى ، وأيًّا كان رأيه واضطرابه فى الجبر والاختيار ، وتردده بين الأمل فى المغفرة والخوف من العقاب ، فإن الرجل ثبت عند التسليم لله والقول بعدله ، وتنزيهه تعالى عن الظلم والخطأ والنقصان رافضا أن يقيس أفعاله تعالى بأحكامنا ، فهو تعالى لا يسأل عما يفعل .

لا ريب أن الله حق فلتعد   باللوم أنفسكم على مرتابها لز١٤١/١

وقال فى الفصول والغايات :

أعدل بالحاكم على خلقه بالمنية ، يحيدون من خطب إلى سواه . (١٦٩)

جل القادر عن ارتياب . (٣٨)

لا ريب فى أن الله حكيم . (٤٨)

قحطان لك (يا رب) ومعد. وجرى بقدرك النحس والسعد، وصدق منك الوعد، لا تظلم أحداً ولا تعدُ، كنت من قبل وتكون من بعد، لا تفتقرُ فى عزك إلى الحلفاء. (٣٠)

والرب يستجار، ولا يخرج مما يقضيه الجمد ولا الحيوان، ولا يفعل إلا ما رضى وشاء، وغيرُ متعلق به الزيغ والخطأ ولا شىء من الدنيات. (٣٣١)

وأبو العلاء مخلص فى هذا التمجيد، لا يصدر فيه عن تقية أو تقليد، وإنما كان يؤمن بأن الله خالق حاكم « لا يرد عليه عجب والحكم له ». لا تجوز عليه أحكامنا، ولا يفعل إلا ما رضى وشاء، لا حجة لمخلوق عليه، « وله الحجة على كل مخلوق ». الفصول. (٣٠)

المقالة السابعة :

المرحلة الثالثة

من مراحل الحيـاة الإنسانية

الموت ومصـــير الإنسان

١ — سوء ظن أبى العلاء بالدنيا ورغبته فى التخلص من محنة الحياة .
٢ — فزعه الرهيب من الموت وتشبثه بالحيـاة .
٣ — أسباب فزعه من الموت
أ — لم يبرأ من حب الدنيا ؟
ب — الجهل والخوف مما وراء الموت .
ﺟ — الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى .

آن لنا أن نترك تلك الأبحاث العقلية ، بما تثير من مشكلات أتعبت أبا العلاء وأتعبتنا معه ، نتركها لنخلص إلى أبى العلاء وحده ، وننفذ إلى أعماق نفسه ، فنرى كم أحب الحياة ، وكم تشبث بها ، وكم تَعِب منها . وسنطيل الوقوف معه عند اللحظة الحاسمة التى ينطفئ فيها سراج العمر وتنتهى الحياة ، فقد أطال صاحبنا الوقوف عندها وتمثلها تمثلاً ملحاً ، وأحسها إحساساً قوياً .

سنرى أبا العلاء هنا فى صراع رهيب بين حب الدنيا ومقتها ، بين الفزع من الموت والترحيب به . سنرى نفسه ميداناً لألوان من العواطف : عنيفة ، متناقضة ، تتجاذبه وتنهكه وتعييه ، وهو منطوٍ على نفسه ، معتكف فى دنياه ، يرصد هذه العواطف الجياشة المضطربة ، ويشهد هذا الصراع ويعانى أهواله .

٭٭٭

سوء ظنه بالدنيا ورغبته فى التخلص من محنة الحياة

كيف واجه أبو العلاء مأساة الموت ؟

(شاع فى الناس أن أبا العلاء زاهد فى الدنيا منصرف عنها ، راغب فى الموت مترقب له . ومن الحق أن الرجل قد أسرف فى ذم الدنيا ورأى الحياة كلها تعباً ، والتناسل جريمة والوجود شراً . وقد ألح فى تنفير الناس من الدنيا وتذكيرهم بشرورها ومتاعبها وغدرها . وحثهم على الصدود عنها والزهد فيها . وكان إحساسه بمتاعب الحياة وضيقه بالدنيا مبكراً) ففى سقط الزند أبيات متشائمة قال بعضها فى عهد مبكر (انظر مرثيته[1] لأبيه)

ذم للدنيا

قال أبو العلاء فى سقط الزند :

تجربةُ الدنيـــا وأفعالهـا حثت أخا الزهد على زهده ٤/٢

ضجعةُ الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مثل السهاد ٢١١/١

تعبٌ كلها الحيـاة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

إن حزناً فى ساعة الموت أضعا ف سرور فى ساعة الميـلاد ٢١٠/١

على أم دفر غضبةُ الله إنهـا لأجدرُ أنثى أن تخون وأن تخنى ١٩٤/١

وقال فى اللزوميات :

فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً فإنى عنهـا بالأخـلاء أربأ

وما نُوب الأيام إلا كتائبٌ تُبَثُّ سرايا أو جـيوشٌ تعبأ ٤٨/١

(١) شرح التنوير على سقط الزند جـ ١ ص ١٩٥

خسئت يا أمنا الدنيا فأف لنا   بنو الخسيسة ، أوباش أخساء
يموج بحرك والأهواء غالبة   لراكبيه فهل للسفن إرساء ١/٥٤

وليت وليداً مات ساعة وضعه   ولم يرتضع من أمه النفساء ١/٦٣

قضى الله أن الآدمى معذب   إلى أن يقول العالمون به قضى
فهنىء ولاة الميت يوم رحيله   أصابوا تراثاً ، واستراح الذى مضى ٢/٦٩

لا تلبس الدنيا فإن لباسها   سقم وعرّ الجسمَ من أثوابها ١/١٤٢
دنياك دار إن يكن شهادُها   عقلاء ، لا يبكوا على غيابها
ما الظافرون بعزها ويسارها   إلا قريبو الحال من خيابها ١/١٤٣

رغبنا فى الحياة لفرط جهل   وفقدُ حياتنا حظٌّ رغيب ١/٩٣

يؤمل كلٌ أن يعيش وإنما   تمارسُ أهوال الزمان إذا عشتا ١/١٧٥

يخوفنا أهوالَ ما هو كائن   ويكفيه من أهواله ما نمارس ٢/٩

وقال فى الفصول والغايات :

الدنيا دار حسرات (١٠٥) ودار شقاء (١٦٠) وهى زائلة زوال الظلال (١٧٦)

والدهر يلعب بنا حالا بعد حال. (٢٩١)

والدنيا غير وافية، ليست الحياة فيها بصافية، إن الكدرَ لكأس العيش مزاج . (٢٩٥)

غفرانك اللهم ! عرفتُ الدنيا لو نفعت المعرفة ، وعلمتُ أنها أخون من الورقاء ، وشر العلم علم لا ينتفع به . (٣٣١)

ولو كنت مؤدياً لها لثقل علىّ أمرها (٣٥٨)

الدنيا حية عرماء ، لمعة بيضاء ولمعة دهماء ، والأيام عوارم لا تترك لحى عراماً (٤١٢)

ما البقاء إلا طول شقاء ، والحياة ظلمة ليس فيها إياة ، ومن السعادة أن يموت القوم كراماً . (٤٤٣)

إحساس بمتاعب الشيخوخة

وكان أبو العلاء — (فوق إحساسه بمتاعب الحياة — يحس متاعب الشيخوخة ويصورها تصويراً شعرياً) فيقول فى اللزوميات :

إذا ما أسن الشـيخ أقصاه أهله وجار عليه النجل والعبد والعرس

وأكثر قولا ، والصواب لمثله ، على فضله ، ألا يُحَسَّ له جرس ٣/٢

لا خير للفم فى بسـط الحياة له حتى تساقط أنيـاب وأضراس ١٧/٢

وقال فى الفصول والغايات :

يرتع الحى وينتقل ، ويعنق فى حياته ويرقل ، حتى إذا الأيام تصرمت ، وحقب مدته تجرمت ، وجاء الوقت ، وقع من أهله المقت . (٦)

وليس للهرم من مُـكرم . (١١٤)

من هلك وهو شاب ، ما شمط ولا شاب ، فإنه لو هرم لمل وبرم . والكبر بئس المسبر : ملأ الأنف ، وأخلى الأذن من الشنف ، وجعل بيض الثنايا سودا ، وأما كنها وهودا . (١٤٤)

أهل البيت بالوليد فرحون ، وهم بالشيخ متبرمون : كلام هذا يستظرف ، وكلام ذاك خرف . (٢٦٧)

وإذا فنى صباك فلا جنوبك تحمد ولا صباك . (٣٠٣)

فيا حالية . . . . إنك وُلدتِ عاطلة سلتاء . وأشرك إن عمرت درد . ونعمة

جسمك تخدد ، وريًّا فيك إلى ما تعلمين . . . . . . يتبرم بك ولدك فبئس ما جازاك ، لقد حملتِ فوضعت ، وغذوت وأرضعت ، وسهرت لأجله والناس نيام ، وآثرتِه على نفسك فى أشياء كثيرة فما حفظك ولا رعاك .

أثمل ثوبٌ فنبذ — وهرِم عود فتُرك بالمراح . (٣٨)

سرك بقاء أهلك ! لو سلمت الحواسُ لحمد البقاءَ الناس ، ولكن الموت أجملُ بذلف مفندين ، ونهابل من الكبر مهترات . (١٠٤)

ضيقه بمأساته ورغبته فى التخلص من محنة الحياة :

هذه نظرة أبى العلاء إلى الدنيا ، وهذا تصويره لما وراء البقاء فيها من متاعب وشيخوخة . فأما نظرته إلى عالمه الخاص وحياته المستقلة، فقد سمعته فى المقالة الثالثة[1] يحدثك عن إحساسه المر بمتاعبه وضيقه بمأساته ، وعرفت خطأ الذين زعموا أنه راض نفسه على الصبر والرضا والاستسلام .

تمثل هذا الرجل المتشائم المتعب يواجه مأساة الموت ، ألا تنتظر منه أن يهش له ويرحب به ويسعى إليه ويرغب فيه ؟ أجل . . . وقد فعل أبو العلاء ، تمناه واشتهاه وسعى إليه ، ورأى فيه البرء من السقام ، والمهرب من المحنة ، والراحة من التعب .

قال فى سقط الزند :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مثل السهاد ٢١١/١

وقال فى اللزوميات :

رب متى أرحل عن هذه الدنـ ـيا فإنى قد أطلت المقام

---

(١) يرى لى أستاذى الجليل أمين الخولى، أن أجمع تأملات أبى العلاء الخاصة بمأساته ، لتكون موضعا لتناولٍ فنى نفسى ، قد يفسر كثيراً من عقد نفسه ، بل يفسر كثيراً من تأملاته . وأرجو أن أفعل ذلك إن شاء الله .

لم أدر ما نجمى ولكنه في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديق يترجى يدى ولا عدوى يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتى بشفاء السقام ٢/٢٢٤

إذا لم يكن خلفى كبير يضيعه حمامى ، ولا طفل ، ففيم حياتى ؟ ١/١٨٢

إن يرحل الناس ولم أرتحل فعن قضاء لم يُفوض إلىّ
خُلِّفتُ من بعد رجال مضوا وذاك شرٌ لى ، وشر علىّ ٢/٤٣٧

موتٌ يسيرٌ معه رحمة خير من اليسر وطول البقاء
وقد بلونا العيشَ أطوارَه فما وجدنا فيه غيرَ الشقاء ١/٦٨

كأسُ المنية أولى بى وأروح لى من أن أكابد إثراء وإحواجاً ١/١١٢

وما العيش إلا علة برؤها الردى فخل سبيلى ، أنصرف لحياتى ! ١/١٨٢
متى ينقضى الوقت والله قادر فنسكن فى هذا التراب ونهدأ ؟ ١/٤٨

أيفكنى هـذا الحمام تفضلا فالعيش أوثقنى وشد رباطاً ٢/٧٠

دعا لى بالحياة أخو وداد رويدك ، إنما تدعو عليَّا
وما كان البقاء لى اختياراً لو ان الأمر مردود إليا ٣/٤٣٠

إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً فثم أفقد أوصابى وأمراضى ٢/٦١

إذا طُفئتْ فى الثرى أعينٌ فقد أمنتْ من عمىً أو رمد ١/٣٠٢

وقال فى الفصول والغايات :

أرتفع والقدر يكبنى . . . . . كم أستنسر وأنا من البغاث ! ٢١٦

لا أعتدل أبداً ولا أستقيم ، مغبون فى الدنيا غبين .. (٣٧٠)

كم بت وظللت ، فقد سئمت الحياة ومللت . كم أبللت من المرض فما بللت (٢٨٥)

مولاى ! قد سئمت هذه الدار وأنا فيها بخير ، فانقلنى باختيارك إلى حيث تشاء .. وتخيرُ العبدِ على مولاه شقاق . (٣٤٨)

واسمع أبا العلاء يردد زعم القائلين بالتناسخ فيرثى لشبيهه مما يكابد :

وما أعود إلى الدنيا وقد زعموا   أن الزمان بمثلى سوف يحكينى
وارحمتا لشبيهى فى حوادثه   ينكيه ما كان فى الأيام ينكينى لز ٣٧٤/٢

ولعل الكثيرين لا يعرفون أن أبا العلاء قد حاول بالفعل أن يفر من الحياة ليضع حداً لما يكابده فيها من أهوال ثقال . ولكن كيف الفرار ؟ ودَّ لو باعه أحد بحياته ميتة سرحا ، واستنزل لعنة الله على من ندم :

من باعنى بحياتى ميتة سرحا   بايعته ، وأهان الله من ندما لز ٢٨٧/٢

ولكن أحداً لم يملك أن يعقد له هذه الصفقة . فالتمس المسكين مخرجاً بالانتحار ، وهمّ به فعلاً ثم عاقه الخوف والجهل بما وراء الموت .

وقد حدثنا عن هذه المحاولة فى ثلاثة كتب له وصلتْ إلينا : فى اللزوميات ، وفى الفصول والغايات ، وفى رسالة الغفران .

قال فى اللزوميات :

لو لم تكن طرقُ هذا الموت موحشة   مخشية ، لاعتراها القوم أفواجاً
وكان من ألقت الدنيا عليه أذى   يؤمها ، تاركاً للعيش أمواجاً
كأس المنية أولى بى وأروح لى   من أن أعالج إثراء وإحواجاً ٢١٢/١

* * *

ولعل قائلاً يقول إن هذه الأبيات ليست صريحة الدلالة على أنه هم بالانتحار ،

فلا يبعد أنها خاطرة ألمت به . ولكن لدينا ما هو صريح الدلالة على أنه همَّ بالأمر ، لدينا قوله فى رسالة الغفران :

« قد كدتُ ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أرهب قدومى على الجبار ، ولم أصلح نخلى بإبار . » ٢٠٢/١

(وقوله فى الفصول والغايات : « لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكن أرهب غوائل السبيل ! ») (٦٢٠)

* * *

إلى هنا نرى الرجل واضحاً مفهوماً : متعب متشائم يائس ، ضاق بمحنته ، وضاق بشرور الدنيا ، فاشتهى الموت وتمناه .

وهذه الصورة التى عرضناها لأبى العلاء تلائم رأى الناس فيه وفكرتهم عنه .

ولكنا نعرض عليك بعد هذا ، صورة أخرى لأبى العلاء .

٢

صورة أخرى لأبى العلاء

فزعه الرهيب من الموت — وتشبثه بالحياة

رأينا أبا العلاء فى المقالة السابقة ، يسرف فى ذم الدنيا إسرافا لا حد له ويلعنها فى قسوة وإلحاح . رأيناه يئن من هول ما يكابد من متاعبه الخاصة ، ويفزع إلى الموت يلتمس فيه المخلص والمهرب .

والآن نزيح الستار عن جانب آخر من نفس أبى ، العلاء فإذا هو يبدو فى صورة أخرى مختلفة كل الاختلاف عما رأيت وسمعت .

فزعه من الموت :

(هذا الرجل المتعب الشاكى المتشائم ، يفزع من الموت فزعا رهيبا ، ويتمثله تمثلا عنيفا ملحا لا ينفك عنه) .

فلنصغ الآن إلى هذه النغمة الجديدة ، تصدر عن ذلك الإنسان المضطرب الحائر . ولنرقبه وهو يعانى صراعه العنيف ، وعواطفه المتناقضة ، وإنا لواجدون إن شاء الله ما يفسر اضطراب الرجل وتناقض عواطفه وأقواله .

* * *

(الموت يقين — يقين لا شك فيه ، وحق لا ريب فيه ولا مماراة . بهذا كان يؤمن أبو العلاء . قال فى اللزوميات :

سنتبع آثار الذين تحملوا   على ساقةٍ من أعبد وإماء
نهاب أموراً ، ثم نركب هولها   على عنت ، من صاغرين قماء   ٦٤/١

وما نفس إلا يباعد مولدا   ويدنى المنايا للنفوس فتقرب   ٨٣/١

وللموت كأس تكره النفس شربها   ولا بد يوماً أن يكون لها شربا   ١٠٠/١

مضى أناس وأصبحنا على ثقة   أنا سنتبع ، فالأشجان تعتلج
إن أدلجوا وتخلفنا وراءهم   شيئاً يسيراً ، فإنا سوف ندلّج   ٢٠٧/١

جميع الذى نحن فيه النفاق   ونلحقُ بالذاهب الزائل   ٢٤٤/٢

أما اليقين فإننا سكن البلى   ولنا هناك ، جماعة فراط   ٦٧/٢

أما الحقيقة فهى أنى ذاهب   والله يعلم بالذى أنا لاقى   ١٣٩/٢

والموت أصدق حادث وأصحه   وكأنه كذب يسر فينغم   ٢٧٥/٢

خلقنا لشىء غير باد وإنما   نعيش قليلا ، ثم يدركنا الهلك   ١٤٢/٢

وقال فى الفصول والغايات :

أضح وأمس ، وأيقنْ بالرمس ، نبأ غير لَبس ، ما أشبه غداً بالأمس ! (٢٥٤)

وأعلمُ أن الملحد آخر منزلى . (٢٧٢)

سر يا منسر فالقياس لا ينكسر ، إن المنايا عنك منقبات . (١٩٣)

أعظم بعزتك (يارب) . ذهب الأبد وأنت لا تحول ، لا أعلم كنهك ولا أهوء وأوقن أنى فى الغد أموت . (٣٧٤)

أمر الآخرة جِد، وأمر الدنيا جد ، وسيصرم الإنسان ويجد ، كما ذهب الأب والجد (٢٢٧)

وكلنا إلى ذلك المنزل نؤوب . (٢٥٠)

تمثل الرهيب للموت

(وقد فزع أبو العلاء من هذا اليقين فزعاً رهيباً ، وتمثله تمثيلا قوياً عنيفاً ، ولم يكن ينفك عن تذكره وتذكير الناس به) قال فى اللزوميات :

وإن حبال العيش ماعلقتْ بها يد الحى ، إلا وهى تخشى انقضابها ١/١٠٢

وللموت كأس تكره النفس شربها ولا بد يوماً أن يكون لها شربا ١/١٠٠

وقال فى ملقى السبيل :

مَرّ أبى تابعـــــاً أباه ومُدّ وقتٌ ، فكم أعِيشُ ؟
تطيش نبــل الرماة منا وأسهم الحتف لا تطيش !
ولم يزل للمـــــنون جيش تُفــل من ذكره الجيوش
يحث بالنعش حامــلوه وشد ما سارت النـــعوش

وقال فى الفصول والغايات :

تجهز للظعن أيها المقيم ، إن أمامك بواكر الأحداج . (١٨٤)

يا ابن آدم ، علقت من الدنيا بأضعف مرس ، فهل لحشاشتك من حرس ، فامهد لضجعتك يا صاح ! (٣٤٨)

وانظر على أي رحل تركب ، فنفسك مرتحلة مع المرتحلات . (١٥٥)

أظننت الإقامة ؟ فكذب الظن ، ألا تأهب للرحلة فالمكر على جناب . (٤١)

وابك نفسك وأنت حي ، فكلنا يلحق بالأمم المتقدمات . (١٤٣)

وابك على نفسك بدموع أسراب . (٥٧)

وإذا اغتبطت ، فاذكر ما يطرق به الموت من السكرات . (١٠٤)

غدت المنية بنبل كالوبل ، وسهام ألطف من الأوهام . (٢٩)

واسمع أبا العلاء يتمثل الموت ويتفنن فى تمثله ، فهو مرة وحش يفترسنا ، وهو مرة سيف يقطعنا ، وهو مرة ثالثة آسر يأخذ بنواصينا ، ونحن معشر الضحايا الضعفاء نشهد هذا فى سوانا وننتظر دورنا .

وما زالت الأيام وهى غوافل تسدد سهماً للمنية صائباً لز١/١٠٣

وتأكلنا أيامنا ، فكأنما تمر بنا الساعات وهى أسود ١/٢٤٣

والمنايا كالأسد تفترس الأحيا ء جميعاً ، ولا تعاف القليبا

تفزع الشامخ المنيف من الشمِّ وتهوى فتستبيح القليبا ١/١١٥

تلقى المقادير فى آنافهم خطما يقدنهم لمناياهم بأرسان ٢/٣٧٠

والحتف كالثائر العادى يصرعنا والأرض تأكل ، هلا تكتفى الضبع !؟ ١/٨١

وقد بدا لأبى العلاء كأن هذا الغول الرهيب يطاردنا ويقف لنا بالمرصاد ، وهو يلح فى طلبنا ، لايهدأ حتى يظفر بنا وإنه لظافر مهما أمعنا فى العدو ، أو اعتصمنا بالمعاقل والمآمن . هو غالب ، قاهر ، باطش ، لامفر منه ولا عاصم ، ولا رقية ولا طب .

قال فى سقط الزند :

يا دهر يا منجز إيعاده   ومخلفَ المأمولِ من وعده !
تستأسر العقبان فى جوها   وتنزل الأعصم من فنده
كأننا فى كفه ماله   ينفق ما يختارُ من نقده

وقال فى ملقى السبيل :

يا ابن آدم ، كم تحرس وتحترس والموت أسد مفترس ؟

أيحترس المرء من حتفه   وما حاد عن يومه المحترس ؟
هل الناسُ إلا نظير السوا   م ، وآجالهم أُسد تفترس ؟
يحُل الربى ، ويحُل الوهو   دَ ، ولا بد للربع أن يندرس

العاجلة سبيل منفوذة ، والأنفس بحق مأخوذة . لا الدرع تنفع ولا الخوذة .

لا سقية أغنت ، ولا رقية   ولا تميات ولا عوذة !

***

وفت عُدد لديه فمن دروع   وأسياف ينوء بها عديد
بدا شخص المنون لناظريه   وقيل له : أتبدى أم تعيد ؟
تفرقت الجنودُ فما حمته   وأبطلت المواعد والوعود

وقال فى الفصول والغايات :

أيها الوعل الوقل ، والطائر المستقل ، والمكثر والمقل ، والمسافر والمنتقل ، الا يعصمك معقل (٥)

إن المنية أخذت الدرة من الوالدة ، والدِرة من الوليد ، وهجمت الغابَ على الضارية ، والخدرَ على الجارية ، وأتت وجارَ الحشرة . . . فغالتْ الوحوشَ الرائعات . (٢٣٠)

يا ويح الإنس ، حملوا القنا للشر من الأشر . وإذا حضر القدرُ لم يغن القنا عن المشرعين ، والموتُ جامع بين الطفل والهرم ، ولك يا غراب حبالة عند الوكر ، ولو كان فى أعلى نيق . (٢٥٩)

والقدرُ يضع المسدّ فى أعناق ليوث الأسد (١٦٣)

وقدرُ الله يفترس المفترسات . (١٦٨)

أيها المنتبذ ، كن فى النيق أو الجر (أعلى الجبل أو أصله) ، لو رقيت إلى السماء بِكرّ (حبل) ، ما وجدت لك من مفر . (٣٥٣)

وإن تصبحوا وراء شق الثعلب ، فالقدر معكم . لا فرار من قضاء الله ، فاصبروا على ما حكم إنه واعى الكلمات . (١٢٦)

لا ينجى النفسَ اعتصامُها ، يسلمها فى الغد عصامُها ، ولو كان عند الجوزاء مصامُها (٢٧٤)

إن الآجال كأنها الرجال ، بنت الظللَ على القلل . ونظرت من يمر بالسبيل ، فما خفى عنها راكبٌ ولا صاحب حذاء . (٢٤٣)

وقال فى اللزوميات :

كن حيث شئتَ بلجةٍ أو ربوة ... أو وهدة ، سينالك التيار ١/٣٣٩

ودرعُك إن وقتكَ سهامَ قوم ... فما هى من ردَى يوم وقاء ١/٥٤

فارقبى يا عصماء يوماً ولو أنـ ... ـك فى رأس شاهق ، عصماء ١/٥٨

إن دنا من فارسٍ أجلٌ ... حارَ لا يجرى به الفرس

كل من حانت منيته ... لم يدافعْ دونَه حرس ٢/١٠

أظاعن أنت ، أم راس على مضض ... حتى تخونك من دنياك أمراس ؟

هل تمنعنك بيضٌ أو متقفة ... أو ينجينَّك أجمال وأفراس ؟ ٢/١٧

ودِرع الفتى فى حكمه ، درع غادة ... وأبيات كسرى من بيوت العناكب ١/١٢٣

تتبعنا في كل نقب ومخرم منايا لها من جنسها نقباء ١/٤٥

إذا كان القضاء يجيء حتما فما هذى المغافر والدروع ؟ ٢/٧٤

هذى القضايا فمن يطاولها ؟ وهي المنايا فمن يخاشنها ؟
لم يثنِ عن فارس وحميرها دروعها الموتَ ، أو جواشنها
ولا قصورٌ لها مشيدة قد مُوِّهَتْ عسجداً رواشنها ٣٣٨

والموت طب ليس يبر ئه الحكيم وإن تطبب ١/١٥١

بكر الطبيب على الدواء ، وللردى كأس تعم صحاحها ومراضها ٢/٦٠

ويدعو الطبيبَ المرءُ وافاه حينه رويدك ! إن الأمر جل عن الطب ١/١٢٠

كلّ علمُ الطبِ عن مرض المو ت ، وقد ناب فيه كل مناب ١/١٤٧

رقتنى الراقيات وحُمَّ يومى فغادرنى كأنى ما رقيت ١/١٦٩

شكا الأذى فسهرتَ الليل وابتكرتْ به الفتاةُ إلى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العرافَ قاضيةً عنه النذورَ ، لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطبيب ، يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفلَ عيسى أو أعيد له بقراط ، ما كان من موت يوقيه ٢/٤١٢

تشبثه بالحياة :

أرأيت كيف كان فزع أبي العلاء من الموت ، وكيف كان تمثله له ، وإحساسه بمطاردته لنا ، وإلحاحه فى طلبنا ؟ ولكنك لم تسمع بعد أروع وأعنف ما قال أبو العلاء فى الفزع من الموت ؛ سمعته يتناول المسألة تناولاً عاماً ، ولم تسمعه يحدث عن رعبه وارتياعه من الموت . . .

إن الناس قد عرفوا أبا العلاء زاهداً فى الدنيا كارهاً لها ، مرحِّباً بالموت راجياً له ، ولكن الكثيرين لم يعرفوه متشبثاً بالحياة فزعاً من الموت ؛ فاسمعه الآن يعرض نفسه ويحدث عما يجد ، وهو يرقب الموت يغول سواه ، وينتظر دوره خائفاً متشبثاً بالحياة :

أروم خلاصاً من قضاء مسلط — علىّ ، توخى قاهرَ الناس بالقهر لز١/٣٧٢

لو كانت الريح تحتى ما نجوتُ بها — فكيف أنجو بذات الشد والحضر؟ ١/٣٨٠

ولم أرد المنية باختيارى — ولكن أوشكَ الفتيان سحبي
ولو خُيرت لم أتركْ محلى — فأسكن فى مضيق بعد رَحب ١/١٣٢

وحبائل الدنيا تزيد على الحصا — وأقلُ أنفاسى أدق حبائلى ٢/٢٢٨

وكيف أقضّى ساعة بمسرة — وأعلم أن الموتَ من غرمائى؟ ١/٦٤

أعلل مهجتى ويصيح دهرى — ألا تغدو ، فقد ذهب الرفاق ؟ ٢/١٢٢

يمر الحول بعد الحول عنى — وتلك مصارع الأقوام حولى
كأنى بالألى حفروا لجارى — وقد أخذوا المحافرَ وانتحوا لى ٢/٢٣١

وقال فى الفصول والغايات :

كرهتُ المنية وأبيتها . (٢٣٣)

كم أغدر وأنكث ، آمل أننى أمكث ، والمنية آخذة بالناصية أخذَ الآسر بناصية الأسير . (٢٤١)

شغلنى عن النسب ، وقول فى النسب ، أنى أسلك من الحمام نيسباً ، أذهبَ النوم وأطالَ الأرقَ ، وأقلَّ رغبتى فى الشَرف ، أنى لا أجد عن ذلك مذهباً . . . جل ّ البارئُ ! هل تُحمل هذه النكبةَ منكباً أضاخ ؟ (جبل) (٤٢٢)

علىّ للمنايا دين ! (٣٠٩)

كأنى قتلتُ للمنايا أهلا ، فهى تنقب عنى حزناً وسهلا ، تطلب عندى التراث ! (١٠٥)

أطلب من المنايا حرزاً ، هل أجد عنها معتزاً ؟ (٣١٠)

لو لبست درعاً أريد للمنايا دفعاً ، لأزارتنى رؤوس الأراقم ، وأنا فى مثل برودها من الحديد الواقم ! (٢٠٩)

وقعت فى الحبالة فليس إلا التسليم ؟ وكيف حال قنيص أُخذ معه أمثال كثيرة ، فنظر إلى الأمثال تُعتبط ، وقد علم أنه سيعيد المديةَ له معيد ؟ (٢٩٥)

إنما أنا فرير فى ربق ، قد أُعدت له المديةُ ، يُنتظر به أمرُ الملك ، فتجرى الشفرة على الأوداج . (٢٨٣)

* * *

ويشتد فزع أبى العلاء من الموت وتشبثه بالحياة ، فيرتعد ويئن ، وتصدر عنه الكلمات شاكية صارخة بكاءة ، تذكرك بندب النائحات ، وأنين الثكالى ، ونواح الباكيات .

أعِنْ باكياً لج فى حزنه　　وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ لز/١/٢٢٣

وإن كنتِ شاديةً فاصمتى　　وإن كنتِ باكيةً فاصدحى ١/٢٣٥

يُهال التراب على من ثوى　　فآه من النبأ الهائل ! ٢/٢٤٤

وقال فى الفصول والغايات :

آه من ماء لا يسوغ ، ونَفَس لا تسمح به الأنوف ، وأنا ملقى أفوق — ذلك مسلك مسلوك ، تعبس به عند الهلوك . (٢٠٥)

ما يقول الخلخال فى رجل الكاعب ... إنه يحلف أن الحالية ستعطل ، والخدلة ... سترم ، والناعمة ستباشر التراب ! (٣٢٨)

أتدرى ما يقول المزهر أيها الطرب الجذلان ؟ ستذوى الروضة ، وترم القينة ، ويموت الشرب ، وتصبح الديار آيات . (١٨)

يا سوارَ الكاعب كم رأتِ ذهبَك من عين ؟ متى عهدُكَ بمعدنك ؟ لقد بقيتَ وفنى مدخروك ! يا ضاحكُ لتبكين ، ويا منزل لتوحشن ، ويا شمـــل إنك لرهين بشتات . (٨٧)

آه من شملٍ شتّ ، وحبل منبتّ ، لا يصله الواصلون .

أيتهـا النفس المجهشة مهلاً ! قرب مماتُك فلا تقولى كلا ! بليتِ وحسرتك لا تبـلى . (٣٩٤)

ثم اسمع هذا الحوار المر العجيب :

« يا جُوّاب الأرض ، هل مررتم بقطر لا يصوب فيه القطر ؟ نعم ، فى الأرض بلاد لا تجودها الأمطار .

« فهل أحسستم بعَطرةٍ ليست بذات مقطرة ؟ أجل ، إن كل روضة كذاك .

« فهل سمعتم بمكان ليس فيه للموت استمكان ؟ هيهات هيهات ! ! إن الموت نزل على الجبل والبراث » . (الفصول ٢١)

٣
أسباب فزعه من الموت

١ — لم يبرأ من حب الدنيا ؟
٢ — الخوف والجهل بما وراء الموت .
٣ — الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى .

نقف هنا لنسأل فيم يفزع أبو العلاء من الموت ؟ أليس متعباً والموت راحة ؟ ألم يضق بمحنة الحياة ويعتبرها جناية جناها عليها أبواه ؟ ألم يصرخ ويئن من هول ما يكابد فى حياته ؟ ثم ماذا وراء البقاء ، غير الشقاء والشيخوخة والملل ؟ لمَ يتشبث بالحياة مثلُ هذا المتعب المتشائم ؟

ما أسهل أن يقال إن أبا العلاء يترجمُ فى الحالين عن حالة نفسية ! فهو يضيق بالحياة حين تلح عليه الهموم ، وهو يفزع من الموت حين يهدأ ويهنأ . ذلك تعليل لاضطرابه وتناقضه يسيغه علم النفس ، ويؤيده الواقع المشاهد . فكل منا تمر به هذه الحالات ؛ يحزن فتسودّ الدنيا فى وجهه ويود لو يخلصه الموت ، ويفرح فيقبل على الدنيا ويشتهى طول العمر .

ما أسهل أن يقال ذلك فى أبى العلاء ! ولكنه قول يصدر عن الفهم اليسير والنظرة العاجلة . فأما إذا أبعدت فى الفهم وأمعنت النظر ، فسترى أن أبا العلاء لا يفزع من الموت حين تقبل عليه الدنيا ويهنأ بالحياة . ومتى كان المسكين راضياً عن حياته هنئاً بها ؟ سترى أنه يجزع من الموت وهو ضيق بحياته ، دقيق الحس لمأساته ، متنبه لآلامه ومتاعبه .

(نحن فى حاجة إذاً إلى أن نلتمس أسباباً تفسر لنا تناقضه واضطرابه ، وتعلل لنا جزعه الصارخ من الموت ، مع ضيقه بالحياة ، وضجره منها ، وتنبهه لآلامه ومتاعبه)

١ — حب الدنيا :

السبب الأول لفزع أبي العلاء من الموت وتشبثه بالحياة، أنه لم يبرأ قط من حب الدنيا.

قالة غريبة تبدو شاذة مع ما اشتهر به أبو العلاء من مقت الدنيا، وزهده فيها، وانصرافه عنها. ولكنها على غرابتها حقيقة واقعة، خفيت على الناس دهراً طويلاً، لأنهم خدعوا بوهم مكذوب، هو زهد أبي العلاء فى الحياة وانتصاره على الدنيا. ولكن الناس معذورون، فهذا الوهم قد خُدع به أبو العلاء حيناً من الدهر، والتمس فيه السلوى والعزاء.

* * *

كان أبو العلاء كما تعلم موفور الحظ من متاعب الدنيا، وقد حاول أول الأمر أن يتناسى محنته، فواجه الدنيا متكلفاً الجرأة والشجاعة. وخرج إليها يتحداها ويفرض نفسه عليها ويستصغر ما يصيبه منها. وقد عرفنا فى المقالة الثالثة كيف سخرت الدنيا بهذا التحدى، ورأيناه ينسحب إلى قريته ويأوى إلى عزلته حزيناً مهموماً.

هذا شيء فصلناه من قبل ولن نعيد الحديث فيه. إنما الحديث عن تلك اللحظة الحاسمة التى اعتزل فيها أبو العلاء، والتى كثرت فيها الأقاويل.

هل فرغ أبو العلاء فى هذه اللحظة من الدنيا وانصرف عنها؟

قال ناس أجل! لقد انتصر على الدنيا وداسها بقدميه. تجهمت له فسخر بها، وأعرض عنها وعاف ملذاتها جميعاً، فكان أن انقادت الدنيا إليه.

قال الميمنى عن رجوعه من بغداد:

« ولا بد[1] أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا... ولكنه لما روض نفسه

(١) « أبو العلاء وما إليه » ص ١٧٤

وقنعها على الكفاف ، عاد شماسها انقياداً ، وألقت إليه مقاداً »).

انقادت إليه الدنيا ؟ متى كان ذلك وكيف كان؟ ألا إنه لوهم مكذوب ، خدع به الناس ،(وخدع به الرجل نفسه)؛ فكتب إلى خاله يقول : إن أهل بغداد لم يسمعوا بعزمه على السفر ، حتى ارتاعوا له ، وألحوا فى نهيه عنه ، وبذلوا له الأموال ، ورغبوه فى ألوان النعمة فأبى ذلك كله ، وكأن نفسه انصرفت عن الدنيا أتم الانصراف .

ويصور أستاذنا الدكتور طه حسين بك هذا الوهم الذى ألم بخاطر أبى العلاء ، فيقول على لسانه حين لزم بيته سنة ٤٠٠ :

« مالى[1] وللدنيا ، لقد أتيتها كارهاً ، وعاشرتها كارهاً ، ولأخرجن منها كارهاً ، ولقد ذقت من لذاتها ما لم أرجُ ، واحتملت من آلامها ما لم أحتسب ؛ فإذا اللذة إلى ألم ، وإذا السعادة إلى شقاء ، وإذا الأمل إلى يأس ، والرجاء إلى قنوط ، إنى لأحمق إن لم أطرحها قبل أن تطرحنى ، وأزدرها قبل أن تزدرينى ، وأملأ قلبى عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل ! » .

هذا ما طاف بوهم أبى العلاء حين لزم بيته ، فهل تحقق له وأفلح فيه ؟ هل انصرف عن الدنيا أتم انصراف ؟ هل قوى على ازدرائها ، وملأ قلبه بالعزاء النافع والصبر الجميل ؟

(كلا ! لم ينتصر إلا على ملذاتها التافهة ، زهد فى الطعام والشراب وصحبة الناس . لكن زهده لم يكن إلا اعترافاً مرًّا رهيباً بتفاهة هذه الملذات إلى جانب ما كان يرجو ويطمع .

كان يرجو أن يحشد له كل نعيم الحياة ، فأعجزه قصور المادة وعجز الكيان . وبقيت له بعض ملذات مادية تافهة ، عرضتها عليه الدنيا فى إشفاق ، كما يعرض المحسن قرشاً على فقير .)

---

(١) « ذكرى أبى العلاء » (تجديد) ص ١٦٨

ما أتفه ما تتصدق به الدنيا عليه ، إلى جانب ما كان يرجو ويطمع !

(فكّر فى الأمر ، ثم انتهى إلى الرفض والتعفف). مثله مثل رجل ممتاز هيأته ملكاته إلى الظفر فى حلبة السباق ، ثم قصرت به قواه عن بلوغ الغاية فانسحب . ومن قبل قال الأمير أبو فراس :

وإنا لقوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

أراد أبو العلاء لنفسه أمراً ، وأراد له القضاء أمراً ، فكان ما أراد القضاء . خلقه الله لأمر حاول سواه فعجز . فماذا يفعل ؟ هل يأبق من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء ؟ ليته يستطيع ! ولكن بشريته تخذله ، فما كان منه إلا أن انطوى على نفسه يرصد أحزانها ، متكلفاً الصبر ، فظن الناس به الزهد .

وقال الفارسون حليف زهد وأخطأت الظنون بما فرسنه
ورُضت صعاب آمالى فكانت خيولاً فى مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عنى خنسته لز ٢/٣٥٣

طال صبرى ، فقيل أكثم شبعا ن وإنى لمنطوٍ طيـــان ٢/٣٩٣

(حاول الرجل أن يصارع القدر ويظفر بما أراد لنفسه ، فألفى القدر غالباً قاهراً لا يعاند . عاد إلى نفسه يقاوم ما فيها من حب الحياة ، ويجاهد أن يروضها على الرضا والصبر والاستسلام ، فما استطاع . وهو يصور لنا ذلك الصراع المزدوج ! صراعه مع الدنيا ومع نفسه ، ويصور فشله فيه تصويراً رهيباً ، يثير الحزن والألم ، ويبعث على الإشفاق والرثاء).

كتب إلى خاله أبى القاسم عند خروجه من العراق :

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت أجمعت على انفراد . »

وكتب إلى أهل المعرة :

« فشاهدت (فى بغـداد) أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتى فيه ، والجاهل مغالب القدر . »

وقال فى اللزوميات :

صحبت عيشاً أعانيـه ويغلبنى　　مثل الوليد يقود المصعبَ السدما
وقد مللت زماناً شرُّه لهب　　إذا دنا لخبوٍ ، عاد فاحتـدما ٢/٢٨

تنـازعنى إلى الشهوات نفسى　　فلا أنا منجح أبداً ، ولا هى ! ٢/٤٢٢

أريد ليان العيش فى دار شقوة　　وتأبى الليـالى غير بخل وليّان
ويعجبنى شيئان : خفض وصحة　　ولكن ريب الدهر غير شيانى
وما جبلُ الريان عندى بطائل　　ولا أنا من خود الحسان بريان
أريد عليـات المراتب ضَلةً　　وخرطُ قتادِ الليل دونَ عليان ٢/٣٦٣

تضاعفَ همى أن أتتنى منيتى　　ولم تُقض حاجى بالمطايا الرواقص
وما عالمى إن عشتُ فيه بزائد　　ولا هو إن ألقيت منه بناقص ٢/٥٧

إلهَ الأنام وربَّ الغمام　　لنا الفقر دونك ، والملك لك
إذا أنا لم أغن فى لذة　　أسفتُ ، وضاق علىّ الفلك ٢/١٦٨

أريدُ الإناخـةَ فى منزل　　وقد حُديت لسواه جمـالى
فمَنْ مخبرى أغرِيقَ البحـا　　ر ألقى الردى ، أم دفين الوصال ؟
هويتُ انفرادى كيما يخف　　عمن أعاشر ثقـلُ احتمالى
أما لِىَ فيما أرى راحـة　　مدى الدهر من هذيان الأمالى ؟ ٢/٢٤٣

وقال فى الفصول والغايات :

إنما أنا كرجل بُلى بالصدى ، لا يجد ورداً ولا مورداً ، فهو ظمآن أبداً : إن ورد غَروفاً (بئراً يغترف منها باليد) وجده مضفوفاً (كثيراً ورّادُه) ، وإن صادف نَزوعًا (بئراً يجلب ماؤها) ، أعوزته الآلةُ والمعين . (٣١٦)

أرتفع والقدر يكبنى — يألبنى دائماً ويلبنى . كم أستنسر وأنا من البغاث ! (٢١٦)

وإن الله خلقنى لأمر ، حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج . وفطام ابن عامين أيسر من فطام ابن الأعوام . . وأعيا تأديب الهرِم على الأدباء . (٢٣١)

قد فررتُ من قدر الله ، فإذا هو أخو الحياة . هل أطأ على غير الأرض أو أبرز من تحت السماء ؟ (٢٥١)

ودّ لو يستطيع ، ولكن بشريته خذلته .

ويزعم بعضُ الناس بعد ذلك ، أنه انتصر على الدنيا وسخر بها ، « فعاد شماسها انقياداً ، وألقت إليه مقاداً » !

ألا إنه لوهم تشبث به الرجل ، وأمل طاف به فى أحلام اليقظة ورؤى المنام ، وتمثله حقاً فمضى يسخر بالدنيا.

ولكن الحقيقة تعرّت باطشةً رهيبة :

فإذا الوهم مكذوب ، وإذا الأمل سراب !

لم يسلُ الرجل عن حب الدنيا ، ولم يبرأ من هواها ، ولم ينتصر عليها ، بل خرج من النضال وإن قلبه لينوء بحب الدنيا والحنين إليها ، وإن كيانه ليرزح تحت هوى مُلحّ ثقيل الوطأة .

(أحبها بقدر ما كرهها) وكان قصوره عن الانتصــار عليها يزيد حبه ضراماً .

وكانت وطأة الحرمان تزيد حنينه عنفاً وسعيراً .

عرفها غادرة ، خادعة ، قاسية .

ولكنه برغم ذلك أحبها . أحبها و إن كرهها ، وفتن بها و إن اصطنع الصد عنها . وحن إليها ، و إن زهد فيما أباحت له من تافه الملذات .

كان يريد أن ينتصر عليها . . . أن يملكها ، و يحتوى كل مجدها ونعيمها . . .

ولكن بشريته تخذله ، ومادته لا تسعفه . فجأر بالشكوى . . . . وصاح بها أنه يمقتها و يكرهها ويزدريها ، لكنه مع ذلك ظل يهواها .

أتظن ذلك حديث خيال وصنعة كلام ؟ إذاً فاسمع أبا العلاء يحدث عن حبه للدنيا و يئن مما يكابد من هواها ، ترنا غير مسرفين ولا خائلين . قال فى سقط الزند :

وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما … جنى النحل أصناف الشقاء الذى تجنى
فما رغبتْ فى الموت كُدرٌ مسيرُها … إلى الورد خمس، ثم يشربن من أجن
يصادفن صقراً كلَّ يوم وليلة … و يلقين شراً من مخالبه الحجن
ولا قلقاتُ الليلِ باتت كأنها … من الأينِ والإدلاج، بعضُ القنا اللُدْن
وخوفُ الردى آوى إلى الكهفِ أهلَه … وكلّفَ نوحاً وابنَه عملَ السفن
وما استعذبتْه روحُ موسى وآدم … وقد وُعدا من بعده جنتى عدن ١/١٩٦

وأملى فى رسالته إلى أبى نصر بن يوسف ، حين استدعاه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة :

« و إن العامة رأتنى مضطراً إلى القناعة فقالت زاهد . وأنا فى حب الدنيا جاهد »(١)

وقال فى اللزوميات :

نحن البرية أمسى كلنا دنفاً … بحب دنياه ، حباً فوق ما يجب ١/٨٥
وكلكم يبدى لدنياه بغضة … على أنه يخفى بها كمدَ الصب ١/١٢٠ .
لو أن عشقَك للدنيا له شبحٌ … أبديتَه ، لملأتَ السهل والجبلا ٢/١٩٣

(١) رسائل أبى العلاء (مرجليوث) ص ٦٠

والنفسُ آلفةُ الحياة فدمعها يجرى لذكر فراقها ، مُنهلُّه ١٨٣/٢

أُشربتُ حبَّكِ لا ينفيه عن جسدى سوى ثرًى لدماء الإنس شراب ١٣٣/١

وصَدَّقتُ هذا العيشَ فى حبى له واغترنى بخداعه وكذابه
عذبٌ يعذبنى البقاء ، وللردى يوم يخلصُ من فنون عذابه ١٣٩/١

شقينا بدنيانا على طول ودها فدونَك مارسْها حياتَك واشقها
ولا تظهرنَّ الزهدَ فيها فكلُّنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها ١٢٩/٢

وقال فى الفصول والغايات :

ونفوسنا بالحياة شحاح . (٢٤٣)

لم أر كالدنيا عجوزاً قد اشتهر خبرُها بقتل الأزواج ، وهى على ما اشتهر كثيرة الخطاب (٧٣)

أيتها الدنيا البالية ، ما أحسنَ ما حلْتك الحالية . . . والنفسُ عنك غير سالية! (١٤٩)

بى طَب فأين أستطب ؟ أنا تحت حُب الدنيا مُحب (رازح) ، أثقلنى فأنا مُكب (٢٤٠)

قَلتْنى دنياى فما قليتها ... قد كرهتُ المنية وأبيتها . (٢٣٣)

زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت لها وشنفت ، ولو أنصفتُ لعفتَ ما أستو بله (مَا أجده و بيلا) ، فما نثفت (ما أصبت شيئاً منه) (٣٤٨)

(مولاى) لا أكتمك ما أنت به عليم ، إن أسفى على الدنيا لطويل ! (٣٤٣)

أحب الدنيا كأنها تجبنى ، والغريزة عن الرشد تذبنى. (٢١٥)

رضيت بالحضض على مضض . (٢٣٦)

أحب الدنيا وآلتها ليست فىّ ، وقد يئستُ من بلوغها واليأس مريح ، فإلام التشوف والضلال ؟ ولو كنت مؤدياً لها لثقل علىّ أمرها . (٣٥٨)

* * *

(هذا أنين النفس المحرومة ، وتأوه القلب المكروب). هذه شكاة الرجل الذى

أحب الدنيا ، ثم تكلف الصدود عنها (وجرى فى وهمه أنه تسلى .)

قال فى اللزوميات .

أيها الدنيا لحاك اللـــه من ربة دل
ما تسلى خلدى عنـــك وإن ظن التسلى

* * *

٢ — جهله وخوفه مما وراء الموت :

رأيت أبا العلاء لم يبرأ من حب الدنيا ، وأن هذ الحب كان يربطه إلى الحياة ويغريه بالتشبث بها . ولعل هذا كان يكفينا فى تعليل جزعه الصارخ من الموت لو أن أبا العلاء كان سعيداً راضياً . ولكنا عرفناه متشائماً ، ضيق الصدر بهمومه ، يائساً من بلوغ ما يشتهى . ومثله جدير بأن يسكن إلى الموت، ليخلص مما يكابده من متاعب الحياة ، وأهوال الصراع بينه و بين الدنيا .

(مثله جدير بأن يرجو المفر من محنة الحياة ، ولكن إلى أين ؟

إنه لا يعرف ماذا وراء الموت ، ولا يدرى ما يلقاه هناك)

لقد عاش فى ظلام ، وهو يجزع ويرتاع كلما فكر فى المجاهل المظلمة التى يُقذف به إليها حين يموت .

الموت راحة ؟ من يضمن له ذلك ؟

وإن يكن فى موتنـــا راحةٌ فالفرج الوارد منـــا قريب لز١/١٥٥

لو اطمأن أبو العلاء إلى ذلك ، لوضع حداً لما يكابده ، ولفزع إليه يدفن فيه آلامه ومتاعبه وحبه اليائس ، وآماله المحطمة ، وأشواقه المكبوتة !

ولكن هيهات ! الخوف يرعبه ، والجهل والشك يرهقانه ..

قال فى سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يُراد بنا ، والعلم لله ذى المن

إذا غُيب المرء استنسر حديثه   ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى ١/١٩٥

✡ ✡ ✡

وقال فى اللزوميات :

وان أُعفَ بعد الموت مما يريبنى   فحظى الأدنى، ولا يدى الخسرى ١/١٧٩

آه لضعفى كيف بى هابطـاً   فى الواد ، أو مرتقياً فى العقاب ١/١٥٦

فما لى أخاف طـريق الردى   وذلك خير طريق سُـلك ؟

يريحـك من عيشةٍ مُرة   ومالٍ أضـيع ، ومال مُلك ٢/١٦٩

لعل الموتَ خـير للبرايا   وإن خافوا الردى وتهيبوه ٢/٤٠٣

أوجالُ نفسى فى الأولى مضاعفةٌ   ولا أزال من الأخرى على وجل! ٢/٢٢٠

وقال فى الفصول والغايات :

والطفْ مولاى بضعيفك إذا اقترى ، ونزل إلى بطن الأرض عن القرى ، ضيفُك ولكل ضيف قِرى ، ما أجدرك بالرأفة وما أحرى ! (٤٩)

الدنيا فانية ، والنفس لا تأمن التبعات .

ويلُم القبر مسكناً لا ترفع له الجدرات . (١٤٤)

ويحى إذا الوقت نفد ، ونزل حمامى فأفد ، وقوّى نهوضى ورفد ، وكأنه قد غُلّ وصفد . . . . (٨١)

حمداً لك إلهى ، لا أعلم وقت إسكانك لى فى دار البلاء ، وقد عشت فيها ماشئتَ، وأعيش فيها ما تشاء ! وأنا شاكٍ إليك أثقال الزمن ، فإذا قضيت عنها الرحلة فأعنّى على تلك الغصص والغمرات ، فإنى منها فرِق ، وبى من الحياة مِلل . (١٩٦)

✡ ✡ ✡

وقد مرّ بك ، أن الرجل همّ بالتخلص من محنة الحياة ، فرده عن ذلك خوفه وجهله بما وراء الموت .

قال فى اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية لاعتراها القوم أفواجاً
كأس المنية أولى بى وأروح لى، من أن أكابد إثراء وإحواجاً ٢٠٢/١

وقال فى الفصول والغايات :

لولا خشية المنقلب لكنت أحد الفائزين . (٢٨٠)

وقد سئمتُ الحياة ، وأخاف أن أنقل فأقدم إلى ما حزن وساء ! (٢٣١)

لو أمنت التبعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكن أرهب غوائل السبيل . (٣٦٠)

وقال فى رسالة الغفران :

« قد كدت[1] ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ولكنما أرهب قدومى على الجبار ، ولم أصلح نخلى بإبار »

هذه كلمة نقولها مسرعين ، فالحديث عنها يأتى مفصلا فى المقالة التالية حيث نصغى إلى تأملات أبى العلاء فى مصير الإنسان .

☆ ☆ ☆

٣ — الموت مأساة الإنسانية الكبرى :

فزع أبو العلاء من الموت ، لأنه كما رأينا لم يبرأ من حب الحياة ، وكان — فوق ذلك — يجهل ما وراء الموت . وبقى سبب ثالث نضيفه إلى هذين . وهو سبب لا يتصل بالحياة الخاصة بأبى العلاء وحده ، وإنما يتصل بالإنسانية جميعاً — فقد كان، بصرف النظر عن مأساته يرى الموت مأساة البشر . لقد دُفعوا إلى الحياة مجبرين ، وهم ينزعون عنها مكرهين ، على ما رُكب فيهم من حب لها وتعلق بها الموت مأساة ، وقد أطال أبو العلاء الوقوف عندها ، ومضى يهتف فى حزن ومرارة :

(١) رسالة الغفران (طبعة هندية) ١٢٤

غيرُ مجـــدٍ فى ملتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولا ترنم شـــاد
وشبيه صوت النـعى إذا قيـس بصوت البشير فى كل ناد سقط ٠٨/١

يا دهر يا منجز إيعـــاده ومخلف المأمولِ من وعده
تســتأثر العقبان فى جوها وتنزل الأعصم من فنــده
أرى ذوى الفضل وأضدادهم يجمعهم ســيلك فى مده

. . . .

وحالة البـــاكى لآبائه كحالة البـــاكى على ولده
ما رغبـــة الحى بأبنائه عما جنى الموتَ على جده![1] سقط٢/

✲ ✲ ✲

وكتب يعزى خاله أبا القاسم فى وفاة أخيه أبى بكر :

« [2] والقدر غالبٌ أبىّ . فالعياذ بالله أن تقول كما قال المحاربى :

اهتز عرش الله ذى الجـلال لموت خالى ، يوم مات خالى !

« ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون ، كل من عليها فان وإنما ابن آدم شلح منقول . مالى الله قادراً ، ما ترك وافياً ولا غادراً ، إلا جرعه كؤوس المنية » .

وكتب إلى ابن القارح : « وأما من فقده من الأصدقاء لما دخل حلب ، فتلك عادة لزمن ، يبدل من الأبيات المسكونة قبوراً ، وإن رمس الهالك لبيت الحق »

وقال فى ملقى السبيل :

من أعظم الحدث سكنى الجدث :

يدوم القـــديم إله السماء ويفنى بأقداره ما حـــدث

(١) قال أبو نواس : ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبـقى
وقال المتنبى : نحن بنو الموت فما بالنـا نعـاف مالا بد من شربه !
(٢) رسائل أبى العلاء (مرجليوث) الرسالة الثلاثون ص ٩٢

وما أرغبَ المرء في عيشه ولكن قصاراه سكنى الجدث!

وقال في اللزوميات :

قد صحبنا الزمان بالرغم منا وهو يردى كما علمت الصحابا
وحللنا المضيق ثم أتينا الرحب لو دام تركنا والرحابا
وضحكنا وليس ما يوجب الضحك ، بل ما يهيج انتحابا ١/١١٣

رأيت قضاء الله أوجب خلقه وعاد عليهم في تصرفه سلباً ١/٩٩

سألت رجالا عن معد ورهطه وعن سبأ ، ما كان يسبي ويسبأ
فقالوا هي الأيام ، لم يخل صرفها مليكا يفدى ، أو تقياً ينبأ ١/٤٨

قام بنو القوم في أماكنهم وغيبت في التراب آباء
وزال عز الأمير وافترقت أحباؤه عنته والأحباء ١/٥٧

ومَدٌّ وقتيَ مثل القصر غايتُه وفي التراب تساوى الدرُّ والبرد ١/٢٤٥

وكم وطئت أقدامنا في ترابها جبينَ أخى كبرٍ وهامةَ أبلج ١/٢١٤

إن العبد لا يملك من في الأرض كلٌّ فقير ٢/١٦٤

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك ٢/١٤٣

وقال في الفصول والغايات :

بكى عمرو عمرة ، وكم في الأرض من عمور وعمرات . (١٠٢)

الموت أعظم الحدث ، والجدث لا يأنس بالجدث ، ألحقت المنون جديداً برث . (٦)

سل كندة عن آكل المرار ، وفزارة عن آل بدر ، واستخبر في حمير عن ذى نواس ، وقل يا دارم أين زرارة ، ويا حنظلة ما فعل آل شهاب ؟ (٧٧-١٩-١٠١)

أين صاحبة جذيمة ومنزلها . . . . . أين موتح العطية ومجزلها ؟ أكلتهم الأيام أكل الثمرات . (٩٦)

لا ليث بعثر ، ولا مثير العثير ، ولا من على الملك عثر ، يبقى منه أثر . (١٠٣)

إن منازل طسم وأميم ، طالما صهلت فيها الخيل ، وكثر الرغاء ، وأمها للنفع القاصدون ، فانظر هل ترى فى ديار القوم أميا ؟

فنى الواتر والموتور وعند الله علم الذاهبين . (١٩٠)

رُب حى أشرى ، كأنهم ليوث الشرى ، قروا الأضياف ذرى . . . . . جاءتهم المنايا تترى ، فمزجوا بالثرى ، أصبح فيهم الزمن قد عاث . (٢٢٥)

نُصر قوم وخذل آخرون ، فما بقى الغالب ولا المغلوب . (٢٧٦)

إن الجبابرة رامت الخلود ، فإذا هو لا يمكن ولا يستطاع ، ولا يخلد إلا جبار السموات . فبذلوا سام الذهب فدية من العطب ، فقال لهم القدر : تجرعوا سماما ! (٤٤٢)

* * *

ويشتد إحساس أبى العلاء بمأساة الموت وتنبهه لها ، فيرثى لنا معشر البشر الضعاف الفانين : يهددنا الموت فى كل حين ، فيهدم ما نبنى ويقوض ما نقيم ، فإذا الأمير كصعلوك قومه و إذا الغالب كالمغلوب كلنا ضعاف أذلاء ، قصرنا التراب. كل نار لنا تخمد ، وكل بناء يتقوض ، وكل عامر يخرب ، وكل حى إلى ممات.

قال فى سقط الزند :

كل بيت للهدم ما تبتنى الور قاء ، والسيد الرفيع العماد ٢٠٨/١

وقال فى ملقى السبيل :

بكى على الميت مواخ ، كأن أجله فى تراخ ، فلتنه الباكية عن الصراخ :

بكى عليه ، فهل تراه فى أجل دائم التراخى ؟

وقال فى اللزوميات :

كم عفة ماعف عنها الردى وكم ديار لأناس عفت

التفت الآمال منـا بها وقد مضى آملُها ، ما التفت ١٩٧/١

المشـــــيدات التى رفعت أربعٌ منَ أهلها درس ١٠/٢

فلا تغرنك شمٌّ من جبالهم وعزة فى زمان الملك قعساء
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا برغمهم ، فإذا النعماء بأساء ٤٨/١

حياتك هجعة : سهد ونوم ورؤيا هـاجع ما أنقـته ٤٠٤/٢

قدمنـا والقوابل ضاحكات وسرنا ، والمدامع ينبجسنه
وقد زعم الزواعم وافتكرنا فويح للخواطر ما هجسـنه !
ومن يتأمل الأيام تسهل عليـه النـائبات وإن بخسنه
وهان على الفراقـد والثريا شخوص فى مضاجعها درسـنه ٣٥١/٢

وقال فى الفصول والغايات :

لمن أهضام توقد بالأهضام ، وأوضام تجعل على الرضام ؟ . . . . إن ذلك لقوم بائدين ، ويبقى الله خالق العالمين . (٣٤٩)

كل مشمخر سـوف ينهدم ويخر ، فياويح المشيدين ! وكل آهل يصبح ، وهو قفـار . (٢٧١)

وسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ولو هجم لهبها على النجوم . (٤٣٦)

ألم تر ناراً بالأمس متأججة ، ومررت بها اليوم هابية ، كأنها لم تُغذَ ضراما ؟ (٤٤٢)

وإذا الليل طلى قارَ الأرض فابرز لحدق النجوم ، واسأل الأسد كم فنى تحته من أسد ، والنعائم كم طلعن على ظليم ، يخبرنك بالبُرحين . (٣٣٨)

لا يعجبنك جمٌّ رماد ، وبيت مرتفع العماد ، ونار دائمة الاتقاد ، تسطع بجبل أو واد . (٥٠)

✲ ✲ ✲

واسمعه يسخر بمشاغلنا ومتاعبنا وغرورنا وآمالنا . اسمعه يشفق علينا : نطمع ونؤمل ونبنى كأنا مخلدون ، وإنما نحن على سفر أو عابرو سبيل .

قال فى سقط الزند :

لو عرف الإنسانُ مقداره لم يفخر المولى على عبده
والواحد المفرد ، فى حتفه كالحاشد المكثر من حشده
ولا يبالى الميّت فى قبره بذمه شُيع ، أم حمده
أمس الذى مر على قربه يعجز أهل الأرض عن رده ٢/٥

وقال فى ملقى السبيل :

المرء نُهى فما انتهى ، ما زال فى العاجلة يزدهى ، ان قيل ما أحسن وما أبهى ! فأين صاحبك لما وهى ، وطالما نَعِم ولها ، ونال فى العمرّ ما اشتهى ، دهاه الزمن فيمن دهى :

المرء معتوب على فعله كم سمع النهى فألاّ انتهى ؟
زايله اللهو وزار البلى وطالما عاينته مُزدهى
باهى زماناً بالذى ناله ثم أتى الموت فأين البهى ؟
وهتْ عقود ، كان فى عصره أحكمها ، لا عاقد ما وهى
كان يُرى فى غزل دائماً ما بين غزلان له أو مهى
دهاه بالمقدار لم يدفع الخطب عن مهجته إذ دهى

وقال فى اللزوميات :

لا تغبطوا رجلا على ما ناله إن بات قد ساد الرجال ، ولم يسد
لحوادثَ الأيام غيرُ تواركٍ نسرَ النجوم ، ولا السماك ، ولا الأسد ١/٢٩٩

إن المواهب كلها عارية ومن السفاهة غبطةٌ بعطائها ١/٦٧

تبنى المنازلَ أعمارٌ مهدمة من الزمان بأنفاس وساعات ١٨٥/١

وما تريد بدار لست مالكها تقيم فيها قليلا ، ثم تنطلق ؟ ١٢١/١

والموت يسلب مافى الأنف من شَمَم تحت التراب، ومافى الخد من صعَر ٣٨٤/٢

وكم نزل القيل عن منبر فعاد إلى عنصر فى الثرى
وأُخرج من ملكه عارياً وخلّف مملكةً بالعرا ٣٧٤/١

أتُذهَب دار بالنضار وربها يُخلفها عما قليل ويذهب ؟ ٨٣/١

وإنك لا باك عليك مهند ولا مظهر حزناً ، جوادٌ مطهم
يساوى مليكُ الحى ، صعلوكَ قومه وتسحى له الأرضُ الزَرودُ، فتلهم ٢٥٥/٢
ومن العجائب أننا بجهالة نبنى ، وكل بناء قوم يُهدم ٢٧٢/٢

إذا لم تكن دنياك دار إقامة فمالك تبنيها بناء مقيم ؟ ٢٩٩/٢

لا يعجبن الفتى بفضل فإنه مقتضى بوعد
يقول جاوزت فى المعالى آل سعيد وآل سعد
فليس فوقى وليس مثلى وليس قبلى وليس بعدى
والده خصَّه بعدوى من موته ، والحِمام يعدى ٢٩٠/١

- تنافس قوم على رتبة كأن الزمان يديم الرتب ! ١٥٦/١

- وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرفَ الميت ! ١٨٢/١

وقال فى الفصول والغايات :

يا راعى الضائنة ، ارتع فى البينمة (العشبة الطيبة) كيف شئت ، واصطف لنفسك ما أحببت من الرخال (إناث الضأن) ، إن لك وقتاً يلهيك عن الشاء والرباب . (٤٢)

أسيت على انفلات الأعيار ، فما فعل أهل الديار ؟ القليل يكفيك ، وربك عن وجه الأرض ينفيك ، فالرغام بمعطسك وفيك . (٣٠٠)

أيها المسيم ، إن حظك لقسيم ، إما الشخت وإما الجسيم ، هل زاد رسمك الرسيم ؟ تغتبط بلقاح السوّام ؟ إنك لا تعلم لمن النتاج ! (٣١٠)

المرء يقدر ولغيره الأمور ، يحسب أنه يملك ويحوز ، كذب ! لله النفوس . (٣٧٤)

يا نهم ، إن ما تلتهم لقليل ، بينا ملك ينير ، عرض له التغيير ، فخمد خمدة لهب أجاج . (٢٩٤)

كيف يتكبر من فى الغد يقبر ؟ (٢٢)

والخد المتصعر ، سيوضع فى الأرض فى أخدود . (٢٨٠)

أخذ ربنا بفضله ، وفرح الوارث لجهله . . . . حبذا التراث لولا فرط ذله ، من لك بأخيك كله ؟ نسخ يومك بمثله . (١٠٧)

نُصر قوم وخذل آخرون ، فما بقى الغالب ولا المغلوب . (٢٧٥)

شغل الآدميون ببناء بيت شعَر وبيت شِعر وجدار من مَدر . فبيوتهم فى الآجلة كبيوت العناكب ، واهية الرواق والكفاء . (٢٨)

نحن على الدنيا نقترع ، نتسايف ونصطرع ، والقدر لنا مضرع . (٢٤٥)

الله الكامل ، والنقص لجمعنا شامل ، فماذا يؤمل الآمل ؟ أليس قصره الذهاب ؟ (٣٨)

يهوى المرء فى المهالك ولا يبالغ هواه . . . . كل مشمخر ، ينهدم ويخر ، فياويح المشيدين . (٢٥٠)

ما تصنع أيها الإنسان بالسنان ؟ إنك لمغتر بالغرار (حد الرمح) ، كفت المنية ثائراً ما أراد ! (٨٢)

* * *

تلك هى المأساة الإنسانية الكبرى كما عرضها أبو العلاء ، وإنك لتحس فى أقواله مرارة لاذعة وحزناً أليماً ، ورثاء للإنسانية . وقد كان يرى فى الموت الموعظة البالغة

الكبرى ، كما كان يرى فيه المأساة الكبرى . وتجاذبه هذان المعينان ، فوعظ بالموت حيناً وأطال ، وخاف من الموت كثيراً وأشفق .

قال فى ملقى السبيل :

غرك ما يخدع من زخرف الدنـــيا فزاد الحـرص والطمع
علمت أن الدهر فى صرفه مفرقٌ عنك الذى تجمـع
سمعتَ بالخطب وعاينتـــه هل كفٌّ ما تبصر أو تسمع ؟

وقال فى سقط الزند :

لو عرف الإنســان مقداره لم يفخر المـولى على عبده ٥/٢

وفى اللزوميات :

نام فى قبره ووُسِّــــد يمنا ه فخلنـــاه قام فينا خطيباً
للمنـــايا حواطب لاتبالى أهشيا جرت لها ، أم رطيباً ١١٤/١

قـــام للأيام فى أذنى واعـظ من شــأنه الخرس :
ليس يبـــقى فرع نابتة أصلها فى المـــوت مغترس ١٠/٢

تُحـــدث هذه الأيام جهراً ويُحسب أن ما نطقت هسيس
تعـــالى الله أين ملوك لخم لقد خمدوا ، فما لهمُ حسيس ١٨/٢

يجاور قوماً أجادوا العظـات وما فيهم أحـــد نابس ٢١/٢

أراك حسبتَ النجم ليس بواعظ لبيباً ، وخلت البدر لا يتكلم
بلى قد أتانا : أن ما كان زائل ولكننا فى عالم ليس يعــلم ٥٤/٢

ألم تر أيام الفتى فى عظـــاته بهمس تناجى ، أو أدق من الهمس
توخّت عـــوارىَ الملوك بردها جهاراً ، وآثار الأكارم بالطمس ٢٥/٢

وقال في الفصول والغايات .

لو أنصفت يا ابن آدم ، ولمن تنصف ؟ لأعز الناس عندك — أعني نفسك — إذن لانزجر قلبُك ، وقصُر أملك ، وشغلَك الحقُ عن الأباطيل ، وعددت في ترنم النوادب ترجيعَ القينات . (٨٩)

إن في آثار الأولين لمعتبراً ، فلتعظْك منازل القوم الذاهبين . . . لا تسمع الأذن لهم نئيا . . . .

رحم الله امرأ وعظه سواه : ألا يعظُك الشقي أيها السعيد ؟ ضُرب لك أمدٌ طال عليك ، وقريب عند الله ذلك البعيد . (٢٩٤)

المقالة الثامنة :

المرحلة الأخيرة من مراحل الإنسان

مصير الإنسان

ما وراء الموت

١ — تبلى أجسادنا ، وتنتهك رممنا ، وننسى فلا صديق .
٢ — توقف العقل عن إبداء الرأى فيما وراء ذلك .
٣ — قدرة الله على الحشر والبعث .
٤ — حيرة أبى العلاء ، بين توقف العقل وإعجاز القدرة .
٥ — الخبراليقين عند الموتى، ولكنهم لا يعودون ولا يتكلمون !

صحبنا أبا العلاء وهو يرصد مراحل الحياة الإنسانية : مرحلة الوجود ، ومرحلة الحياة ، ومرحلة الموت . ونحن الآن نصحبه فى المرحلة الأخيرة من مراحل الطريق ، ونرقبه وهو يقف أمام الستار الكثيف الذى يسدل على الإنسان بعد أن يموت .

ما وراء الموت ؟

وراءه كثير . عرف أبو العلاء أشياء وآمن بها ، وغابت عنه أشياء ، فلم يستطع أن يمزق عنها الحجب والأستار ، رغم ما بذل من جهد أليم .

(أما الذى عرفه أبو العلاء ، فهو أننا نودع الأرض ، فنبلى وننسى ؛ تأكلنا الأرض وتُنتهك رممنا ، ونُنسى فلا صديق .)

هذا ما كان يؤمن به أبو العلاء ، ويعلنه فى لهجة مرة ذات وقع مؤثر حزين . وتأملات أبى العلاء فيما وراء الموت رائعة مؤثرة ، وروعتها تأتيها مما تترجم عنه ، من

حزن صادق لمأساة الإنسان ، ورثاء مؤثر لها ، وإشفاق أليم على هذا المخلوق الذى يُنتزع من الحياة ، ويقذف به إلى مجاهل الموت .(هذه التأملات تشبه أن تكون مرثية الإنسانية ،) ونحن نصمت الآن ، لنسمع أبا العلاء ينشد مرثيته الرائعة الباكية من أغوار الماضى البعيد .

بلى الأجساد وانتهاك الرمم :

قال فى سقط الزند :

صاحِ ، هذى قبورنا تملأ الرحـــب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا — وإن قدم العهـــد — هوانُ الآباء والأجداد

. . . .

رُب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويلِ الأزمان والآباد ١/٢٨٠

وقال فى اللزوميات :

والأرض غذتنا بألطافها ثم تغذتنا فهل أنصفت ؟
تأكلُ من دب على ظهرها وهى على رغبتها ، ما اكتفت ١/١٦٧

تُكرّم أوصال الفتى بعد موته وهن إذا طال الزمان ، هباء ١/٤٦

والأرضُ تقتات الجسوم كأنما هـــذا الحِمام لتربها ميّار ١/٣٤٠

ومن ضَمَّـه جدث لم يُبـل على ما أفاد ، ولا ما اقتنى
يصير تراباً ، سواء عليه مسُّ الحرير وطعن القنا
ولا يزدهى غضبٌ حلمَه ألقبه ذاكر ، أم كنا ٢/٧٧

والتربُ نقليه ظلماً وهو والدنا وكم لنا فيه من قربى ومن رحم ٣٠٤/٢

فلا يمس فخَّاراً من الفخر عائد إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعـل إناء منه يصـنع مرة فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخرى وما درى، فواهاً له ، بعد البِـلى يتغرب ! ٨١/١

أعلم أنى إذا حييت قذى وأننى بعـــــد ميتتى مدر
كم من رجال جسومهم عفر تبنى بهم أو عليهم الجدر ٤٤٧/١

إذا الحى أُلبِس أكفانَه فقـد فنى اللبس واللابس
ويبلى المحيـا فلا ضاحكٌ إذا سرّ دهر ولا عابس
ويُحبس فى جـدث ضيق وليس بمُطلِقـــــه الحابسُ
يجاور قوماً أجادوا العظات وما فيهم أحـدٌ نابس ٢١/٢

وقال فى الفصول والغايات :

ما صنع التراب بالجثث ؟ فعل بها فعل المجتث . (٦)

الجسد بعد فراق الروح، كما قُص من يدك وقصر من فودك . إذا أُلقى فسيط فى النار لم تباله ، وإذا غرق فليل فى اللج فكذلك . (١٨)

فارحمنى رب إذا أدرجت ، ثم أخرجت من الوطن إلى أضيق عطن ، وخَفَت الأليل (أنين المريض) ، واستراح المعلل من التعليل . (٢٧)

كرهتْ البشرة دبيب الحشرة، ولتصيرن كهشيم العشرة(شجرة ضعيفة الهشيم) (٢٠٧)

وربما أضجعنى الملحِد على رمم ميت قبلى لو نطق لم يقل مرحباً — وتجىء جَيل (ضبع) بقدر الله فتكشف عنى التراب ، لتغذو بى جرواً حوشباً (عظيم البطن) ،

أذهب النومَ ، وأطال الأرقَ ، وأفلّ رغبتى فى الشرف ، أنى لا أجد عن ذلك مذهباً .
جل البارئ ، هل تحمل هذه النكبة منكباً أضاخ ؟ (٤٢٢)

والجسد كالعود القطيل (المقطوع) ، قد حمل على أسرّة الهالكين ، فأودع الأرض وكُفت ، وقدُم عليه العهد فرقت ، ونُسيتُ فلا يمر اسمى بأفواه الذاكرين ، لا يبلغنى مدحُ المادح ، ولا مقال الُجدّاب . (٧٩)

ولا آمن أن يحفر قبرى محتفرٌ ، فيهجم على جُدولى الرِمام ، وقد امتزجتْ بالعفر ، فيدخلها إلى الأطيمة (موقد) ، فيصطنع منها مصطحاً (كوزاً) أو ما شاء . (٨٣)

ولا أكره أن يتخذ منها (من الرفات) إناء يتوضأ منه لذكر الله . (٣٨)

وعندى خبر خبرنيه المعقول . إن جلود القوم تمزقت ، واللحوم بليت وتهالكت ، وصارت الأعظم رماماً . أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كانَ ويكون! (٤٢٢)

يا جدث ، بعد موتى ، هل تسمع ندائىَ وصوتى ؟ يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض ، أُودعتِ المال فرددتِه سالماً ، والخليلَ فأكلتِه راغماً ، ليتكِ أكلتِ المالَ ، ورددت الخليل . (٣١٥)

* * *

ونسى فلا صديق :

سمعت حديث أبى العلاء عن بلى الأجساد وانتهاك الرِم ، فاسمع حديثه عن نسيان الموتى . ينساهم أهلهم وأحبابهم ، فلا صاحب ولا صديق ، وأى صديق للرمة البالية ، والجسد الفانى ، والراحل الذى لا يعود ؟ وفيم الذكرى ؟ هل يعود الميت فيجزى الوافين الذاكرين ؟

كل ذكر من بعده نسيان   وتغيب الآثار والأعيان لز ٢/٣٩٣

كأن المهيمن أوصى النفوس   بعشق الحياة وإحبابها

إذا دَفنتْ في الثرى هالكاً … تناستْ عهوداً لأحبابها ١٤٨/١

تَبكى على الميت الجديد لأنه … حديث ، ويُنسى ميتك المتقادم ٢٦٠/٢

وسوف نُنسى فنمسِى عند عارفنا … وما لنا في أقاصى الوهم أشباح ٢٢٦/١

هل تحفظ الأرضُ موتاها وأهلُهم … لما بدا اليأس ، ألغوهم فما حفظوا ؟ ٧٤/٢

وقال في الفصول والغايات :

فكأني بالوقت وقد فنى . . . ودفنت الأرض فنسيت ، وتمزق الذى كسيت . (٤٢٢)

. . . ثم أُسلمت فألقيت في زوراء بعيدة المزار . . . وسكنى التربة أغرب الغربة ، انقضبت الآراب من أهل التراب ، وغدر بهم أهل الوفاء . . (٢٧)

أين أكون بعد البيت المسكون ؟ أحل بالصعيد لا أشعر بجمع ولا عيد ، وذلك منزل المنفرد الغريب ، والله مؤنس المستوحشين . (١٩٢)

وُسِمَت الأرض ثم وليت ، على أجساد قد بليت ، علت في الحياة وعليت ، وسُلت أرواحها فُسليت ، وقلَّت الحاجة إليها فقُليت . (٢٣٣)

أمر بأجداث الأقارب وكأنما أشرف على البعداء ، والحى لا يرعى للميت ذماماً (٢٤١)

يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القوم نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء ، شربنا بعدكم البارد ، ولبسنا ناعم اللباس ، وأظلتنا الجدر وأفنية الدور ، لو كنا أهل حِفاظ ، عِفنا بعدكم النطف العذاب . (٨٠)

وكذبت النادبةُ ما للميت من صديق ، وأساءت الأيم أجابت الخطّابَ قبل أن يقضي لفقيدها عام ! (١٢٩)

وصيح بالأرض اقبلي رهنك ، وبالنزيل فاغدرى ، وحيز المال ونسى العهد وانتوى عن الإنسان أنيسُه ذو الود القديم ! (٣٤٢)

✲ ✲ ✲

أجل . تأكلنا الأرض وتنتهك رممنا ، وننسى فلا صديق . هذا هو المصير المحتوم ، وذلك هو اليقين الرهيب . .

(ولكن ماذا بعد فناء الأجساد ؟ أملتئمة هى بعد الفناء ؟ ثم ما مصير الأرواح ؟ أمبعوثة هى يوم الحشر لتعاقب أو تثاب ؟)

أسئلة حيرت أبا العلاء واضطرب فيها .

— لقد سمع أبو العلاء ما قيل عما وراء الموت ، ووعى الأخبار التى تناقلها الناس بشأن البعث والحشر ، وقد عرفنا فى المقالة الأولى رأيه فى الأخبار وسوء ظنه بها . فليس غريبا أن نراه هنا يسىء الظن بما تحدث به الأخبار عما وراء الموت ، ولا يحس نحوها شيئا من الاطمئنان . . .

قد قيل إن الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذى غنيت به
إن كان يصحبها الحجا فلعلها تدرى وتأبه للزمان وعتبه
أو ، لا ! فكم هذيان قوم غابر فى الكتب ، ضاع مداده فى كتبه! لز/١٤٠

والروح شىء لطيف ليس يدركه عقل ويسكن من جسم الفتى حرجا
سبحان ربك هل يبقى الرشاد له وهل يحس بما يلقى إذا خرجا ؟
قالت معاشر يبقى عند جثته وقال ناس : إذا لاقى الردى عرجا ٢١١/١

والروح أرضية فى رأى طائفة وعند قوم ، ترقّ فى السماوات
تمضى على هيئة الشخص الذى سكنت فيه ، إلى دار نعمى أو شقاوات ١٨٥/١

وقد زعموا هذى النفوس بواقيا تشكل فى أجسامها وتهذب
وتنقل منها ، فالسعيد مكرم بما هو لاق ، والشقى معذب ٨١/١

قد ادعيتم فقلنا أين شاهدكم ؟ فجاء من بات عند اللب مجروحا
إن صح تعذيبُ رمس من يحل به فجنبانى ملحودا ومضروحا
الوحش والطير أولى أن تنازعنى فغادرانى بظهر الأرض مطروحا ٢٣١/١

(توقف العقل عن إبداء الرأى فيما وراء بلى الأجساد :)

أبو العلاء كما ترى غير مطمئن إلى أقوال الرواة . وقد فزع إلى عقله ، يقيس به هذه الأقوال و يطلب لديه الرأى المقنع ، ولكن عقله لم يسعفه بما يغنى ، أن كان لا يطمئن إلى شىء مما يقال عما وراء بلى الأجساد ، ولا يلقى فيه رأيا ، لأن هذا مجال لم يقتحمه العقل بعد ، ولم يستطع أن يمزق الأستار المسدلة بيننا و بين المصير المجهول .

قال فى سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يراد بنا ، والعلم لله ذى المن
إذا غيبُ المرء استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى
. . . .
طلبت يقينا من جهينة عنهم ولن تخبرينى يا جهين سوى الظن
فإن تعهدينى لا أزال مسائلا فإنى لم أعط اليقين فأستغنى ! ١٩٨/١

وقال فى اللزوميات :

أرى هذيانا طال من كل أمة يضمنه إيجـــازها وشروحها
وأوصال جسم للتراب مآلهـا ولم يدر دار أين تذهب روحها ٢٢٥/١

سنؤوب فى عقبى الحياة مسا كنا لا علم لى بالأمر بعـــد مآبها ١٤١/١

سأرحل عن وشك ولست بعالم على أى أمر ، لا أبا لك ، أقدم ٢٥٦/٢

وكم ثوى لك جد، ما درى فطن   منكم، على أى أمر إذ مضى قدما ٢/٢٨٥

بنون كآباء، وكم برح الردى   بضب على علاته وبنون
دفناهم فى الأرض دفن تيقن   ولا علم بالأرواح غير ظنون ٢/٣٦٦

أما الجسوم فللتراب مآلها   وعييت بالأرواح أنى تسلك ٢/١٤٩

لا تعلم الموتى بهم بكرة   لكن أحياء تروم لحاقا ٢/١٣٣

إن تسأل العقل لا يوجدك من خبر   عن الأوائل إلا أنهم هلكوا ٢/١٤٥

على أن أبا العلاء لم يطمئن إلى العقل، وراح يعرض الأمر على القدرة المعجزة فرأى البعث ممكنا غير ممتنع.

قال فى اللزوميات:

وقدرة الله حق ليس يعجزها   حشر الخلق، ولا بعث لأموات ١/١٨٥

بحكمة خالقى طيى ونشرى   وليس بمعجز الخلاق حشرى ١/٣٩١

يكر موتانا إلى الحشر إن   قال لهم بارئهم: كروا ١/٣٤٧

يقوم الفتى من قبره إن دعوته   وما جر مخطوط له فى الرواجب ١/١٢١

ومتى شاء الذى صورنا   أشعر الميت نشورا فنشر
فافعل الخير وأمل غبه   فهو الذخر إذا الله حشر ١/٤٢٢

وقال فى سقط الزند:

خلق الناس للبقاء فضلت   أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما   ل إلى دار شقوة أو رشاد ١/٢٠٨

وقال فى الفصول والغايات :

الجسد بعد فراق الروح كما قُص من يدك ، وقصر من فودك . إذا أُلقى فسيط فى النار لم تُباله ، و إذا غرق فليل فى اللج فكذاك ، هكذا يقول المعقول — ولله نظر فى العالم دقيق ، لا يمتنع أن يكون جسدُ الصالح إذا قبُر فى نعيم ، وجسد الكافر فى عذاب أليم لايعلم به الزائرون . (١٨)

من أولع النعامة بالتخويد ، وفرّق بين الأرى والهبيد، ليس الحشر عليه ببعيد . (٢٦٢)

يقدر الله على المستحيلات : رد الفائت ، وجمع الجسمين فى مكان ، ومالا تحتمله الألباب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز ولا انتقاص . (١٧٤)

والله على بعث الميت مقيت . (٣٧٥)

الطيور ناطقات بالسُبح ، ورجال ما تقر بالبعث ، بلى ! جل القادر عن ارتياب (٣٨)

لا يعجزك (يا رب) ممتنع فى العقول . متى أجتمع وسلفى الذاهبين ، فأخبرهم بما لقيت بعدهم ، و يخبرونى بمثل ذاك ؟ لقد بعدوا بُعد الإكثاب . (٤٧)

الله الملتجأ ، يمهل أمره و يفجأ ، وهو على إنشائك قدير ، و بجزاء الخير جدير . والظالم أعثر قدما من المظلوم وأنا أحد الظالمين .هل ينجينى منك أبدطال ،وجسد لحق بالرفات ، أو مال كثُر أو عز مكان ؟ أدركتَ ما لم يكن فكيف ما كان؟ (٣٥٣)

وكتب إلى داعى الدعاة :

« وفى الكتاب الأشرف : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين — وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ — قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . وهذه حجة بالغة فى أن خلقها مبتدَعة، أبعدُ من إنشائها مرتجعة . ثم قال سبحانه : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » فتبارك الله العظيم القادر ، على أن يحرق بورقة خضراء ، مَن

فوق الراكدة ، « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهن ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون — فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » . أشهد الله الذى بإذنه نشأت السموات والأرض ، أنى مقر بالقدرة على الرجعة ، والخوف من الآخرة . أحافظ على صلاتى وأصوم ، لعلى معصوم » .

حيرة أبى العلاء

(هذا الإيمان بقدرة الله ، قد أبى على الرجل أن يطمئن إلى توقف العقل) على أنه لم يخلص من سلطان عقله ، بل ظل حائراً

أما الحقيقة فهى أنى ذاهب　　والله يعلم بالذى أنا لاقى
وأظننى من بعد ، لست بذاكر　　ما كان من يسر ومن إملاق ل/٢/١٣٩

شاب علينا أمرنا شائبٌ　　وقد وددنا أنه لم يُشب ١/١٥٢

تقدم الناس فيا شوقنا　　إلى اتباع الأهل والأصدقاء
ما أطيب الموت لشرابه　　إن صح للأموات وشْك التقاء ! ١/٦٨

وإن أُعفَ بعد الموت مما يريبنى　　فما حظى الأدنى ولا يدى الخسرى ١/٧٩

إن يصحب الروحَ عقلى بعد مظعنها　　للموت عنى ، فأجدر أن ترى عجبا
وإن مضت فى الهواء الرحبِ هالكة　　هلاكَ جسمى فى تربى ، فواشجبا! ١/١٠٣

يا مرحباً بالموت من متنظر　　إن كان ثم تعارف وتلاقى ٢/١٤٠

إذا حرّق الهندى بالنار نفسه　　فلم يبق نحض للتراب ولا عظم

فهل هو خاش من نكير ومنكر   وضغطة قبر لا يقوم لها نظم ؟ ٢/٢٥٣
مضى الأنام ، فلولا علم حاكمهم   لقلت قول زهير : أية سلكوا ؟
فى الملك ، لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا   منه ،فكيف اعتقادى أنهم هلكوا ؟ ٢/١٤٥

وقال فى الفصول والغايات :

أما اللحاق بالقوم فقريب ، ولست من لقائهم على يقين ، فالقلب لذلك آسف حزين ، أفتراني أوجر على ذلك وأثاب ؟ (٤٧)

وخبر الميت غير جلى ، إلا أنه قد لقى ما حذر . (٢٥٨)

***

فى هذا الموقف الحائر بين الشك والإيمان ترى أبا العلاء يقول :

قال المنجم والطبيب كلاهما   لا تحشر الأجسام ، قلت إليكما
إن صح زعمكما ، فلست بخاسر   أو صح عزمى ، فالخسار عليكما لز٢/٢٩٠

إحدى اثنتين : إما أن يصح البعث فيكسب أبو العلاء ، وإما أن ينتهى الأمر بالموت فلا ضير عليه ، ومن يحاسب الميت الفانى الذى انتهى بالموت ؟

ويذكرنا هذا برهان بسكال ، حين تصدى لمحاورة من لا يؤمن بشىء بعد الموت . قال بسكال[1] : ما دمت لا تعلم أى شىء عما وراء الموت ، فأنت لا تستطيع أن تحكم بأنه حق أو باطل ، وليس من حقك أن تلوم من يراهن على هذا أو ذاك . قال صاحبه : لست أقول لمن يختار إنه أخطأ أو أصاب ، ولكنى أقول له : لقد أخطأت إذ اخترت ، أخطأت إذ قبلت الرهان وأنت غير واثق .

فقال بسكال : ما دمت حياً ، فحياتك ترغمك على الاختيار . بل إن توقفك عن الرهان ، معناه اختيار ، فكأنك تقول : لا معروف بعد الموت .

ثم مضى يحاور صاحبه :

(١) B. Pascal : Pensées (éd. L. Brunschvig P. 437)

«فلننظر ماذا يكون من أمر هذا الرهان . إن قلت نعم وربحت فقد كسبت ، وإن خسرت فلن تضيع شيئاً» . قال صاحبه : «بل أكون قد خسرت هذه الحياة التى أحياها ، أخسر متاعها لأن إيمانى بما وراء الموت ، يكلفنى الخضوع لأحكام خاصة ، والتنازلَ عن كثير مما أشتهى» . فمضى بسكال على طريقته الحسابية يهيئ صاحبه لقبول التضحية ويقول : «ربما كان ما تقوله حقاً ، ولكن . . . لو أنك موعود بحياتين ، ألا تضحى بواحدة لأجل اثنتين ؟ ولو أنك موعود بثلاث ، ألا تضحى بواحدة لأجل ثلاث ؟ ومع هذا ، فإنك لست موعوداً بواحدة ولا باثنتين ولا بثلاث ، وإنما بحياة سعيدة خالدة . وحياتك هذه ، فانية ولابد أن تنتهى ، رضيت أو كرهت ، اليوم أو غداً . وهذا يجعلك لا تتردد فى الاختيار . إذ خلود النعيم ينفى كل تردد . وقد تقول : كيف أضحى بخير محدود مؤكد ، لخير غير محدود ولا مؤكد ؟ فأقول : لا أحد يلوم من يجرب حظه فى رهان بمبلغ قليل ، ليربح ثروة طائلة» . فسأله صاحبه ، وهو يكاد يسلم : «ولكن ألا دليل لكى أراهن مخلصاً مغتبطاً غير حزين ؟» فأجابه بسكال : «هناك كتب السماء لو أردت» . قال صاحبه : «ولكن طبيعتى ليست مهيأة للإيمان ، حتى ولو آمن عقلى .» فأجابه : «هذا حق ، ولكن على الأقل تواضع ، وقل إنك عاجز عن العلم ، واجتهد فى أن تروض عواطفك لتؤمن بما يعجز العقل عن نفيه أو إثباته .»

هذا ملخص لرهان بسكال . وهو يشبه قول أبى العلاء فى جملته ، لولا أن بينهما فرقين واضحين .

أولهما ، يظهر فى طريقة عرض الرهان ، فأبو العلاء يلقى قوله على طريقته ، خطرة شعرية موجزة تثب بك إلى ما يريد ، من غير أن تعرف مراحل الطريق . وأما بسكال فيعرض رهانه مفصلا على طريقته الرياضية ، ويحاور صاحبه بالأرقام .

الفرق الثانى يتصل بروح المراهن ، فأبو العلاء لا يلجأ إلى هذا إلا حين يغلبه الشك ويعوزه اليقين . ورهانه عملى لا نظرى فهو يقول : إن لم يصح زعمى لم أخسر ،

وإن صح ، خسرتما أنتما ، فكأنه يقول بالأحوط . وهو يسمى قوله بالحشر زعماً ، وهذا دليل على شكه وحيرته. أما بسكال فهو مؤمن مقتنع بأن الموت ليس نهاية كل شيء ، وكان هذا الإيمان عدته فى المناظرة. وعليه اتكأ فى طول الحوار والتشبث بإقناع صاحبه.

* * *

وقف أبو العلاء حائراً لا يدرى ما ذا وراء الموت ، فتراه يغبط الجماد والحيوان الأعجم ، أن كانا لا يتوقعان شيئاً بعد الموت ، قال فى الفصول والغايات .

ليتنى كنت حجراً ، لا أمسى حذراً ، ولا أصبح وجراً. (٤٠)

طوبى لأكدر ، من بنات أخدر ، لا يتوقع كائنة بعد الموت . (٤٦)

عند جهينة الخبر اليقين :

فى هذا الموقف الحائر المتعب ، الذى لم يستطع أبو العلاء فيه أن يطمئن إلى شيء ، ود الرجل لو أن مخبراً صادقاً ينقذه من حيرته ، ويعلمه بما يكون بعد الموت ، ولهذا المخبر أن يختار نفائس ما يقدر عليه أبو العلاء .

« كيف لى بمخبر ، يعتام نفائس ما أقدر عليه ، يعلمنى بعد الموت ، كيف أكون » ، (الفصول ٢٧٨)

* * *

ولكن من يكون هذا المخبر الصادق ؟

ليس هو العقل ، فقد عرفت شعور أبى العلاء بقصور العقل ، وجزعه من توقفه .

وليس هو من هؤلاء الأحياء الذين لم يجتازوا مرحلة الموت ولا علم لهم بمعالمها

وجهينة هنا ، هو الميت

هو المخبر الصادق الذى شاهد وعانى وجرب . هو الذى سار فى الطريق وعرف مراحله ، وبلى الموت وشرب من كأسه .

هو الذى نودى إلى العالم الثانى ، وكشفت له الحجب ، وأزيحت أمامه الأستار .

آه لو عاد أحد هؤلاء الموتى إلى الحياة ، فقص على أبي العلاء أمر تلك الرحلة المجهولة ؟

لو جاء من أهل البلى مخبر سألتُ عن قوم وأرختُ
هل فاز بالجنة عمالُها ؟ وهل ثوى فى النار نوبخت ؟ لز١/١٧٤

فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع أو مرا ؟ لز١/٧٥

ولكن الموتى لا يعودون ، ولا يجيبون سؤالا :

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بلقاء الموت ميعاد ١/٢٥٦

ألوى القوم وأنقوا ، وثقلت الحقائبُ فألقوا ، من أين سقوا أو استقوا ؟ لاحت لهم النار بقو ، فلم يعرجوا بالرضمات ! فصول ١٢٧

* * *

ودّ أبو العلاء لو أن الموتى — وقد استحالت عليهم العودة — يبعثون برسالة إلى الأحياء ، ليحدثوهم عما ينتظرهم فى الغد المجهول ،(ولكن الموتى لا يبعثون برسالة ولا رسول)

وكم حل فيها معشرٌ بعد معشر من الناس ، عاشوا سوقة وملوكا
فما بلغتهم منك بعد رحيلهم ألوك ، ولا أهدوا إليك ألوكا لز٢/١٥١

لو غبرت ألف حقبة ، ما ورد عليّ منهم كتاب ولا رسول . فصول ٤٤١

* * *

فزع أبو العلاء إلى الموتى يسألهم ويلح فى السؤال : ماذا لقوا وواجهوا ؟ أين ساروا وإلى أين انتهوا ؟ كيف هم وأين هم ؟

لو كان ينطق ميت لسألتـه ماذا أحس وما رأى لما قدم ؟ لز٢/٣٢٢

ولكن الموتى لا يتكلمون ، يهتف بهم الصائح فلا يجاب ، كأن بهم صمماً فلا يسمعون نداء !

قال فى اللزوميات :

يا ساكنى الأرض كم ركب سألتهم عما فعلتم ، فلم أعرف لكم خبرا ١/٣٥٩

وقفتَ على أجداثهم وسألتَهم فما رجعوا قولا ولا ، سألوكا ١٥١/٢

مضى الناس إلا أننا فى صبابة كآخر ما تبقى الحياض أو الخرس

ولم يسمعوا قولا ، أمن صمم بهم ؟ ولم يفهموا رجعاً كأنهم خرس ! ٤/٢

وفى الفصول والغايات :

سلم الله عليكم أهل ديار ، لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترجل النهار . أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازل برحاب ! (٥٢)

كيف أصبحتم أهل المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم لَلخَطْبُ الجليل . . . . يهتف بكم الصائح فلا يجاب ! (٤٧)

***

لم يكن أبو العلاء أول من وقف هكذا على أجداث الموتى ، يسأل فلا يجاب . ما أشبه موقفه هذا بموقف قس بن ساعدة ، حين وقف أمام موكب الحياة ، ورأى الراحلين ينطلقون إلى الوادى المجهول فوجاً بعد فوج ، ثم لا يثوب منهم راحل ، ليحدث عما رأى وسمع ؟ ! رُوى أنه وقف بين الناس فى سوق عكاظ يلقى إليهم الموعظة ويهتف بهم قائلاً :

« أيها[1] الناس ، اسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . . إن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ؛ مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟

(١) البيان والتبيين (طبعة مصر سنة ١٣٣٢) جـ ١ ص ١٦٨ .
صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٢٢ (٢١٢/١)

« يا معشر إياد ؟ أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ؟

في الذاهبـــين الأولـيـــن من القرون لنا بصائر
لمـــا رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر »

* * *

فزع أبو العلاء إلى الموتى يسألهم ولكنهم صمتوا فلم يجيبوا له سؤالاً ، ولم يلقوا إليه خبراً ، ولم يبعثوا إليه رسالة ولا رسولاً .

لم يبق منهم إلا طيف ، يلم بنا في رؤى المنام ، ولو صدقت الأحلام لاطمأن أبو العلاء إلى ما يخبر عن سكان القبور ، ولكن الأحلام تكذب .

قال في سقط الزند :

وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان برء للنفوس وإعلال
إذا نمتُ لاقيت الأحبة بعد ما طوتهم شهور في التراب وأحوالُ

وقال في اللزوميات :

غُيِّب ميت فما رأته عين ، سوى رؤية المنام ٣٠٨/٢

وقال في الفصول والغايات :

أسعد الله الأرواح ، فلا أعرف فائدة للدفين في قول القائل : أيها القبر سقيت غماماً .
إن الحي والميت لا يتزاوران ، فرضي الله عن قوم نراهم في الرقدة لماماً . (٤٤٢)

سبحانك مؤبد الآباد ، . . . هل للمنية نسب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحداً من الأموات ، وإذا هجعت لقيني قريبُ عهدٍ بالمنيةِ ، ومن قد فُقد منذ أزمان

أسألهم فيجيبون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم بحبل الحياة متعلقون . . . . . لوصدق الرقاد لسكنتُ إلى ما يخبر عن سكان القبور ، ولكن الهجعة كثيرة الكذاب ! (٨٠)

* * *

هذه هى المرحلة الأخيرة للإنسان كما صورها أبو العلاء .

رحلة مبهمة ، فى تيه الظلمات . . . .

معالمها تائهة ، ومراحلها غامضة ، ومناراتها خابية الأضواء . . .

والسراة فيها خليط منوع غريب . .

وكل سار فيها لا يعود . . . .

الخـــاتمة

و بعد فهذه دراسة لجانب واحد من فنّ أبى العلاء ، أخذنا فيها بالمنهج الحق الذى يقضى بالتخصص ، ويفرغ للمسألة الواحدة فيعكف عليها السنين الطوال .

لقد جمعنا تأملات أبى العلاء فى الحياة الإنسانية ، فصحبناه وهو يتبع مراحلها ، ويرصد متاعبها ويواجه مشكلاتها .

لم يكن حديث أبى العلاء فى هذه المسائل الإنسانية حديث فيلسوف يرقب تجربته ، أو ينظر بعقله ، ويتحدث بمنطقه ، ولم يكن حديث شاعر يهيم فى كل واد ويقول ما لا يفعل ، وإنما كان حديث إنسان متأمل ممتاز ، يعالج هذه المسائل بكل قوى إنسانيته ، ويفكر فيها بعقله وقلبه ونفسه جميعاً .

***

ولسنا نقول إننا انتهينا إلى كشف جديد هام ، أو أتينا بما لم يأت به الأوائل ، ولكنا نقول إننا انتهينا إلى بعض نتائج ، نرجو أن تكون ذات أثر فى توجيه الدراسات المفصلة التى ننتظر أن ينهض بها أصدقاء أبى العلاء وتلاميذه .

من هذه النتائج :

١ — تحقيق الشخصية الفكرية ، لأبى العلاء ، ومحاولة فهم تعليل تردده فى مسألة المعرفة ؛ فقد آمن بالعقل حيناً وأسرف فى الثقة به حتى جعله إماماً ونصيراً ونبياً ، ولكن هذا الإسراف جعله يضيق بقصوره عن فهم أسرار الكون وألغاز الغيبيات ، ومن ثم كانت تعاوده لوثة الشك من حين إلى حين فيرتد عن الإيمان بالعقل ويتهمه بالعجز ويظن به الصدأ ، ويسوى بينه وبين الجهل ، وهو فى هذا يحيل — كأهل الأديان — على القدرة الإلهية ، ويعترف لها بالقدرة على « المستحيلات ، وما يمتنع فى العقول » .

٢ — إقرار مكان أبى العلاء بين الشعر والفلسفة . وقد أوردنا أقوال من ينكرون

فلسفته . واعترفنا بأنه لم ينهج منهج الفلاسفة فى عرض تأملاته ، ولم يثبت على رأى بعينه فى المسألة الواحدة ؛ ولم يخضع فى فهمه للكون ، لأصل ثابت من أصول المعرفة . ثم واجهنا من يجحدون شاعرية أبى العلاء ويرون أن نظمه « ليس من الشعر فى شىء » ، محتجين بأنه خرج عن المألوف ، وتصدّى بالشعر لمعالجة المسائل العقلية والأمور الجدية . وقلنا إن هذه الضوابط لا تلزمنا لأن تقيدنا بها وقوف بالشعر حيث تركه الأقدمون ، وتجاهل لذوقنا وإنكار لتسامى الفن . ثم لاحظنا أن الإنسانية قد عرفت هذا النوع من الشعر الذى يزدحم بالمعانى ويتصدى لمعالجة المسائل العليا ، وكان هذا النوع من الشعر فخر الرومان فى شعر لوكريس ، والفرنسية فى ألفريد دى ڤينى ، والفارسية فى الخيام ، والهندية فى طاغور وإقبال . كما عرفته العربية فى شعر المتصوفة .

لاحظنا كذلك أن العرب فى تحديد الشعر ، أهدروا معنى الشعور ، وهو أجدر المعانى بالاعتبار لأنه الأصيل فى المادة — نلاحظه فى دورانها وتطورها — وأبو العلاء يجد فيعبر ، وشعره يترجم عن شعور نقى صاف قوى ، فهو بهذا جدير بأن يكون شاعراً لا تتهم شاعريته .

ولم ننكر أن فى شعره طائفة أفسدها التكلف والإكثار من المعانى والآراء إكثاراً يشبه أن يكون مجرد نظم لها ، ولكنا استبعدنا شرط ثبات المستوى ، فى فهم الشاعرية .

ولم ننكر أيضاً أن أبا العلاء يختلف عن الشعراء ، ولكن هذا الاختلاف يأتى من كونه يجدّ فى قوله ، ويعنى ما يقول ، ويعبر عما يَجِدُ ، صريحاً جريئاً غير متملق شعور العامة ولا مصالح الخاصة ، ومن ثم طلبنا لأبى العلاء مكانه بين الشعراء المتأملين الممتازين .

٣ — وعرضنا تأملات أبى العلاء فى العلة الغائية — وهى المرحلة الأولى من مراحل الحياة الإنسانية — فرأيناه يرفض رد الخلق إلى علة نعرفها ، ويأبى الاعتراف بأن الكون مخلوق لنا مسخر لأجلنا ، منتهيا إلى أن الله قد خلقنا لحكمة يعلمها هو ، وأن لكل كائن حى ، حقه الذاتى فى الحياة .

٤ — وفى مرحلة الحياة رأيناه يواجه مشكلتين : الخير والشر ، والجبر والاختيار .

فى الأولى — آمن بأن الله خلق الخير والشر جميعا ، لـكنا لا نعلم حكمة خلقه للشر ، إلا أنه تعالى يفعل ما يشاء ، سبحانه لا يُسأل عما يفعل .

وفى الجبر والاختيار: ناقشنا قول من قالوا إنه جبرى ، ورفضنا أن نقول إن الرجل كان يلتزم رأياً بعينه ، فليس مجبراً ، وليس مخَيَّراً ، وليس متوسطاً ، وإنما يبعد فى الجبر حيناً ، ويمعن فى الاختيار حيناً ، ويتوسط بينَ بينَ ، حيناً ثالثاً من غير أن يثبت عند رأى بعينه .

٥ — ثم صحبناه وهو يواجه مأساة الموت فرأيناه مرة يرحب بالموت ، وأخرى يُفزع منه فزعا رهيباً غريباً ، وقد فسرنا ذلك : فهو يرحب بالموت لأنه يائس متعب متشائم . وهو يفزع من الموت لأسباب ثلاثة :

حبه للدنيا — وقد حققنا هنا مسألة زهده ، وصححنا ما شاع على الألسن عن انتصاره على الدنيا وبغضه لها ، مؤكدين أن هذا وهم مكذوب . فالرجل لم يبرأ قط من حب الدنيا، ولم يسل عنها أبداً . وإنما زهد فى ملذاتها التافهة، حين عجز عن الظفر بكل ما اشتهى من مجدها ونعيمها .

والسبب الثانى خوفه وجهله بما وراء الموت .

والسبب الثالث أن الموت هو مأساة الإنسانية الكبرى : كل نار تخبو ، وكل عامر يخرب ، وكل بناء يتقوض ، وكل حى إلى ممات .

٦ — هنا أصغينا إليه وهو يقف حائراً أمام المرحلة الأخيرة — بعد الموت — هو يؤمن بأن أجسادنا تبلى ، ورممنا تنهك ، ثم تنسى . ولـكنه يجهل ما وراء ذلك . فزع إلى العقل فلم يسعفه العقل ، لأنه لم يطرق بعدُ مجال الغيبيات .

وسمع الأقوال عما وراء الموت ، فأنكرها وأباها ، لأنه لا يطمئن إلى الخبر وإن تواتر . وعرض الأمر على القدرة الإلهية فرأى البعث ممكناً ، ولـكنه لم يطمئن إلى رفض أو

يقين، فودّ لو عاد ميت فقص عليه ما رأى وعانى وجرب، ولكن الموتى لا يعودون. وهم كذلك لا يسمعون قولا ولا يجيبون سائلا .

هذه هى خطوات البحث ، وتلك هى النتائج التى انتهينا إليها ، وترى أننا فى بعضها رفضنا أن نعترف لأبى العلاء برأى بعينه ، كمسألة المعرفة، والجبر والاختيار ، وما وراء الموت . ولسنا لهذا كارهين ، فما من مهمتنا أن نتكلف رأياً نضيفه إلى الرجل حين نراه مضطرباً لا يثبت عند رأى. وليس معنى هذا أننا أتعبنا أنفسنا دون جدوى، ودرسنا فلم ننته إلى شىء ، بل نكون قد انتهينا إلى أن أبا العلاء لم يثبت عند رأى بعينه .

ولقد كنا فى حاجة إلى أن نؤرخ تأملات أبى العلاء ، لكى نعرف كيف تكونت آراؤه ، وكيف عاشت فى نفسه . ونربط بينها و بين الحوادث التى وقعت له ، والمؤثرات التى تعرض لها . لكن هذا التأريخ — على ما يعترضه من حوائل مادية ليس من السهل تذليلها — يحتاج إلى خدمة هائلة ، يقوم بها من يتوفرون على البحث والدراسة والاستقراء ، حتى يردوا أقوال أبى العلاء إلى تاريخ منضبط أو مقارب . فلم نر من الأمانة العلمية أن نتناول هذا التأريخ ،عرضاً وتبعا .

ولم يكن سهلا علينا أن نتتبع أقوال أبى العلاء فى المسألة الواحدة ، فقد بثها متناثرة مشتتة فى ثنايا قصائده وفصوله، لا تنفرد القصيدة الواحدة أو الفصل الواحد، برأى بعينه، و إنما ينتقل مسرعاً فى عوالم متباينة ، غير حريص على رعاية الانتقال أو وحدة السياق.

ولسنا نقول إننا بلغنا فى بحثنا هذا ما نطمع له من كمال ، ولكننا نؤكد أننا حرصنا أشد الحرص على بلوغ هذه الغاية ، وبذلنا لها الجهد المستطاع ، وتكلفنا فى سبيلها ما هى جديرة به من تعب وعناء ، غير ضجرين ولا متبرمين ؟

(بنت الشاطىء)

الأورمان
أول مايو ١٩٤١